مائير دورون
جوزيف غيلمان
ترجمة : محمود علي ماهر

إصدارات سطور الجديدة

he woke up and made tea

سري للغاية من اسرائيل

حياة أرنون ميلتشان العميل الإسرائيلى الذى أصبح أحد اباطرة هوليوود

TOP SECRET



الغراف

حسين جميل

هذه هى القصة المثيرة

، عن عميل سرى

، عن الانشطار النووى

، عن صفقات بمليارات الدولارات لمعدات دفاع عسكرية عالية التقنية

، عن التوجه الفكرى

... وعن المسيرة العملية المريبة لإسرائيلى غامض من أباطرة هوليوود أرنون ميلتشان ، الجاسوس الإسرائيلى و تاجر السلاح ، فقير الموهبة و الحس الفنى ، تم فرضه على المشهد السينمائى الأمريكى بفضل علاقاته بيهود هوليوود وعلاقاته بمدراء الاستديوهات الكبرى ، و ذلك من قِبل الاستخبارات الإسرائيلية بعد فشله الذريع كعميل استخباراتى . إلا أن ميلتشان أثبت أيضا فشله الذريع فى مجال الإنتاج السينمائى.

لقد أيقنتُ بعد ترجمتى هذا الكتاب أن الكيان الصهيونى لا يستهدف المنطقة العربية وحدها بالدمار و إشاعة الفرقة وأنه لا يجعل منها عدوه الوحيد حيث نكتشف أن إسرائيل تتعامل بنفس الروح العدائية و سوء النية مع دول تزعم أنها حليفتها. ولنا فى تجسسها على الولايات المتحدة و ألاعيبها مع جنوب إفريقيا العنصرية أمثلة على ذلك حيث كانت تتقاضى أموالاً طائلة من نظام الحكم العنصرى السابق فى جنوب إفريقيا بواسطة ميلتشان و غيره مقابل الترويج له عبر وسائل الإعلام فى مختلف الأنحاء و نظير الحصول من جنوب إفريقيا على اليورانيوم لمفاعل ديمونة النووى الإسرائيلى ..



سـري للغايـة...
من إسرائيـل!

إصدارات سطور الجديدة

رئيس مجلس الإدارة: د. فاطمة نصر

المستشار الفني: حسين جبيل gopy_art@yahoo.com

سرى للغاية... من إسرائيل!

حياة أرنون ميلتشان العميل الإسرائيلى الذى أصبح أحد أباطرة هوليوود

تأليف: مائير دورون - جوزيف غيلمان

ترجمة: محمود على ماهر

هذه هي الترجمة الكاملة لكتاب

CONFIDENTIAL

The Life of Secret Agent
Turned Hollywood Tycoon
Arnon Milchan

المؤلف: **Meir Joseph - Doron Gelman**

دار نشر: **Gefen Books, 2011**

طبعة سطور الجديدة ٢٠١٥

ـ الكتاب: سرى للغاية... من إسرائيل!
حياة أرنون ميلتشان العميل الإسرائيلى
الذى أصبح أحد أباطرة هوليوود
– تأليف: مائير دورون – جوزيف غيلمان
ترجمة: محمود على ماهر
– غلاف: حسين جبيل gopy_art@yahoo.com
– المراجعة اللغوية: عمر حسن الشناوى omar_shenawy@yahoo.com
الطبعة ج ٢٠١٥
رقم الإيداع: ٢٠١٤/١٧٢٦٤
الترقيم الدولى: 978-977-5296-115

٨ و٣٢ تقسيم الشيشينى بجوار الكوبرى الدائرى
كورنيش المعادى ت: ٢٥٢٤٠٠٢٠ / ٢٥٢٦٣٥٩٩
e.mail address:sutour@linh.net
الموقع الإلكترونى
www.sutour2.com
صفحة فيس بوك
www.sutouralgadida.com

بيانـــات الفهرســـة

مائير دورون – جوزيف غيلمان

سرى للغاية... من إسرائيل!

حياة أرنون ميلتشان العميل الإسرائيلى

الذى أصبح أحد أباطرة هوليوود

ترجمة: محمود على ماهر

ط ١– (القاهرة: مكتب سطور للنشر ٢٠١٥)

مكتب سطور، ٢٠١٥

ص، سم ١٧ / ٢٤

تدمك: ٩٧٨٩٧٧٥٢٩٦١١٥

١– سرى للغاية... من إسرائيل!

حياة أرنون ميلتشان العميل الإسرائيلى

الذى أصبح أحد أباطرة هوليوود

أ – على ، محمود (مترجم)

ب– العنوان: ٨ و٣٢ تقسيم الشيشينى بجوار الكوبرى الدائرى

كورنيش المعادى ت: ٢٥٢٤٠٠٢٠ / ٢٥٢٦٣٥٩٩

e.mail address:sutour@linh.net

الموقع الإلكترونى

www.sutour2.com

إهـــداء

إلى كل شهداء القوات المسلحة المصرية ومصابيها وأبطالها ، والمخابرات العامة المصرية، وقوات المقاومة الشعبية فى نضالهم ضد الكيان الصهيونى المحتل ودولة إسرائيل منذ حرب فلسطين ١٩٤٨ وحتى يومنا هذا.

الترجمة

مقدمة المترجم أو... الخلاصة!

منذ بدأت في ترجمة هذا الكتاب وأنا أحلم باللحظة التي أبدأ فيها كتابة رأيي فيما جرى العرف على تسميته «مقدمة المترجم» وأسميه أنا «الخلاصة». ذلك لأنه يحوي خلاصة رأيي في عمل استغرقت قرابة الأربعة أشهر في ترجمته. لكن قبل أن أبدي رأيي، أود أن أروي لكم تلك الحكاية الموجزة.

ذات يوم، هرعت كعادتى لدى استيقاظى، إلى تصفح آخر الأخبار الإلكترونية على فيسبوك، أو على غيره من المواقع الإخبارية. وجدت أن صفحة قناة "mbc2"، والتى تعد أشهر قناة تبث أفلاماً أجنبية مترجمة فى العالم العربى، قد نشرت خبراً عن أرنون ميلتشان، المنتج الهوليوودى الشهير فاحش الثراء، والذى خرج عن صمته لأول مرة، واعترف فى لقاء على القناة العاشرة الإسرائيلية، والتى يمتلكها مناصفة مع حاييم صبان، رجل الأعمال الإسرائيلى مصرى الأصل، بأنه كان فى الأصل جاسوساً إسرائيلياً، وأن الأموال الطائلة التى جناها من إنتاج الأفلام، كانت تذهب لدعم الترسانة النووية الإسرائيلية. وببحث موجز، وجدت أن صحفيين أحدهما إسرائيلى يدعى مائير دورون، والآخر أمريكى تطوع فى الجيش الإسرائيلى

واسمه جوزيف جيلمان، قد ألفا كتاباً عن حياة المدعو أرنون ميلتشان وأسمياه "Confidential" أو سرى للغاية.

اتصلت بدار نشر سطور، والتى كانت قد نشرت لى كتابى المعنون «يهود هوليوود» وأخبرتها بأمر ذلك الكتاب الجديد، وبصلته الوثيقة بكتابى الأول، وباستعدادى للقيام بترجمته. وبالفعل، قامت دار النشر باقتناء النسخة الإنجليزية من الكتاب، وأناطت إلىَّ مهمة ترجمته، الأمر الذى أسعدنى، ذلك لأننى كنت أعرف يقيناً أنه يحمل الكثير من المفاجآت. وأوجز فى النقاط التالية «إنجازات» الجاسوس «المبدع» أرنون ميلتشان:

١- فشل جميع شبكات التجسس التى كونها منذ تجنيده للعمل لحساب الاستخبارات الإسرائيلية فى مطلع الستينيات وسقوطها.

٢- خيانته وتنكره لمعظم العملاء الذين جندهم للعمل لصالح وكالة الاستخبارات الإسرائيلية «لاكام» والتى كان من أهم مؤسسيها، هذا على الرغم من خدمتهم له وللوكالة بكل تفان. لكنهم ما إن سقطوا فى أيدى أجهزة استخبارات بلادهم، حتى تنكر لهم هو وإسرائيل، ولنا فى قصتى ريتشارد كيلى سميث وچوناثان بولارد، الأمريكيين اللذين تجسسا لصالح إسرائيل واللذين سنأتى على ذكرهما مثالٌ على ذلك.

٣- سيرد فى هذا الكتاب صور بشعة للخيانة من جانب الإدارة الإسرائيلية متمثلة فى وكالاتها الاستخباراتية لجميع الدول التى تزعم إسرائيل أنها من أقوى حلفائها مثل فرنسا، وإيران فى عصر الشاه، وجنوب إفريقيا بل والولايات المتحدة. نراها تسرق منها أحياناً، وتنقلب عليها أحياناً أخرى، بل وتتجسس عليها أيضاً. والأعجب أن الولايات المتحدة هى من أكثر الدول التى ضبطت إسرائيل تتجسس عليها، بمثل تتجسسها على إسرائيل.

٤- يتكشف لنا أيضاً أن الجاسوس ميلتشان زير نساء من الطراز الأول، أو أنه من أكثر الرجال وضاعة وخيانة لزوجاته وعشيقاته، ولنا فى قصة زوجته الأولى بريچيت چونمير التى حفيت قدماه لينال رضاها، ثم خانها وهى لم تنجب بعد طفلها الأول، مثال.

٥- أوضحت فى كتابى «يهود هوليوود» أنه عُرِف عن اليهود، فى مجملهم، أن عقليتهم مادية نفعية، الأمر الذى يحرمهم من فرص التمتع بالموهبة الفنية الحقيقية والإبداع الأصيل، ويجعل جل همهم جنى أكبر قدر من المكاسب المادية واللوچستية. ولو على حساب أبنائهم وذويهم. يتجسد

هذا في شخص أرنون ميلتشان، تاجر السلاح -حسب وصف الكثير من أعضاء الوسط السينمائي الأمريكي له- فقير الموهبة والحس الفني، والذي تم فرضه على المشهد السينمائي الأمريكي بفضل علاقاته بيهود هوليوود وعلاقاته بمدراء الاستديوهات الكبرى، وذلك من قبل الاستخبارات الإسرائيلية بعد فشله الذريع كعميل استخباراتي. إلا أن ميلتشان أثبت أيضاً فشله الذريع في مجال الإنتاج السينمائي حيث قام بإنتاج ما يربو على ١٢٠ فيلماً على مدار أكثر من ٣٥ عاماً، ولم ينجح منها سوى ثلاثة أفلام أو أربعة على أكثر تقدير، وترك لنا رصيداً هائلاً من الأفلام التافهة التي فشلت مالياً وجماهيرياً.

٦- أخيراً وليس آخر، لقد أيقنت بعد ترجمتي هذا الكتاب أن الكيان الصهيوني المحتل المتمثل في دولة إسرائيل لا يستهدف المنطقة العربية وحدها بالدمار وإشاعة الفرقة وإثارة النزاعات ولا يجعل منها عدوه الوحيد. حيث نكتشف في هذا الكتاب أن إسرائيل تتعامل بنفس الروح العدائية وسوء النية مع دول تزعم أنها حليفتها. وربما فسر هذا الكتاب سر عدم ثقة كثير من الدول في دولة إسرائيل. مثلاً، سنكتشف من قراءتنا للكتاب أن إسرائيل، ممثلة في أرنون ميلتشان وغيره من العملاء، كانت تتقاضى أموالاً طائلة من نظام الحكم العنصري السابق في جنوب إفريقيا مقابل الترويج لنظام التفرقة العنصرية وسياسات الفصل العرقي واستهجان البشر عبر وسائل الإعلام في مختلف الأنحاء، وأيضاً مقابل الحصول من جنوب إفريقيا على اليورانيوم لمفاعل ديمونة النووي الإسرائيلي.

نحتاج إلى قراءة هذا الكتاب بعناية وتمعن، حيث إنني حرصت على أن آتي بالمعلومة من مصدرها، بحيث لا يمكن لأحد أن يتهمني بالتعصب وعدم

الموضوعية أو «معاداة السامية». فقد قاموا هم بنشر غسيلهم القذر وكشف مؤامراتهم الدنيئة وخيانتهم حتى لأقرب حلفائهم، وتفاخروا بها على أنها إنجازات وبطولات فى سبيل الوطن!.

المترجم

تمهيد

كنت أفضّل ألا يكتب أحد كتاباً عني

أرنون ميلتشان

في مساء ١٨ سبتمبر ٢٠٠٨، كان من السهل أن يعتقد المرء خطأ أن هناك افتتاحاً لفيلم ضخم في استوديو باراماونت، إذ وصلت الأضواء الاستكشافية الساطعة لعنان السماء بينما كان النجوم المشاهير يسيرون على البساط الأحمر ويصحبهم وميض الكاميرات الذي يعمي الأبصار. لكن هذا الحدث كان مختلفاً، إذ كان السبعمائة وكذا من الحضور كلهم من المديرين التنفيذيين للاستوديوهات ومن قادة المجتمع، والذين لم يأتوا لتكريم فيلم بل... رجل.

وصل أرنون ميلتشان مع زوجته أماندا، وبدا غير مرتاح فى بذلته الرسمية، أو وسط كل هذا الاهتمام الفائق به. سرعان ما سعى للاختفاء بين حشود الحضور. لكن لم يكن هناك سبيل للهروب من كل الخطابات التى تمتدحه، ومن الفيلم المفصل الذى يوثق إنجازاته السينمائية.

وبالرغم من أن اسمه مرتبط بأفلام ضخمة فى هوليوود مثل امرأة جميلة وحرب عائلة روز وسرّى فى لوس أنجلوس ونادى القتال والسيد والسيدة سميث، وملحمة المؤامرة التى أخرجها أوليفر ستون أو فيلم جيه إف كيه، فلم يكن سوى القليلين من الجمهور على دراية بالحياة الخاصة للرجل الذى كانوا على وشك تكريمه بمنحه جائزة أفضل إنجازات العمر. وكإعادة صياغة لما قاله ونستون تشرشل فميلتشان عبارة عن لغز ملفوف فى سر غامض بداخل أحجية، وهذا الكتاب يكشف عنه هذا الغطاء الغامض.

هذه هى القصة المثيرة للجدل عن عميل سرى، عن الانشطار النووى، عن صفقات بمليارات الدولارات لمعدات دفاع عسكرية عالية التقنية، عن التوجه الفكرى، عن الوطنية، وعن المسيرة العملية المريبة لواحد غامض من أباطرة هوليوود.

أرنون ميلتشان الذى ولد فى إسرائيل عام ١٩٤٤، عاش الحياة التى أحب كل من إيان فليمينغ وجون لو كاريه أن يكتبا عنها، والتى يروق لستيفن سبيلبرغ أو ربما حتى أوليڤر ستون أن يصنعوا فيلماً عنها. ميلتشان يحب المخاطرة، ساحر لكنه قوى الشكيمة، كتوم لكنه مشهور... فقط فى أوساط المشاهير. كان عميلاً سوبر بكل معنى الكلمة، وأقرب ما يكون لشخصية حقيقية لجيمس بوند. وهو خبير فى أنواع النبيذ الفاخرة والمقامرة بمبالغ طائلة، والخداع، والسيارات الغريبة، والأسلحة العجيبة، ويملك مجموعة فنية خاصة تقدر بـ ٦٠٠ مليون دولار متناثرة فى منازله بكافة أنحاء العالم، من موناكو إلى جنوب إفريقيا، ومن باريس إلى ماليبو إلى إسرائيل.

لقد بدأنا هذه المحاولة الكتابية ككاتبين لسيرته دونما ترخيص منه وسرعان ما وجدنا أنفسنا نضطلع بمهمة المخبرين السريين وأصبحنا كمحققين نرفع طبقات متتالية من الأغطية الخفية، ونكشف عن قصة رجل فريد وعن تورطه العميق في صراعات إسرائيل السرية للبقاء.

لعدة أشهر وبدون علم ميلتشان أو موافقته، انغمسنا في سجلات المحاكم والمقالات غير المعروفة في كل من الصحافة العبرية والإنجليزية، بالإضافة إلى الروايات والمذكرات الخاصة. واعتمدنا بشكل كبير على معرفتنا المباشرة بالثقافة واللغة التي انبثق منها موضوعنا، وتحدثنا مباشرة مع الشخصيات الأساسية المذكورة في الكتاب، وزرنا معظم المواقع المذكورة به.

بذلنا كل الجهد لتوثيق الوقائع بأكبر قدر ممكن من الصدق والتكاملية والحيادية والصحة، وبوضع الأمور في سياقها التاريخي الكامل. قمنا باجتزاء العديد من المقولات المأخوذة عن ميلتشان أو آخرين المستخلصة أو المترجمة من مقابلات نادرة أجريت على مدار عقود في الصحافة العالمية. تتضمن المصادر الأخرى السيرة الذاتية لجد ميلتشان والتي نشرها بنفسه، بالإضافة إلى سلسلة من المخطوطات غير المعروفة الواقعية والمختلقة، والمكتوبة تحت اسم مفترض لشخص ذي علاقة مباشرة بحياة ميلتشان السرية. ولقد اكتشفنا هذا الكاتب بواسطة عملية بحثية، وواجهناه شخصياً، وتأكدنا من صحة هويته.

وما أن انتهينا من إعداد المخطوطة، فاجأنا بها ميلتشان ومنحناه الفرصة للرد. في البداية كان متردداً وربما حتى متخوفاً، وفي النهاية وافق على مقابلتنا بعدما قدمنا له كل التطمينات بنوايانا الحسنة الشريفة. وخلال القليل من الاجتماعات الودودة، تمكنا من التحقق من صحة معظم التصريحات الواردة بهذا الكتاب، وصححنا العديد من أخطاء الوقائع. ومن جانبه، فقد رفض ميلتشان تأكيد أي من التصريحات العديدة الحساسة الخاصة بالأمن أو إنكارها. ومع ذلك وعبر أرفع مستويات السلطة في إسرائيل تحققنا

جيداً من مجمل الحقائق الحساسة محل الخلاف والمتعلقة بالأمن الإسرائيلي، والتي يعج بها هذا الكتاب. كان هناك العديد من المصادر، لكن أهم التأكيدات جاءت على لسان الرئيس الإسرائيلي شمعون بيريز نفسه، في مقابلة خاصة أجريناها معه في مقر الرئاسة بالقدس في ٨ فبراير ٢٠١٠ وقال:

أرنون رجل متميز وأنا من جندته، للعمل السرى خارج النظام الرسمي، وأسهم بأفكار مذهلة ومستوى من الإبداع ساهم بشكل رائع في خدمة بلدنا. عندما كنت وزير الدفاع، كان أرنون معنياً بالعديد من الأنشطة الشرائية الخاصة بالدفاع العسكري والعمليات الاستخباراتية. وكان مناط قوته صنع علاقات على أعلى المستويات في عدة دول حول العالم، ومنها دول هامة لا تربطها بإسرائيل علاقات رسمية. ولقد قدمت نشاطاته فوائد هائلة لنا استراتيجياً، ودبلوماسياً، وتكنولوجياً ولا يزال أرنون يقوم بذلك حتى يومنا هذا، لكن على الصعيد الاستراتيجي فحسب.

أناس قليلون في هوليوود أو في أي مكان على دراية بإنجازات ميلتشان «البطولية»، والعديد من أصدقائه المقربين سيفاجئون عندما يقرءون ما يلي. أخبرنا سامر ريدستون مالك شركة الإعلام الضخمة (فياكوم) إنه "خارج نطاق الهمسات والأفلام، لا يعرف سوى القليلين دور أرنون في إمداد إسرائيل بحاجاتها للدفاع العسكري، وتكوين قدراتها الرادعة المتقدمة. أنا ومعظم الناس لا نعرف تفاصيل ذلك، لكنني أميل إلى الاعتقاد بأنه رجل عظيم. بالنسبة لي هو السيد إسرائيل، إذ عرفني على جميع رؤساء وزراء إسرائيل منذ الثمانينيات".

قال عنه روبرت مردوخ أهم أباطرة الإعلام العالمي ومدير نيوز كوربوريشن: أرنون ميلتشان رجل متعدد المواهب شغوف بكل ما يقوم به، فهو رجل أعمال إسرائيلي، وسياسي إسرائيلي متحمس، ومنتج هوليوودي وجامع رائع للأعمال الفنية. إنه صديق وفي وكريم يتصادف أنه أيضاً شريك قديم عظيم وأهل للثقة.

أيضاً قال عنه بيتر شيرنين مدير ورئيس مجلس إدارة فوكس إنترتنمينت ذات مرة مازحاً "إياك أن تقول نكاتاً عن رجل يستطيع بسهولة جلب أسلحة دمار شامل".

في الواقع ربما لا يكون الكثيرون على دراية بتفاصيل حياته السرية، لكن يكاد كل شخص يعيش على هذا الكوكب أن يعرف العديد من إسهاماته في ثقافتنا الشعبية السينمائية. ولذا أسمينا كل فصول هذا الكتاب بأسماء أفلامه.

وكأي شخص يعمل في هذا المجال فقد ارتكب بعض الأخطاء الفادحة، وتورط في العديد من المساعي المثيرة للجدل، واحتك بالبعض بطريقة خاطئة ويبدو أنه يثير الكثير من النقد اللاذع أو حتى الغيرة من بعض ضحاياه، بالرغم من ذلك فإن كثيراً منهم مستعدون للعمل معه مجدداً.

يسعى هذا الرجل ذو الشخصية المركبة والذي عاش لفترة طويلة بأوجه متعددة عن طريق تقسيم حياته أجزاء مستقلة عن بعضها لإيجاد بدائل وسبل عامة لترك أثره على هذا العالم، بتخطي جمع الاستخبارات، وشراء معدات الدفاع العسكري عالية التقنية، والأفلام الضخمة في هوليود. ميلتشان ضالع بشدة في السياسة، أو على حد قوله ناشط سياسي قوي وراء الكواليس. ومنذ أعوام كان ينزعج بشدة لمجرد ذكر كلمة السياسة، كما كان ينزعج من لفظ ثري خاصة عندما يشير إليه، لكن الوقت والخبرة عملا على شفائه من هذا الانزعاج.

لم يكتب أرنون بعد فصله الأخير وقد بلغ الخامسة والستين من عمره. ولا يزال يرى فرصته التالية، وحلمه التالي، وفيلمه المقبل، كفرصة لإحلال السلام في الشرق الأوسط!!

وكما في أي فيلم ضخم في هوليوود، ففيلم الإثارة المتمثل في حياته حتى الآن، سيكون له جزء ثان بأسلوب أو آخر.

١

رجـل يحتــرق

كنت مسافراً، ولم يكن لى أدنى علاقة بهذا المجال على الإطلاق فى ذلك الوقت

أرنون ميلتشان فى برنامج ٦٠ دقيقة، ٥ مارس ٢٠٠٠

أرنون ميلتشان كان منفعلاً... منفعلاً للغاية، إذ تلقى مكالمة هاتفية فى شقته فى باريس من محرر فى جريدة نيوزويك يسأله فيها عن رد فعله تجاه الاتهام الصادم للدكتور ريتشارد كيلى سميث، رئيس شركة ميلكو ليميتد، وهى شركة تعمل كواجهة للاستخبارات الإسرائيلية، لشحنه أنابيب الكرايترون لإحدى شركات ميلتشان فى تل أبيب.

العلانية شيء يحاول أى عميل سرى تجنبه، وكان ميلتشان يبغضها بخاصة.

وفى الأيام التالية أفادت الصحف العالمية بأن أنابيب الكرايترون تستخدم كمفاتيح تشغيل متطورة لتفجير القنابل النووية. فى الواقع فأنابيب الكرايترون موجودة منذ أواخر الثلاثينات، لكن استخدامها هى وأشياء أخرى، كميكانيكية أولية لإطلاق الأسلحة النووية، لم يكن معروفاً لعامة الناس حتى ذلك اليوم بعينه فى مايو ١٩٨٥ .

وتنبأ المحللون الإعلاميون بتبعات حادة على العلاقات الأمريكية الإسرائيلية، ووفقاً لسميث فقد دفعت شركة ميلتشان إياه دفعاً لشراء أنابيب الكرايترون، وكان يعرف جيداً الغرض منها وأنها من المواد شديدة الحساسية والتى جمعها ميلتشان على مر السنين من أجل بلده.

وفى المجمل فقد طلبت شركة ميلتشان والمسماة هيلى تريدينغ ليميتد ٨١٠ أنبوبة

كرايترون، شحنها من سميث من دون الحصول على رخصة بتصدير الذخيرة التى تتطلبها وزارة الخارجية، وتدخلت إدارة الجمارك الأمريكية والمباحث الفيدرالية وتأزم الموقف. وأصبحت صفقة شركة ميلكو معرضة للخطر. وخشى ميلتشان من أن يلاحقه قضائياً المدعى العام الطموح سياسياً والمحب للظهور.

وبعد حديث قصير مع محرر مجلة نيوزويك، كان معظمه يدور فى فلك ادعاء الجهل بالأمر، حجز ميلتشان على أول رحلة جوية متجهة إلى تل أبيب، وخلال ساعات احتشدت فرق القنوات التليفزيونية والمصورون أمام البناية التى يملك فيها شقة علوية، وأخذ الهاتف يرن بشكل جنونى، ولم يلق ميلتشان بالاً لكل ذلك.

لكن كانت هناك مكالمة بعينها لم يستطع ميلتشان تجاهلها ... تلك التى كانت من أمه شوشانا، والتى بعد أن استطاعت الوصول له أخيراً عبر الهاتف أجهشت بالبكاء

وقالت الجميع ينعتون ابنى بأنه تاجر سلاح، وهذا شىء محرج. حزن أرنون لهذا بشدة. إذ لم ير نفسه يوماً كتاجر سلاح، والآن أمه نفسها تتهمه بذلك صراحة.

"أمي! لا أحد يتهم بوينغ ولا روكويل بتجارة السلاح، ولا أحد يقول إن شركة رايثيون تتاجر فى السلاح. تلك هى نوعية الشركات التى أعمل معها. وليس الأمر وكأننى أشعل الحروب فى دول العالم الثالث وأشحن إليها الأسلحة. إنما أفعل هذا لمساعدة بلدنا على البقاء".

لم يمثل هذا عزاء للأم والتى لم يكن لها أى معرفة بمثل تلك الأمور، إنما كانت تعرف فقط أن عليها مواجهة نميمة الجيران، وعلى ذلك الصعيد فقد وقع الضرر بالفعل.

لم يهتم ميلتشان بذكر ذلك الأمر لمن يسوسونه فى وكالة لاكام، وهى وكالة شديدة السرية ضمن شبكة إسرائيل الاستخباراتية المعقدة وكانت معروفة للولايات المتحدة فى ذلك الوقت. وسرعان ما ارتدى حلة التمرين وغادر المبنى، على أمل ألا يتعرف عليه أى من الصحفيين. فالبرغم من كل شىء لم يكن شخصية مشهورة، ولم تكن له إلا صور قليلة متداولة، إن كان ثمة مثل تلك الصور على الإطلاق.

ونجحت خدعته، وخرج من المبنى، وأقبل عليه عدد هائل من الصحفيين من الواضح أنهم كانوا لا يعرفونه، لذا أخبرهم بأن السيد ميلتشان قد ذهب إلى مكتبه فى يافا فى الجهة الأخرى من المدينة. وتفرق الصحفيون فى مطاردة وهمية محمومة بينما ركب ميلتشان سيارته فى هدوء وقادها مباشرة إلى القدس لحضور اجتماع خاص مع صديقه الحميم ومعلمه، رئيس الوزراء الإسرائيلى آنذاك شمعون بيريز، وقال له:

"شمعون، إنهم يتهموننى بأننى أفعل ذلك من أجل مكاسب شخصية. وأنت تعرف أننى لم أفعل ذلك لأجلى، بل فعلته لأجل الوطن. والآن أطلب مساعدتك".

وأنصت بيريز فى صمت ثم قال:

ماذا تتوقع أن يفعلوا يا أرنون؟ وماذا تريد منى أن أفعل؟

ورفع أرنون صوته بحدة لكن باحترام يائس:

لا أعرف يا شمعون! اتصل بريجان أو أىٍّ من كان لإصلاح ذلك. لِمَ أكون أنا القربان؟

وساد صمت طويل، ثم أردف بيريز:

أرنون! ماذا تريد منى أن أفعل؟ أخرج علناً وأبين كيف اجتمعت برئيس الولايات المتحدة لاستغلالك فى جلب أشياء لإسرائيل لا يمكن جلبها عبر القنوات المعتادة؟!

واستمر أرنون فى توسله.

"كل ما أطلبه هو فعل شىء للخروج من هذه الأزمة".

تعاطف معه بيريز وشعر كأنه أب له، لكنه لم يعده بشىء:

"دعنى أفكر بعناية كيف أتعاطى مع هذا الموقف، وفى الوقت الحالى، أريدك أن تذهب إلى المنزل وتحاول الاسترخاء".

وكان بيريز يعرف جيداً أنه لا سبيل للاسترخاء بالنسبة لأرنون ميلتشان، وكان يعرف أنه من أكثر العملاء المبدعين والمنتجين ممن جندتهم الاستخبارات الإسرائيلية. وعلى مر السنين قدم له مديرو وكالة لاكام بدءاً من بنيامين بلامبيرغ إلى خلفه رافى إيتان قائمة طويلة من الأشياء شديدة الحساسية والمطلوبة لبرامج الدفاع العسكرى الإسرائيلى السرية، ومواد أخرى مستحيلة المنال متعلقة بالدفاع العسكرى، وعبر شبكة معقدة من شركات الواجهة فى أنحاء العالم، حصل أرنون على تلك الأشياء وبزَّ فى هذا الجميع.

وكانت مهمة ميلتشان هى توفير تلك الأشياء المطلوبة باللجوء إلى جميع الوسائل الضرورية: كل شىء كان مباحاً! وفى المقابل تعامله الحكومة كأمير وسط شعبه. كان يعمل فى مهام لأجلنا، ولذا إن واجه أية متاعب، شعرت أنه من واجبنا أن نساعده، هكذا قال شمعون بيريز.

لم تكن القواعد التى كانت تطبق على الآخرين تطبق على ميلتشان، ربما لم تكن تلك رخصة بالقتل تحديداً، لكنها أقرب ما تكون من ذلك. إذ فتح باسمه حسابات مصرفية سرية لدولة إسرائيل، حسابات استخدمت لتمويل أكثر العمليات الاستخباراتية الإسرائيلية سرية وخطورة فى كل أنحاء العالم. ثم راهن بثروته الشخصية المتزايدة عبر هوليوود وبعض أشهر الأفلام التى أُنتجت وأكثرها ربحاً، مما جعله أيقونة للثقافة الشعبية السينمائية وأحد أغنى الرجال فى العالم فى تلك الأثناء.

وعندما وصل إلى شقته بعد لقائه مع بيريز، رأى أيضاً أن عصبة الصحفيين قد عانت من المطاردة الوهمية المحمومة وكانوا مستائين. وعلى عكس ما نصحه به كل من حوله، وفقاً لما قالته إيتى كانر مساعدته الشخصية، وافق ميلتشان على دعوتهم لبيته فى مؤتمر صحفى وجيز، على أمل تهدئتهم، ومضى يشرح أنه لا علاقة له بصفقة الكرايترون ولا يعرف تفاصيلها.

لم يُعرف قط ما إن كان بيريز قد أجرى تلك المكالمة الهاتفية مع ريجان، لكن كان من الواضح أن إجراء آخر قد أنجز... إجراء كان الجزء الذى تم الكشف عنه كافياً لتغيير حياة الكثيرين.

٢

العهد الجديد

عندما أخبرت عرفات بأننى إسرائيلى من الجيل الحادى عشر، أخبرنى بأننى فلسطينى أكثر منه

أرنون ميلتشان

فى السادس من ديسمبر عام ١٩٤٤، ولد طفل فى المستشفى الواقع بشارع بنيامين بمدينة روحوفوت اليهودية الصغيرة المؤثرة فى ظل ما كان يُعرف بالانتداب الإنجليزى بـ«فلسطين».

٢

كانت تلك أياماً قاسية متأرجحة فى التاريخ الإنسانى، حيث كانت «أوروبا» تشتعل والعديد من أعضاء العائلة الممتدة لذلك الطفل حديث الولادة قد قضوا نحبهم ومُحِى أثرهم. كانت تلك أحلك الساعات. ومع ذلك فقد أخبرنا الرئيس الإسرائيلى شمعون بيريز بأن أرنون قد وُلِد بينما كانت الشمس تبدأ فى الشروق، وعاش مذاك حياة مشرقة.

يمكن اقتفاء أسلافه من جانب أصلهم إلى المفسر التوراتى فى العصور الوسطى راشى، ومن الجانب الآخر حتى الملك داود تقريباً.

وقف والد دوف منفعلاً خارج الغرفة بينما أطلت الممرضة برأسها من الباب لتعلن إنه ولد، وسرعان ما انهال عليه أفراد العائلة والأصدقاء يحتضنونه ويقبلونه ويقولون مبروك!

عاش سكان مدينة روحوفوت كعائلة واحدة. وتمازجت حياتهم العامة والخاصة. وساد شعور بأن الجميع يجلسون فى نفس القارب،ويجدفون تجاه الشاطئ المجهول وفق ما كتبه جده حاييم إليعازر،والذى كان قد وصل لشواطئ الأرض "المهجورة" قادماً من بولندا فى أواخر ثمانينيات القرن التاسع عشر.

اختار أبواه دوف وشوشانا لابنهما الوحيد اسم أرنون،وهو اسم توراتى لنهر يمر خلال جبال مؤاب والتى تقع حالياً فى الأردن،ويجرى غرباً تجاه السواحل الشرقية للبحر الميت،وفى العهود القديمة كانت تلك مملكة المؤابيين، وكانوا قوماً عاشوا أغلب الوقت فى صراع مع جيرانهم من بنى إسرائيل فى الغرب.

ومن المفارقات أن اسم العائلة ميلتشان مشتق من الكلمة البولندية ميلشيك والتي تعني الصمت أو كتم السر، وهي فضيلة ستثبت جدواها في السنوات التالية.

وفي عام ١٩٤٤ كانت روحوفوت مركزاً إقليمياً نشطاً يسكنه بضعة آلاف من السكان، وأحد أكثر المستوطنات ازدهاراً اقتصادياً بفلسطين تحت حكم الإنجليز. كانت تقع بين التلال المنحدرة والأرض الوارفة بأشجار البرتقال وكرمات العنب، والتي كدّ في زراعتها جد أرنون، وكانت أحد تلك الأماكن التي لا يوصد أحد فيها بابه، وكان الأطفال يلعبون بحرية، وكان جميع الناس تقريباً يعرفون بعضهم.

نشأ أرنون في عائلة كبيرة ممتدة، يركض ما بين كرمات العنب وبساتين الليمون ويلعب بلا نهاية مع أصدقائه في الحقول المفتوحة بين البيوت حتى يحل الظلام، وباستثناء النزاع العربي الإسرائيلي الذي كان قائماً ، والذي لم يكن شأناً ذا أهمية كبيرة آنذاك، فقد كانت حياة أرنون رغيدة مثالية.

ذلك الإحساس كان النقيض التام لعالم البالغين من حوله، وما كان يجهله هذا الصبي، أن أحد أهم مصانع السلاح اليهودية كان مخفياً تحت قدميه، أسفل مخزن المدينة لتعبئة الحمضيات، وكانت عائلته تعمل في تصنيع المتفجرات متخفية وراء مشروع السماد الخاص بهم، وكل هذا ضمن النضال الأشمل من أجل استقلال اليهود.

وفي مساء ٢٩ من نوفمبر عام ١٩٤٧، تجمع كل سكان المدينة بمن فيهم أرنون ذو الثلاث سنوات محمولاً بين ذراعي والدته شوشانا - حول المقهى الرئيسي وأنصتوا بعناية للمذياع بينما كان يعلن نتائج التصويت على قرار

الأمم المتحدة رقم ١٨١ .

وافق المجتمع الدولى على إنشاء وطن يهودى قومى بفلسطين، التى كانت تحت الانتداب البريطانى، وانتشرت بسرعة موجة عارمة من الفرح العفوى والارتياح ما بين الجموع، والذين بكوا ورقصوا وغنوا طوال الليل.

وبعد ٦ أشهر أعلنت إسرائيل استقلالها. بلد صغير يتألف أغلبه من المزارعين والتجار، والناجين من الهلوكوست والذين أصبح عليهم الاستعداد للمهمة المروعة لمواجهة الهجوم العسكرى المرتقب على "أرض الميعاد".

ولم يكن هناك وقت للاحتفال بعد الليلة الأولى، وكما توعدوا، هاجمت كل الدول العربية المحيطة الأمة الوليدة، ضعيفة التسليح، قليلة العدد، قبل أن تجمع شتات نفسها.

قُصِفت روحوفوت ٩ مرات جوياً من قبل القوات الجوية المصرية، وقتل وجرح عشرات الأفراد فى المدن الصغيرة، وقصفت العديد من المنازل ومبنى دار البلدية الأصلى، وكان على مسافة قصيرة من منزل ميلتشان، ودُمِر كلياً فى انفجار مدو، وهرع أرنون ذو الأربعة أعوام آنذاك مثل جميع الأفراد للاحتماء بالخندق المؤقت المحفور فى الباحة الخلفية لمنزله.

ستكون للمحرقة والنزاع العربى الإسرائيلى المستعر والذى تفجر من حوله أثناء طفولته المبكرة، بطبيعة الحال بالغ الأثر على معظم حياته ومواقفه، ومجازياً... لم يكن له أن يغادر روحوفوت بأسلوب فعلى.

وعلى مر السنين، تطورت المدينة ومحيطها المتاخم من المجتمع المتوسطى الزراعى العتيق والذى ساهم جد أرنون فى تأسيسه فى مطلع القرن إلى

مركز تكنولوجي وعلمي ضخم، مركز مصيري لوجود إسرائيل نفسها. وتعد المنطقة كلها كعش دبابير عملاق، زاخرة بالأنشطة الأمنية بالغة السرية، وبمؤسسة بحثية مشهورة عالمياً، ومجهزة نووياً، وبقواعد صواريخ متوسطة المدى، وببرامج أسلحة كيماوية وبيولوجية شديدة التطور، وبأسطول نووى فى قاعدة تل نوف الجوية القريبة، ومصنع لإنتاج المياه الثقيلة، وأكثر من ذلك بكثير. ولعب أرنون دوراً فى تحقيق كل ذلك.

بعد عام من انتهاء الحرب في ١٩٥٠، نشب خلاف بين والد أرنون وأعمامه الثلاثة حول من يتولى إدارة الأجزاء المختلفة في شركة العائلة ميلتشان وأبنائه، وتم التوصل إلى اتفاق يتولى دوف والد ميلتشان بموجبه إدارة مشروع الأسمدة، ويتولى إخوته الآخرون بقية المشاريع، بما فيها شركة توزيع الوقود والتى سرعان ما أصبحت الجزء الأكثر ربحاً فى مشاريعهم. وشعر دوف بأنه مجبر على جمع أغراضه والرحيل عن روحوفوت مع زوجته وأبنائه، ليشق طريقه بشكل مستقل فى البلد الجديد.

غادر أرنون وأخته الصغيرة داليا ووالداه دوف وشوشانا، روحوفوت فى عام ١٩٥٣ للضواحى الشمالية المتنامية فى تل أبيب. وبعد أن أصبح مشروع الأسمدة منفصلاً عن شركة ميلتشان وأبنائه، أصبح دوف فى حاجة لاسم جديد لشركته. ومن منطلق الاحترام لجد أرنون ورأس العائلة حاييم إليعازر، أسمى دوف الشركة الجديدة الإخوة ميلتشان، بالرغم من أن إخوته لم يكن لهم أى نصيب فى الشركة على الإطلاق.

وكانت المكاتب الجديدة مقرها سوق الجملة الزراعى فى تل أبيب، على مقربة من وزارة الدفاع والموساد. كانت شركة داجون الشركة المجاورة

لشركة لتجارة الحبوب مملوكة لعائلة جيلرمان. وأصبح ابنهم دانى صديقاً مقرباً لأرنون، وبعد سنوات عديدة أصبح السفير الإسرائيلى إلى الأمم المتحدة.

وتصادف أن تزامنت طفولة أرنون مع السنوات الحاسمة الأولى فى تطور إسرائيل. ونشأ وسط النخبة الأشكينازية الأرستقراطية القديمة، بين أثرى الأثرياء وأكثرهم تعليماً فى إسرائيل، والذين هاجروا من أوروبا فى أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. وكان هذا مجتمعاً يؤمن بأن مفاتيح المملكة - من عالم المشاريع والسياسة والميزات - ملك لهم.

وفى تلك الحقبة بدأ والدا أرنون يلاحظان أن بعض سلوكيات ابنهما خارجة عن المألوف. وبالرغم من أنه كان متقد الذكاء فقد بدا مفرط النشاط وغير قادر على الجلوس حتى لفترات قصيرة.

وبالطبع فإن هذا النشاط المفرط يشمل أيضاً عوامل الشرود، والتململ، والتهور، وفى بعض الحالات كما فى حالة أرنون، الانجذاب للخطر "هناك جزء منى يريد أو يحتاج إلى فعل أشياء مخيفة. أحتاج لجرعة من الخطر كى أتنفسها!" هكذا قال.

ومن المعروف بعامة أن الناس المصابة بالنشاط المفرط عليهم أن يبحثوا عن وظائف تشمل ظروفاً سريعة التغير، وبيئات تتطلب التحفيز المستمر، ويتجنبوا الوظائف التى تنطوى على التكرار والتركيز المفرط على مهمة واحدة، سواء كانت عقلية أو بدنية، واختار أرنون ميلتشان الوظيفة المناسبة.

ومن أبرز الصفات التى كان يلاحظها أى شخص يراقب أرنون فى صباه

هى طاقته المتفجرة اللا محدودة، وكان هناك مكان واحد لتفريغ طاقته أثناء طفولته... وهو المجال الرياضى، وهو المجال الذى كاد أرنون أن يمتهنه. حيث مهدت قدراته البدنية الطبيعية، وطاقته المذهلة، وروحه التنافسية العالية له الطريق لقبوله فى أخوية النخبة لفريق مكابى تل أبيب للشباب، وهو فريق كرة القدم الأقوى فى البلد، وابتهج أرنون بشدة لذلك.

لكن كانت هناك مشكلة طفيفة. قبل بضع سنوات تم اختبار بصره وتم تشخيصه بأنه شديد الضعف. هذا الصبى لا يرى شيئاً هكذا قال طبيب العيون وهو يسلم والديه الروشتة الطبية لنظارة سميكة، التى ما زالت لازمة لأرنون حتى يومنا هذا. وبالرغم من أن التقدم فى فحص العيون قد جعل ذلك الأمر أكثر يسراً، لكن فى تلك الأيام كانت النظارات تصنع بالفعل من الزجاج، والأطفال الذين يضعون النظارات كانوا ينصحون بعدم الاشتراك فى أية رياضة التحام عدوانية، مثل كرة القدم، لتجنب إصابة العينين.

لم يفصح أرنون عن ضعف بصره، واستغرق مدربه وقتاً ليدرك أنه يعانى مشكلة، وعندما أدرك ذلك كان أرنون قد عزز مكانته كرأس حربة وكهداف متميز فى الفريق لثلاثة مواسم على التوالى.

واستمر فى لعب الكرة لسنوات. وكان يحدوه طموح متقد للعب فى فريق البالغين وكان واثقاً تماماً أنه سيقود فريقه مكابى تل أبيب إلى البطولة الوطنية كنجم للفريق. آمن أيضاً أنه سيقود الفريق الوطنى إلى النجاح العالمى، وسيدرب الفريق فى نهاية مسيرته الرياضية. وقد ذهل اللاعبون الصغار عندما عرفوا أن أرنون لا يزال يتمرن مع المنتخب الوطنى الإسرائيلى حتى يومنا هذا كلما أتيح له الوقت. ولا يزال من عشاق كرة القدم بعامة

والمنتخب الإسرائيلى خاصة.

وبخلاف كرة القدم، فقد أصبح لأرنون شغف آخر فى تلك الحقبة وهو السينما. وكشاب متقد بالحماسة ذى خيال جامح، كان مفتوناً بالأفلام العالمية والتى شقت طريقها ببطء إلى دور العرض الأولى فى تل أبيب، وتخيل نفسه يبتكر قصصه الخاصة ليراها العالم. إن كان ثمة مكان يستطيع أرنون الجلوس فيه ساكناً، فقد كان ذلك هو دار السينما. تلك الأفلام كانت أول اتصال حقيقى له بالعالم الخارجى الواسع ولم يحفز هذا خياله فحسب، بل كان بداية طموحه ليخرج إلى العالم ويغمر نفسه فيه، ليتذوق كل ما فيه.

وإذ دلت نتائجه فى الامتحانات على أنه طفل موهوب، تم إرساله إلى مدرسة داخلية فى هيرتفوردشاير فى جنوب إنجلترا. وكانت تلك الترتيبات هى سبيل نخبة أغنى أغنياء إسرائيل لضمان تنشئة عالمية لأطفالهم. وعنى هذا أيضاً أن أطفالهم سيتعلمون لغة إضافية هامة بالإضافة إلى الانفتاح على ما اعتبروه الثقافة الراقية.

فى حالة أرنون، أمل والداه أيضاً أن تساعده أجواء المدرسة الإعدادية الإنجليزية الصارمة على اكتساب الانضباط وضبط النفس، إذ لم يستطع اكتسابهما فى البيئة شديدة العشوائية فى إسرائيل.

كانت تلك الرحلة هى أول تعرض لأرنون للعالم الكبير خارج إسرائيل الصغيرة، وأول انفصال طويل عن أمن وأمان البيت الوحيد الذى عرفه فى حياته. وكان متردداً فى الانفصال عن عائلته وأصدقائه وبالأخص عن فريقه. لكنه كان تواقاً إلى مغامرته الجديدة.

لم تنجح مدرسة البنين الإنجليزية الداخلية فعلياً في ترويض هذا الصبى المفعم بالطاقة، ولا في إلزامه بمقعده والتركيز في دروسه. لكن التعليم لم يكن كل شيء. فبعد التحاقه بالمدرسة بفترة وجيزة، اكتشف مدرب فريق كرة القدم بالمدرسة أن لديه نجماً جديداً في فريقه، ومن حسن حظ أرنون أن لاعبى الكرة الموهوبين دائماً ما كانوا يُميَّزون في المعاملة.

وفي مدرسة هيرتفوردشاير تعرض أرنون لأول مرة لوقائع بسيطة لمعاداة السامية. عندما فاز صديقه المقرب والتلميذ اليهودى الوحيد الآخر في المدرسة يوسف ماليكسون ببطولة التنس ضخمة الجائزة، أذاع المدير جهاراً أن تلك أول مرة يفوز فيها طالب يهودى ببطولة التنس. وسواءٌ كان قد قالها بروح طيبة أم لا، فقد تبين للصبى أرنون فجأة أن الآخرين يميلون إلى النظر إليه بشكل مختلف بسبب أصوله.

ولا يزال أرنون ويوسف صديقين حميمين حتى يومنا هذا. وذات مساء تسلل الفتيان عبر كلاب الحراسة وعبر السياج المحكم الرهيب للهروب من المدرسة بقصد التردد على بار في مدينة قريبة على أمل مقابلة الفتيات. ولدى عودتهما ضُبط الفتيان متلبسين بجرمهما. ولم يكن عقابهما قابلاً للتخفيف وكان هو الطرد على الملأ. واصطف كل التلاميذ ليشهدوا المذنبين، ليكونا عبرة للآخرين، وهما يقادان في امتهان إلى خارج المدرسة.

لم يتقبل دوف ميلتشان ذلك ووضع ترتيباته لاصطحاب ابنه إلى خارج المدرسة بأرقى أسلوب ممكن. عندما وصل الشخص الذى كان له أن يصطحب أرنون وفقاً للموعد المحدد، ذهل الجميع عندما رأوا السيارة الرولز رويس الفارهة، ويقودها سائق إنجليزى مرتدياً حلة كلاسيكية. وإذ وصلت السيارة

لحظة توقفها لدى أسفل السلم فى باحة المدرسة، خرج السائق سريعاً من السيارة وخلع قبعته، وهرع ليفتح الباب للطالب المفصول، وسط ذهول من كل التلاميذ والعاملين بالمدرسة. وقبل أن يدخل السيارة، التفت أرنون وعلى وجهه ابتسامة عريضة، ولوح لزملائه التلاميذ ورفع أصبع الإبهام.

وبعد فصله من المدرسة الداخلية، تم وضع جدول أكاديمى خاص لذلك الفتى المشاكس، وبينما كان أقرانه من الفتية يستعدون لامتحانات الشهادة الثانوية، كان أرنون قد تم اختباره وقبوله فى جامعة لندن سيتى بينما كان يتلقى دراسة مستقلة فى كلية الاقتصاد بلندن.

وفى غضون عام ونصف وهو فى الثامنة عشرة من عمره، تلقى أمر التجنيد بالجيش وعاد إلى إسرائيل. وتم تجنيد أرنون فى وحدة لا يعرف بوجودها إلا القليلون وهى وحدة الانتداب الخارجى ١٠٣٠ . وكانت تلك الكتيبة المرفهة تتألف فى معظمها من أفراد متعددى اللغات ولهم خبرة فى السفر للخارج. وكانت مهمته هى الحصول على الوثائق المطلوبة ومرافقة كبار الضباط عند سفرهم إلى الخارج، بالإضافة إلى مهمته ككاتم أسرار ومترجم فورى ومعاون.

لم يناقش أرنون يوماً خدمته العسكرية فى العلن، والتى كانت فى الواقع أول تعامل له مع الاستخبارات الإسرائيلية. وأثناء تلك الحقبة، تطورت معرفته وكون صداقات وعلاقات استمرت معه طوال حياته.

امرأتان جذابتان هما ديبورا بن إسحاق والتى خدمت فى الوحدة كمديرتها المالية، وإيتى كانر وأصبحتا شخصيتين موثوقاً بهما فى حياته الشخصية والمهنية.

خدم فى الوحدة كضابط احتياط فى حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧، وفى حرب يوم الغفران عام ١٩٧٣ . لكن أهم خدمة وطنية له كانت أبعد من جيش الدفا ع الإسرائيلى، وأبعد من حدود بلده.

٣

للمـــرآة وجهـــان

كان لدى خيار أن أصبح لاعب كرة قدم محترفاً أو أن ألتحق بالجامعة. أخطأت والتحقت بالجامعة

أرنون ميلتشان لجريدة لوس أنجيليس اليهودية، فى ٢٤ سبتمبر ٢٠٠٨

عقب إنهائه خدمته العسكرية توجه أرنون إلى جنيف، ليستكمل دراساته، وهذه المرة، ركز على تخصص الكيمياء ليستعد لتولى شركة الأسمدة الخاصة بعائلته.

وفى سويسرا تخلص مجدداً من مصادر قلقه، إذ استأنف ممارسة كرة القدم وبدأ صيته ينتشر كفتى لعوب. كان فتى وسيماً واسع العلاقات ولا حدود لإمكانياته.

وبزيادة نضجه، بدت أعراض نشاطه المفرط أقل وضوحاً. وتعلم ببطء كيف يكيف سلوكه وكيف يتحكم فى حركات جسده الواضحة مثل تململه المفرط والذى كان ملازماً له من قبل. وبينما كان يدرس فى الخارج بدا أرنون أكثر شغفاً بالتنس وهو شغف استمر معه طيلة حياته. واكتشف أرنون أيضاً السينما الأوروبية فى جنيف.

وذات يوم وفى رسالة أليمة من الديار، تلقى أرنون صدمة غير متوقعة غيرت حياته إلى الأبد، مفادها تدهور صحة والده دوف بشدة بحيث أصبح مُقْعَداً. وفى

تلك اللحظة فى عام ١٩٦٥، انقضت فجأة حياته الخالية من الهموم فى جنته الأوروبية. وفى لمح البصر توقفت لأجل غير مسمى البيئة المرفهة المنظمة المنفتحة على العالم والتى كان قد اعتادها.

وما أن سمع بالخبر، سيطر عليه خوف لم يعرفه من قبل. وحزم أمتعته وحجز فى أول رحلة طيران ليعود لأرضه القاسية ولعالمه المضطرب، وبلده الذى كان آنذاك لا يعدو موقعاً منعزلاً شديد الصغر فى الشرق الأوسط.

وما أن أقلعت الطائرة من مطار جنيف الدولى، حدق ببصره خارج النافذة الصغيرة إلى المزارع السويسرية البديعة من تحته ولم يجد بداً من التفكير فى جده حاييم إليعازر ميلتشان، والذى كان مقرباً منه للغاية طيلة حياته حتى وفاته العام السابق. كانت تلك أول مرة يتعرف فيها على حقيقة الموت وعلى فقدان شخص

مقرب إليه. وتذكر كيف أنه لم يستطع التحكم فى بكائه، وبدأ يهيئ نفسه لما تخيل أنه ربما سيكون صدمة أقوى.

ومن المطار هرع أرنون إلى مستشفى إشيلوف فى تل أبيب. وانطلق يصعد ستة أدوار على الدرج إلى حيث يرقد والده ذو الـ٥٤ عاماً على أعتاب الموت. وما أن وصل إلى جوار والده دوف، بينت له شوشانا أن ما بدأ كعدوى فى البنكرياس تطور إلى عفن بكتيرى أصاب قلب دوف ورئتيه وكليتيه.

وفى الأيام التالية رفض أرنون أن يترك جوار أبيه، ومضى يتتبع كل حركة يأتى بها وكل أنفاسه، عازماً على مساعدته فى تخطى تلك الأزمة.

وخلال بضعة أسابيع فوجئ أطباء دوف المعالجون بتحسن حالته بشكل إعجازى وتم إرساله إلى مؤسسة لإعادة التأهيل فى كيبوتس جيفات برينير. وتنفست العائلة الصعداء. وبدأ أرنون يعد عدته للعودة إلى جنيف، وفجأة أخذت الأمور منحنى سيئاً.

عانى دوف من ألام حادة مبرحة فى معدته تم تشخيصها بأنها أزمة من حصوة بالمرارة. وفى حالته الهزيلة تلك، تم إدخاله على عجالة إلى غرفة العمليات، والتى لم يخرج منها حياً. وإلى يومنا هذا لا يزال أرنون يعتقد بأن موت والده جاء كنتيجة غير ضرورية للإهمال الطبى.

وصلت العائلة الممتدة إلى المقابر فى روحوفوت ونُحيت الخلافات القديمة القائمة بينما غمرت موجة عارمة من المشاعر كل الحاضرين. دفن دوف بالقرب من والديه، حاييم وإستر، وفجأة تكشف لأرنون ابنه الوحيد، أنه فقد نظام الدعم المالى والمعنوى الوحيد والذى عرفه يوماً، وتحامل على نفسه ليبدو متماسكاً إلا أن دموعه غلبته. وتحققت كل مخاوفه. وألقى على كاهله حمل ثقيل فجأة، إذ أدرك أن عائلته

ستعتمد عليه الآن فى القيادة والقوة والمعيشة. وخشى ألا يكون مستعداً لتلك المسئولية، إذ كان فى الحادية والعشرين من عمره فقط.

ومن خلال دموعه، لاحظ أرنون العديد من الناس الذين لا يعرفهم فى الجنازة، وهم يمرون بالقبر ويضعون عليه الحجارة كتعبير أخير عن الاحترام. وكان هناك رجل طويل ونحيف صارم الملامح يقف على مسافة خلف المعزين، ولم يقترب من أرنون إلا لدى انصراف الحضور بعد مراسم الدفن ليقدم له تعازيه الشخصية وهمس فى أذنه بصوت خافت:

كان أبوك رجلاً مهماً قدم العديد من الأشياء الهامة لإسرائيل. أعرف أنك ستسير على خطاه.

وبعد الجنازة بفترة وجيزة، ذهب أرنون إلى مكتب والده الصغير فى سوق الجملة الزراعى فى تل أبيب. كان المشهد قذراً وعلى النقيض تماماً من شوارع جنيف المعتنى بها جيداً. وبينما كان يشق طريقه وسط الدجاج المتصايح والفضلات الزراعية، فجأة تجدد تقديره للتضحيات التى قدمها والده لأجله. ودخل المكاتب المتواضعة الكائنة فى مقدمة مخزن صغير، حيث أحيط سريعاً بموظفى الشركة القلائل ليعبروا له عن تعاطفهم.

وبدأ أرنون يتولى مسئولية شركة العائلة ميلتشان برانرس ليمتد، واقتحم العالم الجديد بكثير من حماس الشباب، عازماً على الحفاظ على إرث العائلة، بالرغم من أنه سرعان ما سيكتشف أنه ليس لديه أدنى فكرة عن حقيقة إرث العائلة ذاك.

كان دوف قد عزل زوجته وابنته وابنه تماماً عن أى شىء يتعلق بشركة العائلة وبالشئون المالية، وكانوا كلهم يجهلون تعقيدات الشركة إلى حد كبير.

كانت توقعات أرنون لنفسه وللشركة التى تولى زمام أمورها تكاد تبلغ عنان السماء، لكنه أعيد قسراً إلى أرض الواقع عندما ألم بحالة الشركة المالية المزرية.

كان قد تم تخفيف قواعد الاستيراد ومن ثم تخلخلت هيمنة الشركة الاحتكارية بشدة فى مجال الأسمدة. وبدأ المزارعون يستوردون مباشرة من المصنعين بالخارج، متجاوزين فى ذلك كل التجار الإسرائيليين. وصدم أرنون عندما عرف أن إجمالى احتياطى الشركة يقدر بـ٦١ ألف ليرة إسرائيلية. وفى هذا يقول أرنون:

بدا الموقف محبطاً. وكانت شركة ميلتشان إخوان على حافة الإفلاس، ولم أفهم ذلك بشكل كلى، وفى الأيام التالية، بدأ المتربصون يحاصروننا.

بدأ منافسون عدة وبائعون بل وبعض الموظفين فى تحدى خبرة المالك الجديد وقوة تحمله فى العمل، وأجبر أرنون على صد الكثير من المكائد التى حيكت للدفع به خارج المنافسة.

وبينما كان يجلس محبطاً فى مكتب والده يفكر فى مصيبته، لاحظ عدة خزائن لم يتفحصها بعد فى أحد الأركان. وبعدما نظر إليها بفضول للحظات، سار إليها وفتح الأدراج، وأخرج منها أكبر قدر ممكن من الملفات وحملها إلى المكتب ليدرسها.

وخلال لحظات أصبح مكتبه مفروشاً بصور لصواريخ غزو الفضاء وبنشرات فاخرة. وفجأة تكشفت لأرنون حقيقة أن والده كان ضالعاً فى عمل أبعد بكثير من تجارة الأسمدة .

كان والد أرنون من نوعية الأشخاص الحذرين، وخاصة فى الأمور المتعلقة بالأمن القومى. احتفظ لنفسه بجميع المعلومات الضرورية، ولذا لم يكن لأحد آخر أن يعرفها.

كان دوف قد عزم على إطلاع ابنه على هذا الجانب من عمل شركة ميلتشان إخوان، لكن موته المفاجئ حال دون الانتقال المنظم لما افترض أنه سينفذه في عدد من السنين. بالنسبة لأرنون كان ذلك تحولاً صادماً في الأحداث. والآن فقط بدأ يفهم الكلمات التي قيلت همساً في أذنه في جنازة والده، وسبب حضور هذا الشخص الغامض إلى الجنازة.

أجرى عدة مكالمات هاتفية واستجوب طاقم السكرتارية الصغير، والذين كانوا بدورهم لا يعرفون شيئاً. وكما تبين له، فقد كانت شركة ميلتشان إخوان ضالعة في عمليات استيراد وتصدير معدات دفاع عسكرية لصالح الدولة، ووفقاً لأرنون فقد كان والده قد حصل على بعض العقود العسكرية المربحة الخاصة بإسرائيل.

لم يكن مفاجئاً بل وربما كان متفهماً، أن البعض استنتجوا أن أرنون كان شخصاً ضعيفاً سهل الانقياد. ثم تبين أنهم على خطأ بدرجة شديدة الإحراج. لم يكن لدى الأباطرة الكُثُر الذين حاولوا إقصاءه مراراً وتكراراً أية فكرة مع من يتعاملون، وبخسوه قدره بشكل فادح.

سرعان ما تحرك ميلتشان ليحكم قبضته على الشركة. وبطاقة الشباب تواصل مع كل الموردين، وشرح لهم الموقف، وأقنعهم بأسلوبه الساحر على زيادة الحدود الائتمانية.

وبدأ بعد ذلك في تكوين فريقه الخاص. ومن بين أول خطواته استغل إجازة الوضع لمديرة مكتبه، واستدعى قائدة وحدته العسكرية السابقة ديبورا بن إسحاق، وطلب منها أن تشغل تلك الوظيفة الشاغرة لثلاثة أشهر، والتي تحولت لرحلة عمل مثيرة امتدت لثلاثين سنة.

ربما كان أرنون ساذجاً ويفتقر للخبرة، لكن هذا نفعه بطريقة ما. إذ تمتع بثقة

لن يتمتع بها سوى شاب ليس لديه أدنى دراية بما لا يجوز له فعله.

وفى فترة وجيزة للغاية، حوّل الشركة الصغيرة والتى كانت معنية فى الأغلب بالسمسرة فى الأسمدة الزراعية المستوردة والكيماويات للمزارعين المحليين إلى مؤسسة ضخمة على الساحة الدولية، لها صفقات بعشرات الملايين من الدولارات، وأكثر من ذلك بكثير لاحقاً. ومد يده لكل شركات الأسمدة والكيماويات الكبرى فى أوروبا والولايات المتحدة، ساعياً ليكون ممثلهم الحصرى فى إسرائيل.

لكن اختراعاً واحداً، وبراءة اختراع واحدة، وصفقة واحدة، ومقامرة واحدة هى التى أمنت المركز المالى للشركة ودفعته إلى مستوى أعلى: تضمنت تلك منتجاً إسرائيلياً لا يزال يعتبر حتى يومنا هذا من أهم الاختراعات الحيوية من بلد صغير أصبح بمرور الوقت منبع الابتكارات فى العالم.

حدث هذا بالصدفة البحتة، وبينما بدأت محاولات أرنون اليائسة لإنقاذ الشركة تؤتى أكلها، بعد التعاقد مع الشركتين السويسريتين ساندوز وسيبا غابى، حدد موعداً لاجتماع فى ثانى أكبر مصنع للكيماويات فى العالم أى دوبونت فى ويلينغتون، ديلاوير. وأثناء تلك الرحلة الطويلة أخذ يفكر فى عدم فاعلية السماد الحالى الذى توزعه شركة ميلتشان إخوان.

وبالصدفة كان الشخص الغريب الجالس إلى جانبه فى الطائرة مديراً تنفيذياً متحمساً من كندا لشركة لقطع الأشجار وتحويلها إلى أخشاب. وأثناء حديثهما العابر انبهر ميلتشان إذ عرف أن لحاء الأشجار لا يستخدم فى أى منتج، وأنه كان ببساطة يتم التخلص منه بعد تصنيع الأخشاب.

وانتابه الفضول بشأن المكون الكيميائى للحاء الأشجار، وتساءل ما إن كانت هناك أى فوائد سمادية ممكنة لهذا المنتج الثانوى، والذى كان يعتبر آنذاك من المخلفات.

وما أن وصل، حتى شارك أفكاره مع مدراء دوبونت، والذين كانوا في حيرة من أمرهم بشأن رجل الأعمال الإسرائيلى الشاب المتحمس وأفكاره الغريبة بشأن اللحاء. وأحالوه إلى المدير الوحيد اليهودى فى الشركة آنذاك، ويُدعى إرفينغ سول شابيرو وكان محامى الشركة.

وانبهر شابيرو بميلتشان ودعاه لقضاء العطلة الأسبوعية فى منزله. ودعا أيضاً مجموعة من المجتمع المحلى اليهودى للقاء الشاب الإسرائيلى ولسماع حكاياته من البلد الذى يخوض صراعات كثيرة. وبحلول يوم الاثنين، كان ميلتشان قد كون صداقة حميمة مع شابيرو، وأبرم عقداً للتمثيل الحصرى لدوبونت فى إسرائيل، وتلقى تعهداً بتمويل أبحاث اللحاء هناك.

وبفضل عقد ميلتشان، أصبح شابيرو مدير شركة دوبونت ورئيس مجلس إدارتها من عام ١٩٧٣ إلى ١٩٨١ . وكانت تلك بداية صداقة طويلة وحميمة مع الشركة، والتى أصبحت جزءاً أصيلاً من مانهاتن بروجيكت وهى المجموعة البحثية التى طورت القنبلة النووية فى الحرب العالمية الثانية، والتى تعد مُورّداً قديماً للمواد النووية وتلك المتعلقة بالدفاع العسكرى.

بعد رحلته الناجحة ولدى عودته إلى إسرائيل، عين ميلتشان أربعة مهندسين زراعيين من كلية الزراعة التابعة للجامعة العبرية فى روحوفوت، والذين توصلوا لتركيبة سماد من لحاء الأشجار بهدف تجربتها. لكن لم توافق أية مزرعة فى إسرائيل على اختبار تلك التركيبة فى بساتينها.

وبعد بحث مطول وقاس، توصل ميلتشان لاتفاق مع كيبوتس كفار هاناسى فى الجليل الشمالية، حيث وافقت الإدارة على تجربة التركيبة على جزء من حقولها فى مقابل تمويل ميلتشان لعيادة أسنان فى الكيبوتس، ووافق ميلتشان بشرط تسمية

العيادة باسم أبيه الراحل، والتزم الكيبوتسيون بذلك.

وفشلت التجربة، لكن ميلتشان رفض الاستسلام. وفى النهاية أدرك وفريقه أن السماد سيكون بأضعاف فاعليته إن تم تطويره فى هيئة رذاذ، وتم رش أوراق الأشجار وأغصانها به مباشرة، وأُتقنت التركيبة بمرور الوقت وأثبتت أنها منتج هام وثورى لكل مزارعى الموالح حول العالم.

وبالإضافة لفاعليتها الزراعية، حققت المادة المغذية المعروفة باسم إن يو غرين أرباحاً هائلة لكل من شركة دوبونت وميلتشان على السواء واستمر هذا النجاح حتى يومنا هذا.

"الرجل الذى حقق ثروة بالتلاعب فى الطبيعة" هكذا وصفه زميل له لاحقاً، وأكد أنه منذ أن انخرط ميلتشان فى مجال الأسمدة، تغير طعم البرتقال إلى الأبد.

وبدأت الطلبات تنهال عليه، من إسرائيل فى البداية، ولاحقاً من كل أنحاء العالم. وولدت أسطورة ميلتشان الذى كون ثروة سريعاً، وسرعان ما انتشرت فى أرجاء البلد الصغير.

وبمرور الوقت تواصل مع المزيد من شركات الكيماويات والتكنولوجيا الحيوية، بما فيها أكبر الشركات عالمياً، مثل شركة باير الألمانية، وسنيجينتا السويسرية، وكيموترا وسيدكو.

وبشراكته مع تلك الشركات، لعب ميلتشان دوراً رئيسياً فى إجراء تجارب ميدانية إضافية أدت مباشرة إلى زيادات كبيرة فى الإنتاج الزراعى فى إسرائيل فى الستينيات والسبعينيات.

تلك التقنيات التى صدرتها لاحقاً شركة ميلتشان إخوان وشركات أخرى،

أفادت البلدان النامية حول العالم.

وبقدر أهمية جهوده الزراعية، فمن الواضح أيضاً أنه، وبمرور الوقت، أصبحت تلك المساعى أقرب للغطاء الملائم لمصادر نجاحه الساحق، أى العقود المتعلقة بالدفاع العسكرى ومثل ما حققه فى القطاع الزراعى، فقد سوّق لدولة إسرائيل بصفتها حقل التجارب الرئيسى لأحدث أنظمة الأسلحة بين أكبر شركات الديناميكا الهوائية فى العالم.

واشترك ميلتشان فى جميع المجلات المتعلقة بالدفاع العسكرى، وبخاصة الإصدارات المتعلقة بالطيران، وسرعان ما ألم بأسماء جميع الشركات الهامة المصنعة لمعدات الدفاع ودرس أحدث التطورات فى مجال الطيران وفى الأنظمة الإلكترونية العسكرية. وبعث برسائل لا تحصى يعرف فيها بنفسه لشركات تصنيع معدات الدفاع العسكرى حول العالم ويعرض عليها فيها تمثيلها فى إسرائيل. وكان من المفاجئ أن أبدت العديد من الشركات اهتمامها وطلبت تحديد مواعيد معه. وسرعان ما أخذ ميلتشان يجوب أوروبا ويوقع عقود تمثيل الشركات.

كانت كل الصفقات المتعلقة بالدفاع العسكرى فى ميلتشان إخوان تدار من قبل مالك الشركة نفسه، أولاً الأب، ومن بعده ابنه. وبدأت إسرائيل فى شراء الأسلحة من الولايات المتحدة عام ١٩٦٢ بموافقة إدارة كينيدى، لكنها لم تتلق أية مساعدة عسكرية حتى عام ١٩٧١ عندما خصص الكونجرس لأول مرة مبلغاً محدداً معونة لدولة إسرائيل.

وكنتيجة لذلك، اضطرات إسرائيل للاستدانة لتمويل تنميتها الاقتصادية وشراء الأسلحة. لكن منذ عام ١٩٧٤ عقب حرب أكتوبر، تلقت إسرائيل ما يقرب من ١٠٠ مليار دولار من المعونة العسكرية، وتتلقى حتى يومنا هذا ما يزيد عن مليارى دولار

كمعونة عسكرية سنوياً. وبموجب القانون، يجب أن ينفق كل مبلغ المعونة العسكرية الأمريكية لإسرائيل فى الولايات المتحدة فى شراء أنظمة الأسلحة الأمريكية.

كان لجميع الشركات المرخص لها استيراد وتصدير أنظمة الدفاع العسكرى من وإلى إسرائيل، بالإضافة إلى قدرتها على توقيع اتفاقات تمثيل حصرية وعالية الربحية مع كبار شركات مقاولات الدفاع العسكرى الأمريكية، أن تحقق نجاحاً كبيراً.

٤

ست درجات من الانفصال

أرنون ميلتشان رجل يعرف كيف يوجد الفرص

الرئيس الإسرائيلي شمعون بيريز

عندما كان أرنون في الحادية والعشرين من عمره في صيف عام ١٩٦٥، قام بأول مغامرة صريحة له في عالم السياسة الإسرائيلي الغريب، إذ أصبح عضواً في أحد أغرب الأحزاب السياسية في تاريخ إسرائيل وكاد يكون مرشحاً له.

وتبدأ القصة عندما بدأ أرنون الفتي حديث الثراء، علاقة صداقة حميمة مع ملك الملاهى الليلية فى تل أبيب رافى شاولى، وكان يتردد بانتظام على ملهاه ومطعمه، والذى كان آنذاك أشهر وأفخم وجهة لوجهاء الطبقة الراقية فى إسرائيل، وبكل المقاييس، كان أرنون فتى جامحاً نهماً للهو والحفلات. كان من نوعية الأشخاص الذين يعيشون على حافة الهاوية. وكأنه يحرق شمعته من كلا طرفيها. كان ذلك ما لاحظته إرنى كانر مساعدته الشخصية طيلة ٣٠ عاماً.

سمى الملهى مانديز على اسم ماندى رايس ديفيس، وهى زوجة رافى شاولى الشقراء الجميلة إنجليزية الأصل، والتى تصادف أن كانت طرفاً داعماً فى قضية بروفومو، وكانت فضيحة جنسية سياسية ضخمة فى عام ١٩٦٣ فى المملكة المتحدة، وسميت باسم جون بروفومو، والذى كان وزير خارجية لشئون

الحرب آنذاك فى حكومة المحافظين البريطانية.

اشتركت ماندى رايس ديفيس فى أنشطة صراعات جنسية شهيرة لعدد من أكثر السياسيين نفوذاً فى بريطانيا آنذاك، وانتهت العلاقة برمتها فى مشهد عام فى المحكمة، ولا يزال الناس يتذكرون رايس ديفيس جيداً وهى تدحض شهادات الشخصيات السياسية القوية والذين كانوا ينكرون تورطهم، بجملتها الشهيرة "حسناً، من المتوقع أن يقول ذلك، أليس كذلك؟".

وبقى هذا التعبير، وأصبح مزحة قومية ومقولة ثقافية فى بريطانيا، واستغلت رايس ديفيس شهرتها الجديدة سيئة السمعة، عندما قارنت نفسها بليدى هاملتون عشيقة الأدميرال نيلسون. وبعد ذلك اعتنقت اليهودية، وتزوجت بصديق أرنون الجديد فى الملهى، وانتقلت للعيش فى إسرائيل، وأصبحت

أشهر مضيفة فى الملهى. وفى عام ١٩٨٩ تم إنتاج فيلم عن فضيحة علاقة بروفومو واسمه "الفضيحة"،ولعبت الممثلة برديجيت فوندا دور ماندى رايس ديفيس ذات الأعوام التسعة عشر.

تعرف أرنون على ماندى الحقيقية وكشاب غُر فتن بها. وكان يقضى ساعات طوالاً فى الملهى وكان يعقد فيه معظم لقاءاته، للعمل واجتماعياته على حد سواء. وهناك تعرف أيضاً لأول مرة على شخص لم يكن يعرفه إلا من بعيد،وهو أحد أكثر السياسيين الموهوبين فى إسرائيل، آنذاك والآن، وهو شمعون بيريز.

وكان بيريز البالغ من العمر آنذاك اثنين وأربعين عاماً يشغل منصب نائب وزير الدفاع بعدما شغل لأعوام منصب المدير العام للوزارة، وبالطبع كانت تلك المواقع بالغة التأثير على مصالح العمل لشركة ميلتشان إخوان.

أخبر بيريز أرنون بنيته فى أن يكون العضو المؤسس لحزب سياسى جديد باسم رافى، للعمال الإسرائيليين،ولا علاقة له بأى شكل كان برافى شاؤلى، وذلك قبل انتخابات الدورة السادسة لمجلس النواب الإسرائيلى أو الكنيست. وتقرر أن يقود الحزب الجديد عدد من الأعضاء المنشقين من الماباى،وهو أكبر فصيل سياسى فى إسرائيل، والذى حكمها منذ قيامها.

لكن المفارقة تكمن فى أن قائد الفصيل المتمرد كان ديفيد بن جوريون نفسه.

ومنذ اليوم الذى أعلن فيه قيام دولة إسرائيل، كان بن جوريون الشخصية السياسية المهيمنة فى البلد، كأول رئيس وزراء ووزير دفاع، وحكم البلد بقبضة من حديد.

وضعت خطة منافسة الحزب الوحيد الحاكم منذ قيام الدولة فى مطعم كاسباه، وأثارت الخطة اهتمام ميلتشان بقوة. ها هو الرجل العجوز المبجل ديفيد بن جوريون يمرر الشعلة إلى الجيل الشاب،" شمعون بيريز وجماعته. واعتقد ميلتشان أن بيريز سيعود لوزارة الدفاع كممثل للحزب الجديد وقرر تركيز اهتمامه على الانتخابات المقبلة، عاطفياً وفكرياً ومالياً.

ومع التغاضى عن أهوائه الشخصية، فسرعان ما علم أن حزب رافى كان زاخراً بأبرز الموهوبين سياسياً فى إسرائيل، مثل أبا إيبان دبلوماسى إسرائيل الأبرز، وتزفى تزور رئيس أركان الجيش الأسبق، بالإضافة إلى إسحاق نافون ذى الـ٤٤ عاماً، وحاييم هيرزوغ ذى الـ٤٧ عاماً، وكلاهما أصبح رئيساً للدولة لاحقاً.

فى عيون العديد من الشباب الإسرائيليين، مثّل حزب رافى صرخة معركة متمردة فى وجه المؤسسة العجوز الفظة، أى حزب الماپاى والذى شعروا أن زمنه قد ولى.

اجتاحت أرنون حماسة الشباب. وأسره بيريز وجماعته، حيث رأى فيهم الجيل الجديد من المحترفين النشطين التنافسيين، ذوى القدرة الفائقة على قيادة الدولة فى اتجاهات جديدة شائقة.

وليس ثمة شك فى أن حزب رافى كان هو الحزب العصرى، لكن مسألة ترجمة جاذبيته العصرية إلى أصوات انتخابية لم تكن قد حُسمت بعد. ويزعم ميلتشان أنه كان المساهم الثانى فى تكوين حزب رافى، ووصف اجتماعاً له مع بن جوريون وبيريز قائلاً:

"فى تلك الأيام لم يكونوا يقبلون المساهمات المالية، بل كانوا يأخذون

قرضاً ويعطونك إيصال أمانة بقيمة الاعتمادات المالية التى سترد لاحقاً، وبالطبع لم تكن الاعتمادات ترد أبداً".

وأسهم ميلتشان بملبغ ثلاثة آلاف دولار، لكن إسهاماته لم تقتصر بالطبع على المال، فقد كان الحزب فى حاجة لنجم جديد ولشخص قادر على صنع علاقات.

وكانت أول مهمة له هى تأمين دعم عضوية رئيس أركان جيش الدفاع الإسرائيلى السابق وبطل الحرب الأسطورى ذى الـ٥٠ عاماً موشيه ديان، إذ شعر بيريز بأن فرص الاكتساح فى الانتخابات ستكون أقوى بكثير بوجود ديان فى مجلس إدارة الحزب.

وكان ميلتشان يعرف ديان من الصفقات التى تبرم بين شركة ميلتشان إخوان ووزارة الزراعة، والتى كانت تتكرر على مستوى شبه يومى، بما يشبه علاقته بوزارة الدفاع. إذ كان مكتب ديان يصدر التراخيص والتصاريح لكل أعمال ميلتشان المتعلقة بالزراعة. خرج ديان من الخدمة مع بن جوريون، وتُرِك بلا عمل بعدما استقال من عمله كوزير للزراعة، ذلك المنصب الذى شغله لخمسة أعوام متوالية.

لكن عقب تأسيس حزب رافى، لم يكن ديان فى عجلة للانضمام لعصبة بيريز. إذ أدبر واستكبر ولعب دور العصى على الانصياع. وفى البداية صرح بأنه ينتوى البقاء فى حزب ماپاى ليعارض الزمرة المنشقة. لكن لاحقاً، وكنتيجة لمحادثاته مع ميلتشان، اقتنع ديان بأنه إن بقى فى حزب ماپاى، سيهمش ولن يتمكن من الدفع بأجندته الشخصية والسياسية.

وقال ديان لميلتشان "أعدَّ الاجتماع"، وكان ذلك بين أول الاستعراضات

لموهبة ميلتشان المتقدة في عقد الصفقات.

وفي يوم صيفي حار في أغسطس عام ١٩٦٥ وقبل أيام من الانتخابات، أعد ميلتشان للاجتماع المصيرى فى وقت متأخر بعد الظهيرة بين موشيه ديان وشمعون بيريز. وبسبب حرارة الصيف، جلس ثلاثتهم فى فناء حديقة منزل ديان فى زحالا وهى ضاحية فى تل أبيب، ليحاولوا التمتع ولو بنسمة باردة آتية من البحر الأبيض. وكانوا محاطين بمجموعة ديان الفنية الأسطورية من التحف الأثرية، والتي وجدها! في عدة مواقع تاريخية عبر الأرض المقدسة. كان لابد لأى شخص أخر أن يلقى به فى السجن لخرق قانون حفظ الأثريات الإسرائيلى الصارم، لكن ديان لم يكن يقلق نفسه بشأن أشياء تافهة كتلك.

وقال لنا ميلتشان، "تمكنت من مد أواصر الصلة بينهما نتيجة شغفى بالسلام". وفى غضون تلك الساعة أعلن ديان أنه سينضم لحزب رافي. وانبهر كل من ديان وبيريز للغاية بمهارات رجل الأعمال الجديد فى الوساطة، وبعدما تؤصل السياسيان لاتفاقهما، أشار ديان إلى ميلتشان وقال لبيريز "أتعرف يا شمعون؟ أريد أرنون وزيراً للمالية".

وأجاب بيريز بابتسامة ماكرة "حسناً".

ما لم يكن يعرفه السياسيون الثلاثة المشاركون، أن الاجتماع قد تعرض لاختراق أمنى. إذ كان هناك شخص معين يختبئ وراء السياج واستمع للحديث كله، وكان محرراً تحقيقياً لمجلة هاأولام هازيح، أشهر مجلة للفضائح فى إسرائيل. وخلال أيام نشرت المجلة عنواناً بالبنط العريض: "تعرفوا على أصغر وزير مالية فى تاريخ إسرائيل". وعقب صدور المجلة، دُعِى ميلتشان

للمشاركة فى لقاء على التليفزيون الإسرائيلى.

"كيف يمكن لشاب مثلك أن يشعر بأنه مؤهل ليكون وزير مالية دولة إسرائيل؟" سأله المحاور بلهجة وقحة فى بداية اللقاء.

وفى نفس اللحظة التى أدرك فيها أرنون ما ورط نفسه فيه، اتخذ قراره وقال للمذيع ألق نظرة جيدة علىّ! هل أبدو لك كرجل يمكن أن يتواجد فى الثامنة صباحاً على مكتب فى القدس ويرتدى حلة وربطة عنق للأعوام الأربعة المقبلة؟!

وأغلق الباب فى وجه السياسة كخيار اختاره لنفسه فى ذات تلك اللحظة على التليفزيون الوطنى، ليراها الجميع. "لقد تنحيت حتى قبل أن أرشح، إذ أدركت أن هذا المنصب غير ملائم لى"، كان هذا ما بينه لاحقاً. ما لم يفهمه ميلتشان أن ديان وبيريز كانا يعنيان شيئاً آخر تماماً بوزير المالية، أى شخص غير منتخب، وسرى، ويعمل خارج البلاد، وداخل الخدمة لأجل غير مسمى.

وكان ميلتشان كأى مؤيد آخر لحزب رافى مقتنعاً تماماً بأن الحزب سيحصد مقاعد كثيرة فى ليلة الانتخابات. لكن الإحباط كان من نصيبه حيث حصد حزب رافى فى انتخابات الدورة السادسة للكنيست، حوالى ٨٪ من الأصوات، أى بما يعادل عشرة مقاعد فى البرلمان من أصل ١٢٠ مقعداً، وذهب مباشرة إلى صفوف المعارضة.

كان فشل حزب رافى ذريعاً بدرجة أنه لم يفشل فقط فى الاقتراب من عدد المقاعد البرلمانية التى أمل فيها مؤيدوه، بل وزادت قوة غريمه حزب الماباى الذى تمكن من تشكيل الحكومة من دون الحاجة إلى دعوة حزب رافى

للانضمام للائتلاف الحاكم، حتى كشريك بالأقلية.

كانت هزيمة مهينة أثبتت أن ما يبدو بدهياً ومرغوباً فى أعين النخبة لا يترجم دائماً كأصوات شعبية.

كان أول الأشياء التى فعلها حزب رافى كحزب معارض هو مهاجمة رئيس الوزراء ليفى إشكول لإخفاقاته الكبيرة المتعلقة بالدفاع العسكرى لكن من دون تحديدها.

ويفهم حالياً أن الفشل الذى كانوا يشيرون له هو قرار رئيس الوزراء إشكول بإبطاء وتيرة تطوير المفاعل النووى ديمونة مقابل المعونة العسكرية الأمريكية.

وعقب ذلك بفترة وجيزة، وفى عشية حرب الأيام الستة، دخل حزب رافى فى الائتلاف الحكومى كجزء من حكومة الوحدة الوطنية والتى شُكِّلت على عجل كرد فعل على الأزمة المتنامية، والتى أدت إلى الحرب فى صباح ٥ يونيو ١٩٦٧ . وعين موشيه ديان كوزير للدفاع بعد أن أطاح بالسياسة جانباً وقاد البلاد فى انتصارها غير المسبوق، بما جعله موضع مزيد من الحفاوة الدولية.

وعقب ذلك ببضعة أشهر، عاد كل أعضاء حزب رافى إلى حزب ماباى وهم يجرون أذيال الخيبة، ما عدا ديفيد بن جوريون والذى ظل يهيم بوادى السياسة حتى موته فى ١٩٧٣ .

معاً، شكل حزبا رافى وماباى ما يعرف حالياً باسم حزب العمال. وبهذا انتهت حقبة حزب رافى. لكن بالرغم من المصير المشئوم للحزب الوليد، فقد أفادت تلك التجربة برمتها ميلتشان إلى أقصى حد، والذى اكتسب شهرة،

وسمعة مشبوهة، وعلاقات هامة امتدت لسنوات مقبلة، وبالفعل غيرت حياته إلى الأبد. وتحققت نبوءة ديان لميلتشان كوزير بديل للمالية فى النهاية بشكل غير متوقع أو تقليدى.

شغل العديد من أعضاء رافى الفاعلين أعلى المناصب فى الحكومة، وأصبح أرنون الاسم الأقرب إليهم كلهم، وكون مع بعضهم صداقات حقيقية وأصبح محل ثقة عميقة لدى البعض الآخر.

٥

لا تنطق بكلمة واحدة

قررنا إنشاء مفاعل ديمونة ضمن مسعانا لتحقيق السلام!

الرئيس الإسرائيلي شمعون بيريز في ٨ فبراير ٢٠١٠

فتحت صداقة ميلتشان بكل من شمعون بيريز وموشيه ديان أمامه عوالم جديدة، إذ كشف بيريز لأرنون سر إسرائيل الخطير، والذي لم يكن يعرفه سوى بضع مئات في البلد كله، إذ كان هذا يعد سراً آنذاك! وتفاخر بيريز قائلاً: أنا من جندته.

فى تلك الأيام كانت إسرائيل نسبياً أمة فقيرة نامية، ترزح تحت وطأة المقاطعة العربية الاقتصادية الموسعة، وكانت تمثل مزيجاً غريباً من التكنولوچيا المتقدمة والتكنولوجيا البسيطة، شديدة التدين متطرفة العلمانية، فسيفساء من أناس من كل أنحاء العالم مختلفى الألسن والثقافات والأطعمة على المائدة القومية. وكانوا كلهم تقريباً من المهاجرين وأغلبهم كان لديه عائلات خارج البلد، وكانت مساحة القدرات الاستخباراتية المحتملة ولا تزال حتى يومنا هذا... هائلة.

وعودة إلى عام ١٩٥٧ (عام حفل بلوغ أرنون)، إذ سافر مرشده المستقبلى وصديقه المقرب شمعون بيريز إلى باريس ليضع اللمسات الأخيرة على اتفاقية بالغة السرية. حيث كان بيريز قد تفاوض مع الفرنسيين لبناء المفاعل النووى المتكامل الأركان مارغول جى ٢ فى إسرائيل، بهدف -وفقاً لإسرائيل- تصنيع

أقوى سلاح ردع، لتجنيب البلاد أى محرقة أخرى بأى ثمن كان. وبالطبع وصفت الصفقة برمتها بأنها برنامج طاقة سلمى، تحسباً لاكتشافها قبل الأوان.

وكانت تلك الصفقة النووية جزءاً من تفاهم سرى بين البلدين والذى أدى لقبول إسرائيل الاشتراك مع فرنسا وبريطانيا فى عدوان عام ١٩٥٦ على سيناء لإقصاء مصر عن السيطرة على قناة السويس، وهى من أهم الشرايين المائية للسفن فى العالم. ووافقت إسرائيل أيضاً على دعم الأبحاث العلمية المتعلقة ببرنامج فرنسا النووى المتنامى.

وتم تمويل المفاعل النووى بشكل غير رسمى، فى الأغلب من قبل ٢٥ شخصاً ثرياً من كل أنحاء العالم، وكان ثمانية عشر شخصاً منهم أمريكيين. وكانوا جميعهم لا يعرفون بصورة عامة تفاصيل قنوات إنفاق أموالهم لكنهم

كانوا يعرفون فقط أنها ستنفق على احتياجات أمنية حيوية.

أمنت تلك الاتفاقية مواقفهم القانونية جميعهم، وساهموا بحوالى ٤٠ مليون دولار، ويعادل المبلغ حالياً ربع مليار دولار، وتم إتمام بناء المفاعل واكتملت مواصفاته عام ١٩٦٢، وبدأ العمل به عام ١٩٦٣، وأنتج سلاحه النووى الأول بحلول عام ١٩٦٧ . ومذاك ويُعتقَد بأن إسرائيل تمتلك سادس - ويحتمل خامس- أكبر ترسانة أسلحة نووية فى العالم، -حوالى مائتى رأس نووى- بعد الولايات المتحدة وروسيا والصين وفرنسا وبريطانيا.

خطط برنامج إسرائيل النووى، والمنظمة الاستخباراتية التى أُنشئت لدعمه، أناس من جيل شهد رعباً مباشراً لا يمكن تخيله فى المحرقة، وكلهم فقدوا أفراداً من عائلاتهم الكبيرة. وفى الواقع فقد نحتت عبارة "مستحيل مرة أخرى" على أول قنبلة ذرية إسرائيلية.

اعتُبِر المشروع بالغ الأهمية للأمن مستقبلاً ولبقاء الأمة الصغيرة لدرجة أنه لم يُقتَّر أحد فى التكاليف ولم يكن هناك حدود لا يمكن تخطيها فى سبيل الوصول إلى الهدف النهائى: وهو سلاح ردع نووى متكامل الأركان مزود بكل أنظمة التوصيل المحتملة.

وبخلاف ديفيد بن جوريون الذى اتخذ القرار النهائى بالبدء فى المشروع، كان هناك ثلاثة أشخاص مسئولين أولاً وبشكل سرى عن تحويل القنبلة الإسرائيلية لأمر واقع.

الأول كان شمعون بيريز الذى تولى إدارة الجانب الدبلوماسى الدقيق للأمور مع الفرنسيين وكان المسئول الأول، وقال عن تحفظه: لم يُعرَف سوى القليل جداً عن برنامجنا النووى، وأردت أن يعرف أقل من ذلك حتى عن دورى.

وشعرت بأننى إذا كُشف أمرى، فستدمرنى الصحافة أنا والمشروع سواء، فبعد كل شىء كنت شخصاً مثيراً للجدل سياسياً وحالماً متهوراً، وبدا المشروع ذاته رائعاً للغاية. ولهذا السبب لم يدرج اسمى بأية لجنة رسمية أسست فى مجال الطاقة النووية، لكن هذا لم يمنعنى من إدارة المشروع برمته بفاعلية نيابة عن بن جوريون، ولم يحدّ أحد من سلطتى بأى شكل.

لكن فى مقابلته الشخصية مع مؤلفى الكتاب، ولأول مرة أسهب، بيريز فى الحديث عن دافعه الأساسى فى قيادة برنامج إسرائيل النووى. إذ كان محل تركيزه هو السلام بواسطة القوة:

"لتجنب استخدام القوة ضروب، ارتأيت أننا يجب أن نكون أقوياء، فكرت فى مفاعل ديمونة -وهو الخيار النووى- بحثاً عن السلام، ولعب أرنون دوراً هاماً فى إنجاز تلك المهمة".

والشخص الثانى الذى ساهم فى تطوير البرنامج النووى الإسرائيلى كان الدكتور إرنست ديفيد بريغمان، والذى سُمى عن استحقاق أبو القنبلة الإسرائيلية. وكان عالم كيمياء ألمانياً يهودياً نابهاً رحل عن ألمانيا بصعود هتلر فى عام ١٩٣٣ وانضم فى النهاية إلى الدكتور حاييم وايزمان ولمعهده العلمى فى «روحوفوت». كان بريغمان كبير العلماء العاملين بالبرنامج.

الشخص الثالث كان رجلاً خفياً، وكان مسئولاً عن الاستخبارات المضادة والأمن فى وزارة الدفاع حتى أُختير شخصياً فى عام ١٩٥٧ من قبل بيريز نفسه لتولى كل الأمور المتعلقة بالأمن لضمان نجاح البرنامج. كان اسمه بنيامين بلومبيرغ.

لم يكن بلومبيرغ مشهوراً فى إسرائيل أو فى أى مكان آخر، لكنه أصبح

أسطورياً في دائرة الاستخبارات الإسرائيلية الصغيرة ككبير رهبان السرية. وكان أقرب مثيل له في مشروع مانهاتن هو الفريق ليزلي غروف.

وما إن باشر عمله لإتمام النسخة الإسرائيلية السرية الضخمة من مشروع مانهاتن، أدرك بيريز -الحائز حالياً على جائزة نوبل للسلام- أن عليه خداع الناس بشكل كبير لتجنب الاكتشاف المبكر والملاحقة الدولية المحتملة لإنهاء المشروع قبل أن تقوم له قائمة. وأدرك أيضاً أن البرنامج سيحتاج إلى سبيل للوصول للمواد والمعدات والتي لم يكن من السهل الحصول عليها في السوق المفتوحة، وأنه ليس هناك إلا دول قليلة مستعدة لبيع تلك المواد لإسرائيل.

ولتجاوز تلك المشاكل المعقدة والمثبطة للهمم، قرر بيريز إنشاء منظمة جديدة بالغة السرية، وحدة بالغة السرية لدرجة أن أهم وكالة استخبارات في إسرائيل -الموساد- لم تعرف بوجودها لسنوات تالية، بالرغم من أنها كانت تدار من مقرها ذاته. وعندما عرفوا بها، فعلوا كل ما في مقدورهم لوقف العملية المارقة، وفي النهاية تقبلها الموساد وعمل معها عن كثب.

ولفترة من الوقت عملت الوحدة السرية بدون اسم من مكاتب صغيرة داخل مقر وزارة الدفاع في تل أبيب. ولاحقاً أُعطيت الاسم الغامض مكتب المهام الخاصة، ونقلت من وزارة الدفاع إلى منطقة تجارية غير معروفة، في الدور الثالث في مبنى إداري غير مميز في شارع كارلباخ، على ناصية شارع هاتشاشمونيم في تل أبيب.

في مطلع السبعينيات تبنت الوحدة اسم مكتب الاتصال العلمي واختصارها العبري لاكام، وكانت كنيتها الموساد ٢ . ومهمتها المحدّدة الأساسية هي تأمين المواد والمعدات التي ستجعل إنتاج القنابل النووية ممكناً.

أوكل إليها تحقيق ذلك بأية وسيلة ممكنة، بواسطة عمليات الشراء الشرعية من السوق المفتوحة إن أمكن، وبالسرقة والخداع إن لزم الأمر، وبالقوة والقتل كملاذ أخير.

وكانت مهمة بلومبيرغ هى التأكد من تذليل أية عقبات قد تواجه العلماء والعاملين فى المفاعل بالقرب من مدينة ديمونة الصحراوية حتى يتمكنوا من تحقيق هدفهم النهائى. وفى الأعوام اللاحقة كان للاكام أن تتولى مهاماً أكبر بكثير من مهامها فى البحث عن أية تقنية متعلقة بأنظمة توصيل الأسلحة النووية، مثل توجيه الصواريخ، وتكنولوجيا تصغير القنبلة الذرية، والمفاتيح النووية، نابذات تخصيب اليورانيوم، وقود الصواريخ الصلب، وأجهزة تشويش الصوت، ومعدات الرؤية الليلية، والعديد من المواد والمعدات والتصميمات الحساسة العلمية والتكنولوجية.

تم تشكيل عدد من المفوضيات بالغة السرية، تضم ممثلين مختارين ومحل ثقة من المجمع الصناعى العسكرى الإسرائيلى وللمعاهد العلمية.

كان هؤلاء المفوضون يعقدون اجتماعاً كل أسبوع تقدّم فيه قوائم المواد بالغة الحساسية والتى يصعب الحصول عليها والمطلوبة للعديد من المشاريع إلى منسق التجهيزات، والذى كان عميلاً سرياً فى لاكام.

كان المفوضون عادة ما يشرحون المواد المدرجة فى القائمة، والغرض منها، ودرجة أهميتها، وأماكن وجودها المحتملة، وأية معلومة أخرى وثيقة الصلة يمكن أن تساعد فى جلبها. وبالطبع لم يكن لدى ممثلى تلك المشروعات أدنى فكرة عما يفعله العميل السرى للاكام فعلياً، كل ما كانوا يعرفونه أنه هو من يلجأون إليه لطلب الأغراض التى يصعب الحصول عليها. أما عن تفاصيل

الطريقة التى تجلب بها تلك الأغراض فلم يكن هذا من شأنهم. إن عاجلاً أم آجلاً كانت تلك الأغراض تظهر أمامهم وتمضى المشاريع قدما، بلا أسئلة تطرح.

فى النهاية ومع نجاحها المستمر، توسعت لاكام لتصبح متعهداً عاماً للحصول على ما يتطلبه المشروع على المستوى الدولى -غالباً عن طريق السرقة- أى لكل الاحتياجات العلمية والتكنولوجية لما سيصبح لاحقاً المجمع الإسرائيلى العسكرى الصناعى الموسع المملوك للحكومة. وكمجموعة ستتطور تلك الصناعات الإسرائيلية لتصبح رابع أكبر مُصدِّر للأنظمة المتعلقة بالدفاع العسكرى فى العالم، بعد الولايات المتحدة وروسيا وفرنسا، وتحقق مبيعات سنوية بمليارات الدولارات، وأغلب الفضل فى ذلك يعود للاكام.

كانت لاكام وليس الموساد هى التى لعبت الدور الحاسم فى بناء أساس قدرة الردع الإسرائيلية النووية. ويوضح تقرير كتبته الاستخبارات المركزية الأمريكية عام ١٩٧٦ مدى نجاح لاكام فى إخفاء وجودها. ورصد التقرير وحلل بعناية ودقة شديدتين المجتمع الاستخباراتى برمته فى إسرائيل وكل أفرعه المتنوعة، مشيراً بشكل عام، إلى اهتمام إسرائيل الكبير بالعلوم والتكنولوجيا فى البدان الغربية. لكن الشيء المثير للفضول هو أن ذلك التقرير لم يذكر قط مكتب المهام الخاصة أو مكتب الاتصال العلمى أى لاكام.

لكن بدلاً من ذلك كانت كل الشكوك فى التقرير من نصيب الموساد، وخدم هذا لاكام أيما خدمة، وأثار الابتسامات على وجوه أولئك العالمين ببواطن الأمور فيها. بالرغم من التقدم الهائل فى الموارد، والقوة البشرية، والميزانيات، والتكنولوجيا، كانت الاستخبارات الأمريكية لا تعرف أى شىء عن وجود لاكام

وكانت قد ظلت هكذا منذ ١٩٥٧ . لكن كان لها أن تعرف بأمر تلك المنظمة في ظروف فاضحة بعد عدة أعوام أي في عام ١٩٨٥ .

وعلاوة على ذلك، فقد تغاضت الاستخبارات الأمريكية عن مراقبة تلك الواجهة لأنها اعتمدت بشكل عام على التفاهم الرسمي بين إسرائيل والولايات المتحدة بأن يتجنب البلدان التدخل في أسرار أحدهما الآخر، ذلك الاتفاق الذي خُرق مراراً وبشكل سافر، كما هو واضح في التسريب الأخير غير المصرح به من قبل ويكيليكس عن البرقيات الدبلوماسية السرية.

استندت وضعية لاكام شديدة السرية على عمل رئيس قسم الاستخبارات المضادة في السي آي إيه الأسطوري جيمس جيزاس أنغلتون، والذي أدار الملف الإسرائيلي في السي آي إيه وكأنه ملكيته الشخصية. كان صديقاً جريئاً عزم على غض البصر طالما تسير استخبارات الموساد في الاتحاد السوفييتي على هواه.

أثناء أول احتكاك له بالسياسة نيابة عن حملة حزب رافي في صيف عام ١٩٦٥، قابل ميلتشان بينجامين بلومبيرغ، وهو رجل سيصبح من أهم الأشخاص وأكثرهم قيمة في حياته. عرّفه عليه الأب الروحي بيريز والذي قال "إن كانت هناك قيمة واحدة وددت غرسها في الشاب أرنون، فقد كانت هي أن الرجل الذي يخدم غروره يعد رجلاً تافهاً، والرجل الحقيقي يجب أن يخدم قضية أكبر منه، وهذا ما يملأ حياة المرء بمعنى حقيقي".

وعلى خلاف بيريز لم يكن بلومبيرغ جزءاً من الحركة السياسية. بل كان رجلاً متحفظاً ساعده صمته في الحفاظ على منصبه كرئيس لمنظمة لاكام حتى بعدما ترك كل من بيريز وبن جوريون وزارة الدفاع. ويوصف بلومبيرغ من قبل

من قابلوه صدفة، لكنهم لا يعرفونه جيداً، بأنه رجل بارد ذو وجه جامد صارم. يوافق مظهره الصورة البصرية لموظف حكومي من الشريحة المتوسطة، وكان من الصعب على الكثيرين أن يصدقوا أن هذا الرجل المنضبط قليل الحديث أنشأ شبكة استخبارات عالمية ذات جرأة وتعقيد وسرية غير مسبوقة. وأصبح ميلتشان ممن جندهم، صديقاً له، وأجرأ عميل لديه.

كان أول اجتماع لهما غير رسمي في كافيتيريا في مبنى المنظمة الصهيونية الأمريكية في شارع ابن غافريول. ولاحقاً، اكتسبت اجتماعات غرفة الحرب في لاكام زخماً أكبر. وكانت عملية التجنيد تدريجية، لكنها لم تتطلب كثيراً من الإقناع، "بالرغم من الفارق العمرى بينهما، والذى يتجاوز العشرين عاماً، فقد أصبح بينجامين بلومبيرغ وأرنون ميلتشان صديقين حميمين" وفق ما قاله عميل سابق في لاكام. وأضاف "إن المرات الوحيدة التى كنت أرى فيها بلومبيرغ مبتسماً كانت تلك التى يكون فيها فى صحبة ميلتشان. كان ميلتشان الوحيد الذى لديه القدرة على اختراق واجهة بلومبيرغ وفتح أحاديث صغيرة مع كبير رهبان السرية".

كان دور بلومبيرغ فى برنامج إسرائيل النووى جوهرياً. فى عام ١٩٥٨، التقطت الولايات المتحدة صوراً فوتوغرافية لمفاعل ديمونة من طائرات التجسس طراز يو ٢، تعرف محلل الصور الأمريكي الأسطورى دينو بروغيونى على الموقع فى الحال على أنه مجمع محتمل لمفاعلات ماركول فرنسى التصميم.

وبالرغم من وجود سياسة صارمة لرقابة كل كلمة تخص المفاعل فى إسرائيل آنذاك، تسربت المعلومة فى النهاية فى ١٦ ديسمبر عام ١٩٦٠ . ونشرت جريدة نيويورك تايمز الخبر فى مقالة بالصفحة الأولى، بناء على

تسريبات من مصادر بالحكومة الأمريكية، فى مجهود مكثف لإجبار الإسرائيليين على الاعتراف بالعملية.

فى تلك المرحلة أُجبر بن جوريون على الظهور على منصة الكنيست والاعتراف علناً بوجود المفاعل النووى، والذى أقسم أنه لأغراض سلمية فقط. بالطبع ومن البداية لم يكن لدى بيريز ولا بن جوريون نية فى حفظ أى وعود بشأن سلمية البرنامج، لكن إسرائيل لعبت دور البريئة. عندما أصرت الولايات المتحدة على الفحص الفيزيقى للمفاعل، عمل بلومبيرغ وفريقه بكامل طاقتهم وجُهِّز المفاعل بأكمله بحوائط مزيفة، وغرفة تحكم مزيفة، وبنوافذ مزيفة، وبممرات لا تؤدى إلى شىء، تلك التجهيزات التى من شأنها أن تُشعر أى مصمم مواقع فى هوليوود بالخزى.

وما أن غادر الأمريكيون، تم تفكيك تلك المشاهد المعقدة سريعاً وتخزينها على مقربة تحسباً لجولة تالية. ورحل المفتشون بلا أدنى فكرة عما كان يحدث بالفعل فى ديمونة بعد زيارات عديدة ما بين ١٩٦٢ و١٩٦٩ . وفى النهاية استسلم الأمريكيون.

وطوال عقد الستينيات بأكمله كان بلومبيرغ يرافق شخصياً كل شحنة كبيرة من المعدات من وإلى المفاعل والمواد التى بدت أنها تظهر فجأة فى إسرائيل كما السحر، بأسلوب حاسم وإصرار يكاد يكون متطرفاً لإتمام المشروع. وفى حالة وجود أى فرد يفرط فى الكلام أو يحتاج للتقويم، كان بلومبيرغ هو من يتولى تلك المهمة شخصياً. كان يجلسهم وينظر فى أعينهم ويحذرهم بصوته الصارم الخافت الهادئ، وكأنه يهمس.

وبعد تلك المقابلات المدمرة للأعصاب، كان الأفراد نادراً ما يعودون لنفس

الخطأ مجدداً.

وبحلول منتصف الستينيات، تقريباً فى ذات الوقت الذى تم تجنيد ميلتشان فيه، اتخذت فرنسا التى كانت تحت قيادة ديجول قراراً استراتيجياً بإصلاح علاقاتها مع العرب، على حساب إسرائيل. بدأ التحالف القوى بين فرنسا وإسرائيل والذى استمر على ذلك الحال منذ قيامها، يتداعى، وأجبرت إسرائيل على المضى قدماً وحدها حتى عثرت على داعم جديد.

غدت لاكام أكثر أهمية بعد انتهاء التحالف مع فرنسا، واحتاجت إسرائيل لمعدات ومواد إضافية لم تعد متاحة من فرنسا. كان من الواضح أيضاً صعوبة الحصول على أى من تلك المواد من أى مكان آخر. وبالطبع كانت مهمة لاكام ملء الفجوات وبدأت تتجه لأرنون ميلتشان لتحقيق ذلك.

ومن ذلك المنطلق، نشر بلومبيرغ شبكة من الملحقين العلميين عبر الولايات المتحدة وإيطاليا وبريطانيا العظمى وألمانيا وفرنسا، واختيروا جميعهم من نخبة من علماء الكيمياء والفيزياء والمهندسين، ومعظمهم كان على صلة بشكل ما بوكالة الطاقة الذرية الإسرائيلية، أو بفروع أخرى من صناعات الدفاع العسكرى الإسرائيلية. وكلفوا بالمتابعة الدقيقة لأى تطور علمى أو تكنولوجى فى العالم، والاشتراك فى جميع الصحف الدورية والعلمية، وتطوير علاقاتهم المهنية والشخصية بالعلماء فى البلدان التى بعثوا إليها وإرسال تقارير عن مهامهم.

وقد كان الملحقون من العلماء يرفعون تقاريرهم لبلومبيرغ شخصياً، وكانت كل التقارير مآلها إلى مكتبه. وكان موظفو لاكام يبلغونهم بالتعليمات فى خصوصية قبل أن يغادروا البلاد، ويستجوبونهم فور عودتهم. وفى بعض

الحالات كانوا يعملون أيضاً كحلقات وصل بين الجامعات الكبيرة والمعاهد العلمية، وبين العلماء اليهود والإسرائيليين الذين قد عملوا بها. وكان هؤلاء العلماء غالباً أكاديميين فى إجازات دراسية، وغالباً ما كان يطلب منهم خدمات لصالح لاكام. وقد ظل المجتمع العلمى فى إسرائيل وثيق الصلة بالمؤسسة، ومعتمداً عليها أيضاً.

أصبحت لاكام، ببطء ولكن بيقين، وبالتجربة، أكثر ثقة، وأكثر جرأة، وبمرور الوقت تولت المزيد من المهام، ثم أضافت ملحقين عسكريين بالسفارات الإسرائيلية إلى شبكتها أيضاً. وبعد فترة وجيزة بدأ بلومبيرغ يوجه ملحقيه للبحث عن مواد مسروقة فعلياً من الهواة الذين كانوا يتعاطون معهم فى مختلف المعاهد العلمية، تقرير بحثى هنا، أو رسمة تقنية هناك.

وأدار بلومبيرغ بطرق كلاسيكية وسينمائية عمليات نقل المواد المسروقة وتسليمها، من تبادل الطرود أسفل المناضد فى المقاهى العامة إلى تسليمها فى حمامات المطارات. وفى النهاية كانت المواد توضع فى حقائب دبلوماسية وترسل إلى تل أبيب لتحليلها، وتوزع على الكيانات العلمية والدفاعية المتنوعة والتى يمكنها الاستفادة منها بأقصى درجة ممكنة.

حدثت إحدى أولى عمليات لاكام فى الولايات المتحدة فى مطلع الستينيات، اكتشف جون هادين رئيس مكتب السى آى إيه فى السفارة الأمريكية فى تل أبيب -والذى أدار معركة دهاء حامية مع بلومبيرغ، بالإضافة إلى برنامج متكامل للتجسس على الأنشطة حول مفاعل ديمونة- شحنة تقدر بمائتى رطل من اليورانيوم المخصب، ذهبت كلها إلى البرنامج النووى الإسرائيلى. وقادته عدة خيوط إلى شركة المواد والمعدات النووية، إن يو إم إى سى فى أبولو،

بنسلفانيا. كان مالك المصنع اسمه الدكتور زلمان شابيرو. الذى كان قد عمل في مشروع مانهاتن، قبل ذلك بأعوام، ثم عمل لاحقاً فى الهيئة النووية التنظيمية الأمريكية.

وكان هادين مقتنعاً أن المصنع فى بنسلفانيا قد أنشئ بأموال إسرائيلية وأن الغرض الأساسى هو إمداد مفاعل ديمونة باليورانيوم المخصب. وبالرغم من أن هادين كان بحوزته دليل الإدانة، فقد تم تسوية المشكلة فى النهاية بغرامة دفعها المصنع بتهمة الإهمال. ولم يُتهم شابيرو قط، ولم يتم العثور على المائتى رطل من اليورانيوم المخصب، ولم يُقدم دليل قاطع بإطلاقه.

لكن كانت هناك مشكلة مع الملحقين العلميين، والذين لم يكونوا عملاء مدربين بحرفية. من ناحية، كانت تلك طريقة جريئة وغير تقليدية وعملت لصالح بلومبيرغ، لكنها من ناحية أخرى كانت تحمل المخاطر. وحدث عدد من الوقائع كادت تنتهى بدخول العملاء السجن، كما فى واقعة شركة المواد والمعدات النووية. ومع ذلك فقد تزايد الطلب على الاستخبارات العلمية مع كل خطوة صغيرة على درب تحقيق الأهداف الاستراتيجية. وأدرك بلومبيرغ أنه يحتاج للتوسع فى أساليبه إن كان له أن يستمر فى سد الاحتياجات المتزايدة لمنظماته وللكيانات الأخرى المتعلقة بالدفاع العسكرى.

وهكذا توصل للبحث عن شخصيات رئيسية فاعلة فى قطاع الأعمال الإسرائيلى والدولى وتجنيدهم. وهذا ما حفز بلومبيرغ عندما قابل ميلتشان الشاب المبهر، والذى -كما هؤلاء العلماء- كان متحمساً لفرصة خدمة بلاده. وأصبح لبلومبيبرغ ذراع دولية حقيقية.

وبطرق عدة، كانت علاقة بلومبيرغ بمن جندهم من قادة البرنامج تكافلية.

إذ فهم الجميع أنهم لا يعملون لصالح الحكومة الإسرائيلية بصورة رسمية، وكانوا لا يتلقون أجوراً ولم يتكفل أحد بدفع مصاريف التأمين على علاج الأسنان. وفي مقابل خدماتهم السرية كانوا يعاملون كأمراء بين الناس. وكانت أعوام ميلتشان الأولى مع لاكام هي الأكثر زخماً في تاريخ المنظمة، وكان إبداع ميلتشان ضمن أصول المنظمة الجوهرية.

ذاق الإثارة لأول مرة أثناء اثنتين من أشهر العمليات التي أدارتها لاكام، وحدثت كلتاهما بعدما فرضت فرنسا حظراً كاملاً على إمداد إسرائيل بالسلاح بعد حرب الأيام الستة. إحداهما كانت تدعى عملية تشيربورغ من قبل الموساد، بينما اضطلعت لاكام بالعملية الثانية وتدعى ستاربوت. وكانت العملية توضيحاً مبهراً للطريقة التي كانت لاكام تجند بها عملاءها وتعمل بها عن كثب مع شخصيات رجال الأعمال القائدة من القطاع الخاص الإسرائيلي، والذين سعد أغلبهم بأن طُلِب منهم أداء الخدمة.

في عشية رأس السنة عام ١٩٦٩، غادر عملاء الاستخبارات الإسرائيلية ميناء تشيربورغ الفرنسي بخمسة قوارب محملة بالصواريخ كانت إسرائيل قد دفعت ثمنها بالفعل، لكن الفرنسيين كانوا يرفضون الإفراج عنها بسبب حظر السلاح الذي كانوا قد فرضوه مؤخراً. وفي هذه العملية بالتحديد، جندت لاكام رجل أعمال إسرائيلياً شهيراً يدعى ميلا برينر، وكان من أكثر الرجال ثراء في إسرائيل ومالك لشركة شحن سفن كانت تنقل الموالح أصلاً من إسرائيل إلى أوروبا، وكانت مهمة برينر هي افتتاح شركة وهمية لاستكشاف البترول في النرويج تدعى ستاربوت، تمولها حسابات لاكام السرية. وكانت ستسجل على أنها شركة من باناما ومن ثم تقدم عرضاً وهمياً للحكومة الفرنسية لشراء القوارب الموجودة في ميناء تشيربورغ. وقدمت الحكومة الفرنسية العرض إلى

إسرائيل والتى دخلت فى مفاوضات حامية مع الشركة النرويجية. وبعد أسبوع من المساومات المزعومة، وافق الإسرائيليون على بيع القوارب إلى النرويجيين، والذين لم يوافقوا على البيع النهائى إلا بعد السماح لهم بتجربة القوارب فى البحر للتأكد من صلاحيتها. ووافقت كل الأطراف على ذلك.

وانطلقت مجموعة من عملاء الموساد الإسرائيليين الشقر يلعبون دور بحارة نرويجيين إلى البحر المفتوح، بتصريح كامل من الحكومة الفرنسية، للقيام بما كان يفترض أنها تجربة أداء سريعة. ولم تعد القوارب قط لتشيربورغ، وبدلاً من ذلك توجهت مباشرة إلى شرق البحر المتوسط. وعندما فطن الفرنسيون لما كان يحدث، كانت القوارب قد قطعت نصف المسافة بالفعل إلى إسرائيل.

ونظمت لاكام عدة لقاءات سرية كانت قد حُددت مسبقاً لتزويد قوارب الصواريخ بالوقود فى البحر المتوسط. وتم تحقيق ذلك بمكالمة واحدة إلى شركة الشحن الوطنية الإسرائيلية زيم.

وصدم الفرنسيون وأحرجوا عندما ظهرت العملية الاحتيالية الوقحة للعلن. وانتقموا بطرد الملحق العسكرى الإسرائيلى موردخاى موشا ليمون من فرنسا.

كانت تلك الأيام الجامحة التى أعقبت حرب الأيام الستة، عندما بدا أن كل شىء ممكن وكانت الوقاحة فضيلة يحتفى بها. ازدهرت أعمال لاكام ووجدت أى مادة متعلقة بالدفاع العسكرى يمكن تخيلها طريقها إلى إسرائيل. ومن نجاحات لاكام الساحقة الأخرى والتى عززت سمعة بلومبيرغ فى الدوائر الاستخباراتية الإسرائيلية ودفعت بها إلى آفاق جديدة كانت هى السرقة

الوقحة لتصميم المقاتلة الجوية سوبر ميراج،وهى أفضل طائرة حربية فى فرنسا، من مضنع سويسرى لمحركات الطائرات، وهى عملية أخرى تم تنفيذها فى عام ١٩٦٩ .

كان الكولونيل دوف سيون زوج ابنة موشيه ديان هو الملحق العسكرى الإسرائيلى فى مدينة بيرن. تعرف سيون على عامل ساخط من الشركة السويسرية اسمه ألفريد فراونكنيخت وجنده،ولم يكن العامل يهودياً لكنه كان داعماً قوياً لإسرائيل. تم دفع حوالى ٢٠٠ ألف دولار لفراونكنيخت لتسليم التصميمات الكاملة للطائرة المقاتلة ميراج عن طريق وضع بروفات تصميم الطائرة كاملة فى صناديق فى مناسبات منفصلة مختلفة وتسليمها لسائق ألمانى اسمه هانز ستراخر،والذى كان ينقلها بالسيارة إلى روما ومنها إلى إسرائيل فى حقائب دبلوماسية.

فى النهاية لاحظت السلطات السويسرية ما كان يحدث، وآنذاك كان بلومبيرغ قد نقل معظم التصميمات إلى مكاتب لاكام بتل أبيب،وسلمها سريعاً إلى أل شويمر، رئيس مجلس إدارة شركة صناعات الطائرات الإسرائيلية. تم القبض على فراونكنيخت واعترف فى الحال، وصرح بأنه فعل كل ذلك لأسباب أيديولوچية، بسبب تعاطفه مع إسرائيل.

حكم عليه بحكم مخفف وهو عام فى السجن. أما السائق هانز ستراخر فقد أفلت من القبض عليه بشق الأنفس وتم تهريبه إلى إسرائيل، حيث أعطته لاكام هوية جديدة قبل أن ينتقل إلى بلد غير معروف ليبدأ حياة جديدة أخرى. وتكرر منهج لاكام مراراً فى حالات أخرى عندما كان يتم اكتشاف عملائها.

فى ٢٩ من أبريل عام ١٩٧٥ استعرضت إسرائيل أحدث طائرة مقاتلة

أصلية لديها واسمها الكفير، والتى بدت مشابهة بشكل صادم للطائرة ميراج. سافر فراونكنيخت إلى إسرائيل ليشهد انطلاقتها الأولى، وكان ضمن الحضور أيضاً بنيامين بلومبيرغ وأرنون ميلتشان وعملاء آخرون فى لاكام.

فى نوفمبر من عام ١٩٦٨، اشترت شركة كيماويات ألمانية اسمها أسمرة، من خلال شبكة معقدة من الشركات الفرعية، مائتى طن من أكسيد اليورانيوم أو الكعكة الصفراء. وأصدروا شهادة مستخدم نهائى كما هو مطلوب لأية صفقة بيع دولية تتضمن اليورانيوم، وكان لديهم جميع الوثائق المطلوبة. وصل الكعك الأصفر إلى ميناء أنتويرب فى بلجيكا من منجم للمعادن فى الكونغو مملوك لشركة بلجيكية اسمها سوسيستيه جنرال دى مينارو. ومن ميناء أنتويرب، تم تحميل الشحنة على سفينة اسمها شيزبيرغ أيه ترفع العلم الليبيرى.

وأخطرت السفينة المختصين بأن وجهتها هى جنوة بإيطاليا. ولم تصل هناك قط. وبدلاً من أن تتجه شمالاً عندما دخلت البحر المتوسط، مضت شرقاً. وفى مكان ما فى البحر المتوسط تلاقت مع سفينة إسرائيلية مملوكة لشركة زيم، ولم ير أحد المائتى طن من أكسيد اليورانيوم مجدداً أبداً. وبعد بضعة أيام شوهدت السفينة فى مدينة الإسكندرونة بتركيا، بدون حمولتها وباسم جديد.

وعرفت الواقعة برمتها باسم العملية بلامبات. وهو لفظ مشتق من الكلمة الإيطالية بلامبام وتعنى معدن الرصاص، فى إشارة إلى علامة الطبول التى كانت تستخدم لنقل الكعكة الصفراء. كانت شبكة شركات الواجهة والخداع المستخدم فى العملية معقدة للغاية لدرجة أن السلطات الأوروبية لم تتمكن يوماً من حل لغز خطة العملية.



وأثناء تلك العمليات تعرف ميلتشان لأول مرة على مجال الاستخبارات، وعرف كيف يعمل في الظل مع بنيامين بلومبيرغ. وتعلم أيضاً لِم عليه أن يبتعد عن الإعلام، تعلم ميلتشان كيف يلتزم الصمت وكيف يعمل في عزلة مطلقة. وتعلم لِم تُعَد السرية المزدوجة مهمة: السرية عن العدو بالخارج والسرية عن الغرماء بالداخل... أي الموساد، وأمان، وشاباك، ووزارة الشئون الخارجية.

تعلم كيف ينشئ شركات واجهة مستخدماً هوية لطرف ثالث، وحسابات مصرفية سرية، ووثائق مستخدم نهائي مزورة، وحقائب دبلوماسية، ومواعيد للقاءات في منتصف البحر لشحنات السفن. وتعلم كيف يجند ويحفز المواطنين الأجانب لتنفيذ أوامره من خلال إثارة الشهوة والطمع وأي ضعف آخر يمكنه استغلاله. باختصار، تعلم فن العملاء السريين من بلومبيرغ، الذي كان صبوراً للغاية مع الشاب أرنون. عندما كان ميلتشان يتحدث، كان بلومبيرغ يرتشف ببطء من قدح الشاي وينصت، في الأغلب وهو صامت.

راقت طبيعة لاكام لشخصية ميلتشان، إذ أديرت المنظمة بحسم وعلى عجل، بقليل من أخطاء الغفلة الرسمية، وكانت الفكرة وراءها هي تشجيع وجود بيئة خلاقة للجرأة والمخاطرات المحسوبة. بحث بلومبيرغ عن عملاء عدوانيين يتمتعون بروح المغامرة ويفكرون خارج القوالب المعهودة، عن أشخاص يظهرون التوازن المناسب بين الحكم الصائب والقدرة على الارتجال الميداني ويقدرون مسئولية المخاطرات بدون الحاجة للاتصال بقياداتهم في الوطن كل دقيقة. وحقق إبداع لاكام نجاحاً غير مسبوق لإسرائيل، لكن تلك العقلية ذاتها هي التي أدت إلى الكارثة.

كانت علاقة العمل الوثيقة بين ميلتشان وبلومبيرغ مثمرة بما يفوق الحاجة،

ولن تُعرف تفاصيل معظمها أبداً. عندما يسترجع بلومبيرغ برضا بالغ تفاصيل الشبكة الدولية التى أنشأها، يبرز اسم ميلتشان كثيراً. عندما كان بلومبيرغ يحتاج لألف طن من بيركلورات الأمونيوم، والبيوتاريز وألياف الكربون، وبوصلات جيرسكوبية خاملة، ومقياسات تعجيل، ورادارات لتحديد الدقة، ومواد أخرى أساسية مطلوبة من أى شخص يسعى لتطوير سلاح ردع نووى، كان يتصل بميلتشان.

كان انتقال ميلتشان المستمر بين الدول والقارات هو ما جعله هدفاً مراوغاً لأى جهود استخبارات مضادة، وهذا ما جعله من أهم المكاسب المثمرة للاكام ولدولة إسرائيل.

٦

الجمال الخطير

بدأت المشكلة عندما تعلمت هى العبرية وتعلمتُ أنا الفرنسية.

أرنون ميلتشان لمجلة لوس أنجلوس فى أبريل ٢٠٠٠

بالنسبة لأى شخص طبيعى فالفاعلية السياسية، وإدارة جمعية للكيماويات والأسمدة، والعمل كأحد مقومات الاستخبارات أنشطة كافية لشغل الوقت. لكن بالنسبة لشخص مثل ميلتشان، وحتى وهو فى مستهل العشرينات، لم تكن كافية بأى شكل، كان منذ صغره مفتوناً بالأفلام وبالمشاهير، وبدأ يتردد على مواقع تصوير بضعة أفلام أنتجت فى إسرائيل، وبدأت فكرة المساهمة فى البيزنس تكبر معه.

٦

وذات يوم فى فبراير عام ١٩٦٥، وفى طريقه لاجتماع محدد الموعد مسبقاً فى رواق فندق هيلتون تل أبيب ،وكان أكبر وأفخم فندق شاطئى فى المدينة آنذاك، لاحظ شابة رائعة الجمال تصادف أنها عارضة أزياء فرنسية. ذكرته ببريجيت باردو، فتاة فرنسية فاتنة أخرى كانت من رموز ثقافة السينما الشعبية آنذاك، وكانت تلك الشابة قد دعيت إلى إسرائيل فى جهد لإضفاء السحر الأوروبى على أول عرض أزياء ضخم للبلد المنعزل. وكان سيقام فى نفس الفندق ذلك الأسبوع وكان حدثاً إعلامياً محلياً هاماً.

وبإصراره المعهود، لكن بحذر وبلباقة، توصل لاسمها "بريجيت غونمير"، وعرف أنها قريبة من بعيد لوزير الخارجية الفرنسى السابق بيير مينديز. وخلال ساعات تخلى عن كل المحاذير وبدأت علاقة شغوفة.

ووقع أرنون في غرامها، واستأجر غرفة في الفندق، وبالرغم من أنهما كانا يتواصلان بصعوبة - إذ تعلم هو الفرنسية عقب ذلك بأعوام ولم تكن هي تتحدث العبرية وقليلاً من الإنجليزية - فقد تجاذبا جسدياً ونهلا من بعضهما.

في الأيام التالية تدله في الحب تماماً، واتصل بصديقه رافي شاعولي ودبر لإغلاق ملهاه الليلي مانديز تلك الليلة لإبهار بريجيت بسهرة حصرية هناك. لم يدعُ سوى أقرب أصدقائه. وبطبيعة الحال، فقد حضر جميع أفراد مجتمع المبدعين في تل أبيب، أو الأشخاص البوهيميين، وصفوة الصفوة.

ودعا شاعولي زوجته المتألقة، ماندي، ولأجل تلك المناسبة دعا أرنون أيضاً فرقة الروك الواعدة في إسرائيل ذا ليونز. وكانت الفرقة تعتبر من أولى الفرق الإسرائيلية التي تجرب أداء موسيقى الريجي، وفي عام ١٩٦٨ أصبحت أول فرقة إسرائيلية تنتج

أغنية تحتل مركزاً متقدماً فى قوائم الأغانى الإنجليزية بعنوان "حبنا شىء ينمو". وكان أعضاؤها قد خرجوا من أحياء الطبقة الفقيرة والتى لم يكن أرنون يألفها جيداً أو يرتاح لها.

وكان عازف الباص فى الفرقة فتى هيبيا معدماً مجهولاً طويل الشعر، والذى أصبح لاحقاً مليارديراً وأحد أباطرة الإعلام فى الولايات المتحدة، وأحد أكبر المتبرعين للحزب الديمقراطى واسمه حاييم صبان، الرجل الذى قدم لكل طفل أمريكى شخصيات مشهورة عالمياً مثل سلاحف النينجا وبارو رينجرز، يمتلك أيضاً شركة يونيفيچن، وهى أكبر شركة إعلام إسبانية فى الولايات المتحدة، وأصبح فى النهاية شريكاً فى العمل مع أرنون ميلتشان، فى الملكية المشتركة للقناة العاشرة الإسرائيلية.

اعتاد صبان والفرقة العزف فى ملاه ليلية وضيعة فى أحياء فقيرة قاسية، وجاءت دعوتهم فجأة للعزف فى أرقى ملهى ليلى فى تل أبيب كطفرة غيرت مسيرتهم. ويتذكر صبان جيداً اليوم الذى تلقت فيه فرقته دعوة للعزف فى ملهى مانديز حيث يقول:

"كنا متحمسين وكأننا نجحنا أخيراً، إذ فى النهاية سنتمكن من الاحتكاك بصفوة المجتمع فى تل أبيب، عاصمة البلد الثقافية، كل الوجهاء كانوا هناك. أبرم أرنون الصفقة معنا عن فقرتين من ثلاث أغان تتخللهما استراحة قصيرة فى المنتصف. وكانت تلك الفرصة التى كنا نبحث عنها بالتأكيد، إذ كانت الفرصة الأولى لأشخاص طويلى الشعر مثلنا للتعامل مع النخبة الثقافية للحصول على بعض الشرعية".

كان الأمر يتطلب أربعة عمال لحمل معدات الفرقة الثقيلة إلى أعلى المسرح، بما فيها أرغن ضخم. كان كل شىء معداً للبدء. وبدأ فريق ليونز فى العزف وسار كل شىء على ما يرام، وبدا الجمهور منسجماً مع العزف. لكن بعد الأغنية الثالثة فى

الفقرة الأولى حيث كان يفترض بهم أن يأخذوا استراحة، أخذت الأمور منحنى سيئاً، ويتذكره حاييم قائلاً:

"بدلاً من أن يسمحوا لنا بالاختلاط بالحضور أثناء الاستراحة، صدرت تعاليم أرنون لنا بالانتقال إلى المطبخ، وكنا نسترق النظر عبر نوافذ المطبخ وكأننا من الخدم الفقراء. ثم صعدنا للمسرح وأنهينا الفقرة الثانية وتم اصطحابنا فى الحال من الملهى إلى الباب الخلفى. هكذا كان الحال فى تلك الأيام، الأشكيناز الأخيار هنا، والسفرديم المنحطون هناك. هكذا قابلت أرنون ميلتشان لأول مرة".

يتذكر أرنون الذى يزعم أنه قوى الذاكرة، الأمر بشكل مختلف.

"كان الاتفاق على ثلاث أغان مقابل ٢٠٠ دولار. لاحقاً، وبعد بعض المفاوضات، أضيفت ثلاث أغان أخرى. أثناء الأغنية الثانية، كنت أرقص مع بريجيت وفجأة سمعت وراء ظهرى حديثاً بالفرنسية. فاستدرت لأرى حاييم صبان عازف الباص، يدردش بالفرنسية مع بريجيت من فوق المسرح. كونا علاقة ما ولم أكن أفهم أية كلمة بالفرنسية، وكانت تبادله الحديث وبدا أنها فتنت به... تلك الفتاة التى كنت أرقص معها! أى ببساطة كان يغازلها من فوق المسرح. لذلك بعد انتهاء الفقرة أرسلتهم إلى المطبخ. وكان هذا أبعد مكان عن بريجيت يخطر ببالى، ولولا أن حاييم صبان غازلها، لمكث مع الأشكيناز، الأمر بهذه البساطة".

وكأن ليلة حصرية فى ملهى مانديز لم تكن كافية، فقد نقل أرنون فى ذات الوقت مكاتب شركته ميلتشان إخوان من سوق الجملة الزراعى القذر إلى موقع أرقى بكثير على مقربة من شارع كارلباخ. أتم تلك الخطوة فى عجلة فائقة، فى الوقت المناسب لاستقبال زيارة قصيرة من بريجيت والتى لم يكن لها أى علم بالجلبة التى حدثت بسببها.

وسواء كان الأمر صدفة أم لا، فقد كان موقع ميلتشان إخوان الجديد بجوار مقر أكثر منظمات الاستخبارات سرية فى إسرائيل أى لاكام.

ترك أرنون انطباعاً جيداً لدى بريجيت، التى وقعت فى غرامه وقررت البقاء فى إسرائيل. ومن ناحيتها فقد تركت بريجيت انطباعاً جيداً على صديق أرنون الجديد شمعون بيريز، والذى انبهر بجمالها وقدر صلتها بوزير الخارجية الفرنسى السابق بيير منديز، واستمتع بيريز أيضاً باستعراض فرنسيته الطلقة.

وخلال عشرة أيام تزوج أرنون وبريجيت وفق مراسم مدنية فى باريس، وخلال بضعة أشهر بدأ بطنها يكبر بالحمل. واقترح أرنون بعد ذلك زواجاً يهودياً تقليدياً. ولم تجد بريجيت مشكلة فى ترك عملها أو أصولها الكاثوليكية من أجل حياة يهودية فى إسرائيل.

وطلب أرنون من بريجيت اعتناق اليهودية، وهى عملية طويلة وصعبة يمكن أن تستغرق عاماً بأكمله نظراً لأنه فى إسرائيل، لا يُقبل اعتناق اليهودية بشكل رسمى إلا من المسيحيين الأرثونوكس. كان سباقاً يائساً ضد الزمن لأنه بدون شهادة اعتناق يهودية رسمية، لن يولد الطفل يهودياً. لكن أرنون كان واثقاً فى قدرته على ممارسة نفوذه على البيروقراطية الإسرائيلية، بما فى هذا السلطة الحاخامية. ويتطور حملها، تُوجت خطوات اعتناقها اليهودية بمراسم المحكمة الحاخامية.

وفقاً لأرنون، عندما وصلت بريجيت لمراسم الميكفاه -مراسم الغطاس لدى اعتناق اليهودية- كانت تصحب أختها وأمها كشاهدتين، وكانت حاملاً فى الشهر التاسع بالفعل، وسألتها زوجة الحاخام:

"هل تقسمين أنك عذراء؟"، وبدون أن تطرف لها عين وببطنها المنتفخ وهى تقف عارية على حافة المغطس، أجابت بصوت عال "أجل".

عندما أخبرت أرنون بذلك لم يتمالك نفسه وانفجر فى الضحك.

وأقيم حفل الزفاف اليهودى المتواضع قبل أيام فقط من دخول بريجيت ببطنها المنتفخ المستشفى وولادتها لطفلها الأول. وكان ولداً وأسميناه ياريف. وكاسم فهو يعنى العدو، الخصم، أو الغريم. وكفعل يعنى سيقاتل. وهى ترجمة حرفية لمقولة أن الرب سيقاتل [ياريف] أولئك الذين يريدون إيذاء أمة إسرائيل.

وبخلاف الافتتان الأولى، فقد رأت بريجيت فى أرنون رجلاً يستطيع أن يحميها ويعولها، ويعرفها على عالم مشوق يفوق بكثير آفاقها المحدودة. ورأى أرنون فى بريجيت امرأة أجنبية شغوفة جميلة، كانت تعد فى إسرائيل فى تلك الأيام رمزاً للرقى الاجتماعى.

ووفقاً لما قاله أرنون بعد ذلك بأعوام:

"بدأت المتاعب عندما بدأت بريجيت تفهم العبرية وتتكلمها وتعلمت أنا الفرنسية".

واقتبس عنه قوله عندما بدأنا نتواصل حقاً، حينها بدأت المتاعب.

كلاهما كان شاباً سريع الغضب، وليس لديه خبرة فى العلاقات.

لم يخلق أرنون ميلتشان ليستقر فى عمل واحد، أو منزل واحد، وفى تلك الحقبة من حياته، لم يكن معداً لعلاقة واحدة أيضاً، وكما شهد على نفسه:

"أقع فى الحب طوال الوقت، أقع فى حب الروح، والوجه، العينين".

"كان بحاراً يطوف بكل ميناء" هكذا يزعم المخرج تيرى غيليام، ومع كل ذلك يصف ميلتشان نفسه بأنه "رجل المرأة الواحدة!".

كانت عملية تجنيد ميلتشان فى لاكام تدريجية، لكن الوقت حان ليجلس مع بيريز

وديان ليناقشوا أكثر الوسائل فاعلية بالنسبة له للإسهام في القضية.

كان لدى ميلتشان فكرة. فقد كون بالفعل عدة صلات مع العديد من متعهدى الدفاع العسكرى وشركات الفضاء الجوى ساعياً لتمثيلهم فى إسرائيل. وإن سعت وزارة الدفاع برفق لتشجيع تلك الشركات للعمل معه كممثلهم الحصرى فى البلد، حينها سيحول العمولات المكتسبة مرة أخرى إلى إسرائيل لتمويل العمليات السرية.

وكان هذا فى الواقع الاتجاه الذى انتواه كل من بيريز وديان عندما فكرا فى ميلتشان كوزير مالية محتمل أثناء حملة حزب رافى فى الماضى إذ انبهرا بقدرته على استيعاب الصورة الكاملة، والتوصل لحلول من تلقاء نفسه، وتقديم خدماته كعمل وطنى.

وكانت الخطة التى توصلوا إليها شبيهة بالخطة الأصلية التى مولت مفاعل ديمونة نفسه. إذ إن رأس المال سيجمع خارج البلد، ويوضع فى حسابات خارجية، وسيستخدم لتمويل مهام خارج القطر يستحسن أن تظل طى الكتمان، باختصار نظام مواز لا يمكن اقتفاء أثره إلى إسرائيل نفسها.

لكن ميلتشان قدم أكثر من ذلك، إذ عرض على ديان وبيريز استخدام شركته كواجهة فى سبيل افتتاح شركات فرعية وقتما يتطلب لاكام أو الموساد ذلك من أجل نشاطاتهما.

كان لميلتشان أن يفتح حسابات وشركات واجهة لأجل دولة إسرائيل، بما يجعله مسئولاً عن تقنيات وموارد تمويل الاحتياجات الخاصة لتكامل العمليات الاستخباراتية الإسرائيلية خارج القطر. وهكذا أصبح ميلتشان الرجل الوسيط الذى لا غنى عنه.

كان لتلك الحسابات السرية أن تمكن رئيس الوزراء الإسرائيلى من تنفيذ قرارات خارج حدود إسرائيل بدون الحاجة إلى الميزانيات الرسمية، وموافقة مجلس الوزراء، والسياسات الداخلية، وتسريبات الصحافة التى قد تُعرض العمليات للخطر. بمكالمة واحدة لميلتشان، كانت الأحداث تتوالى وتصبح الموارد متاحة.

كان أرنون مستعداً الآن لغزو العالم، واقترح بيريز أنه يمكن الاستعانة بزوجته الفرنسية الجديدة بريجيت كحلقة وصل مفيدة، إذ كانت فرنسا لا تزال المورد الأول للسلاح الإسرائيلى فى منتصف الستينيات ولذا كانت هى محطة ميلتشان الأولى، حيث أبرم صفقته الأولى عندما كان يزور ما يعرف اليوم بشركة أروسباتيال.

وكان قد أُخطِر بالفعل بأن مجموعة من نخبة قيادات السلاح الجوى الإسرائيلى قد زارت مؤخراً المصنع الكائن فى مارينان بالقرب من مارسيليا، وانبهروا للغاية بمروحيات النقل الثقيل سوبر فريلون. أقنع أيروسباتيال بأنهم يحتاجون لوسيط لمساعدتهم على دفع الصفقة للأمام، وبعد تحريات قصيرة، انبهروا بما يكفى بعلاقات الشاب ميلتشان القوية بكل من بيريز وديان لدرجة تعيينه كممثلهم الرسمى فى إسرائيل. وتمت الصفقة بنفس السرعة التى تم بها زواج أرنون مؤخراً، وتم استحقاق العمولات الأولى للحسابات السرية.

وكردة فعل على إغلاق مصر لمضيق تيران، فى صباح الخامس من يونيو عام ١٩٦٧، وفى الساعة ٧:٤٥ صباحاً، أقلع الأسطول الجوى الإسرائيلى كاملاً – باستثناء ١٢ طائرة– من إسرائيل وأغار على كل المجالات الجوية المصرية فى نفس الوقت، ولاحقاً أغار على الأردن وسوريا والعراق فيما عرف بحرب الأيام الستة. نقلت طائرات سوبر فريلون التى تعاقد عليها ميلتشان جنود المظلات الإسرائيليين إلى شرم الشيخ، بما مكنهم من السيطرة على الطرف الجنوبى لشبه جزيرة سيناء فى

سرعة البرق وأنهوا الحصار.

سرعان ما تلت صفقة طائرات سوبر فريلون صفقة أخرى لاثنتي عشرة مروحية حمل خفيف تعرف باسم ألوت. وكانت تلك الطائرات المصنوعة أيضاً فى شركة أيروسباتيال تستخدم فى الانتشار السريع لجنود المشاة للملاحقات الحامية للمتسللين "الإرهابيين"، ولإجلاء الجرحى طوال حرب الاستنزاف ضد إسرائيل.

لعب ميلتشان دوراً حيوياً فى نمو أسطول المروحيات الإسرائيلية الحديث بأكمله، ولاستيعاب تلك الصفقات، افتتح هيلى تريدينغ ليميتد، وهى شركة مكملة لشركة ميلتشان إخوان. وخلال بضعة أشهر، تعاقد أيضاً مع شركة الطائرات الألمانية دورنيير، وأبرم صفقة بيع عدد من طائرات التجسس للأسطول الجوى الإسرائيلى.

من خلال مصادره فى لاكام، عرف ميلتشان بأمر صفقة ضخمة من صواريخ هوك يجرى الإعداد لها لإسرائيل وتوجه فى الحال لمعرض باريس الجوى لعام ١٩٦٧، بعد أيام فقط من حرب الأيام الستة. لفظ هوك وهو الأحرف الأولى من عبارة الصاروخ القاتل الموجه، هو صاروخ أرض/ جو موجه، متوسط المدى، يوفر تغطية دفاع جوى للطائرات منخفضة/ متوسطة الارتفاع، نظام متحرك، لكل أنواع الطقس، يصلح للنهار والليل، وفاعل فى مواجهة المضادات الإلكترونية آنذاك.

وإذ يقف أمام سرادق شركة رايثيون، أرسل ميلتشان رفيقته السويدية الجديدة الفاتنة أولا، والتى كان قد تعرف عليها قبل بضعة أيام فقط، لاستكشاف الانطباع الأول. وخلال لحظات أحاطها مندوبو مبيعات شركة رايثيون وهم يعرضون عليها الشمبانيا، فأشارت لحبيبها المزعوم، رجل الأعمال الإسرائيلى البارز والذى كان يتفقد المعرض ويبحث عن عروض جديدة. وكانت إسرائيل بالطبع تنعم ببريق

انتصارها العسكرى الأخير، لذلك عندما وصل أرنون بعد ذلك ببضع دقائق كان محل فضول الجميع. وقدم ميلتشان نفسه على أنه على علم تام بصفقة صواريخ هوك المتعثرة، مِمّا حَمل قيادات ممثلى رايثيون على الاعتقاد بأن الصفقة فى خطر بسبب الأسعار.

وخلال لحظات توالت المكالمات بشكل جنونى من باريس إلى مقر رايثيون فى ماستشوستس، ومنها إلى إسرائيل. ذكرّ ميلتشان صديقه وزير الدفاع موشيه ديان، والذى تلقى مكالمة هاتفية أيضاً. وساير ديان الخطة بالطبع، وصرح بأن ميلتشان يمكن أن يكون وسيطاً جيداً لهم. وفهمت شركة رايثيون ذلك التلميح. وخلال أيام أصبح ميلتشان ممثلهم الحصرى فى إسرائيل، وأُبرِمت صفقة صواريخ الهوك الجديدة بـ ٩٠٠ مليون دولار. وكانت تلك بداية علاقة طويلة مُربِحة.

كانت عمولة ميلتشان الرسمية من صفقة صواريخ هوك ٤٥ مليون دولار، والتى أودعت فى حساب سرى إسرائيلى لا يخضع للرقابة خارج البلاد. وكانت صواريخ هوك حتى أنذاك أعقد الأنظمة المضادة للطائرات وأغلاها فى الترسانة الإسرائيلية. وبمرور الوقت كان ميلتشان يعقد صفقات أخرى تشمل طرزاً مطورة من صواريخ هوك. وبالطبع كان يجب استبدال، كل صاروخ يطلق ضد الأعداء، أو فى التدريبات، بما يعنى المزيد من الطلبيات والمزيد من العمولات. وبمرور الوقت أسقط نظام صواريخ الهوك فى إسرائيل ٣٦ طائرة للعدو!!

ومرت أعوام قبل أن تصبح العلاقة المربحة بين رايثيون وأرنون ميلتشان معروفة للعلن. وكما جاء فى صحيفة واشنطن بوست عقب تحقيق فيدرالى فى الولايات المتحدة، فقد ازدادت الشكوك فى أن ميلتشان تلقى ٣٠٠ ألف دولار عمولة من شركة تابعة لرايثيون. ولم ينجم أى شىء عن ذلك، وذهب الأمر فى النهاية طى النسيان.

فى ١٩٨٨ وبعد ثلاثة عشر عاماً، أصبحت العلاقة بين شركة رايثيون وميلتشان قضية رأى عام عندما وصف المخرج الإنجليزى تيرى غيليام -والذى كان قد انتهى للتو من إخراج فيلم برازيل من إنتاج ميلتشان- كيف سار مع أرنون وابنه الأكبر ياريف إلى داخل سرادق شركة رايثيون فى معرض باريس للأسلحة الجوية نصف السنوى. حيث قال غيليام:

"كان رائعاً أن أرى طبيعة مجال تجارة السلاح، وكان أرنون متحمساً للغاية لألعاب الفيديو. واصطحب ابنه معه ليلعب بتلك الألعاب، والتى يمكنها أن تحاكى تدمير الكوكب".

وأضاف غيليام "اصطحبنى إلى خيمة رايثيون، وكان الأمر برمته حالة من الاستعراض، وكان واضحاً أنه نجم هام فى عالم رايثيون".

أثناء حرب الأيام الستة، تزايدت الرقعة التى أصبحت تحت سيطرة إسرائيل وبدا واضحاً أن جيش الدفاع الإسرائيلى سيحتاج لقدرة توفير قوات استجابة سريعة على مسافات أكبر. سعى الجنرال موتى هود قائد جيش الدفاع الإسرائيلى آنذاك لشراء أسطول كامل من طائرات أوغاستا بيل ٢٠٥ إريكويز والمعروفة باسم هايس، وهى طائرات حققت شهرة فى فيتنام، والتى ستصبح شديدة النفع فى أسطول المروحيات الإسرائيلى حتى التسعينيات.

تم رسمياً شراء طائرات هايس من الشركة الإيطالية أوغاستا لتجنب المقاطعة العربية، والتى كانت الشركات الأمريكية تخافها أيما خيفة آنذاك. فالأسواق العربية عالية الربح -على الأقل نظرياً- كانت بعيدة المنال عن أية شركة لها نشاط تجارى مع إسرائيل، وكان منوطاً بأشخاص مثل أرنون ميلتشان تيسير طرق مبتكرة لشراء تلك الأنظمة لإسرائيل بدون إفساد مصالح الموردين التجارية فى الأسواق الثرية مثل

أسواق المملكة العربية السعودية والكويت.

دبر ميلتشان الأمر لشركات واجهة تشترى المنتجات مثل المروحيات وغيرها فى بلد ثالث، ثم تشحنها إلى إسرائيل. فى النهاية كشف العرب تلك الطرق وأطلقوا مقاطعة ثانوية، تعاقب بمقتضاها الشركات التى تتعامل تجارياً مع الشركات التى تتعامل مع إسرائيل.

حل ميلتشان تلك المشكلة ببساطة بتكوين شركات واجهة أجنبية إضافية، تبيع لها شركة الواجهة الأولى، قبل الشحن إلى إسرائيل. وصعّد العرب من الإجراءات الاستباقية بإجراءات لمقاطعة من الدرجة الثالثة، وأصبحت شركات الواجهة من الدرجة الثالثة ضرورية أحياناً.

وفى النهاية أدرك العرب عدم جدوى تلك الجهود وفقدت المقاطعة فاعليتها ببطء. وبحلول عام ١٩٧٧ مرر الكونجرس قانوناً وقع عليه جيمى كارتر الرئيس آنذاك، بتشجيع من صديق ميلتشان، إرفينغ شابيرو مدير شركة دوبونت، ينص على فرض غرامات على أية شركة أمريكية تتعامل مع المقاطعة العربية. ولتطبيق القانون، افتتح مَكتب الإذعان لمناهضة المقاطعة، وبحلول الثمانينيات، دخلت شركات مثل بيبسيكو وماكدونالدز والتى التزمت بالمقاطعة العربية لعقود، السوق الإسرائيلية بانفتاح، وكذلك فعل متعهدو الدفاع العسكرى الأمريكى.

وكان دهاء ميلتشان وآخرين هو الذى حال دون أن تركع إسرائيل، إذ لعبوا دوراً هاماً فى إمداد إسرائيل أثناء سنوات المقاطعة الأكثر تأثيراً. من ناحية أخرى وبالنسبة للصراع العربى الإسرائيلى نفسه، فإن المقاطعة العربية جعلت خدمات ميلتشان مصيرية. عقب حرب الأيام الستة، بدأت الرؤية الأمريكية لإسرائيل كمكسب استراتيجى محتمل فى المنطقة تتزايد، ومن هذا المنطلق، بدأ الخط الائتمانى لشراء

أسلحة أمريكية يتصاعد أيضاً.

وعلى مدار السنوات التالية أصبحت إسرائيل من أكثر الدول التى تتلقى مساعدة عسكرية مباشرة من الولايات المتحدة منذ الحرب العالمية الثانية، وتحولت خطوط الائتمان الضخمة إلى منح ضخمة فى هيئة معونات عسكرية بمليارات الدولارات. وكما بينت وقائع معرض باريس الجوى، كان ميلتشان من المعنيين النشيطين بالأمر بما يفوق غيره، وكان يشق طريقه بسحره عبر المتاهات المحتملة من الألغام، ويمثل العديد من شركات النخبة الأوروبية الأمريكية فى مجال صناعات الدفاع العسكرى والفضائية فى مفاوضاتها غير المباشرة مع وزارة الدفاع الإسرائيلية.

وفى أواخر عام ١٩٦٧، تلقت إسرائيل السرب الأول من طائرات سكاى هوك إيه ٤ من إنتاج شركة ماكدونيل دوجلاس من الولايات المتحدة، والتى أصبحت طائراتها الأهم فى الهجوم الأرضى. وبعد ذلك بعامين، وفى ٥ سبتمبر ١٩٦٩، تلقت أول سرب من طائرات إف ٤ فانتوم من إنتاج شركة ماكدونيل دوجلاس أيضاً.

لم يمثل ميلتشان شركة ماكدونيل دوجلاس، لكنه مثل الشركة التى تزودها بأنظمة الأسلحة الرئيسية، وبهوائياتها المتقدمة، وبالرادارات، وبأنظمة الأشعة تحت الحمراء، وأنظمة التوجيه، وأنظمة الملاحة. وبمرور السنين اشترت إسرائيل الآلاف من صواريخ سايدويندر تكلفة ٨٤ ألف دولار للصاروخ، وصواريخ سبارو تكلفة ١٢٥ ألف دولار للصاروخ، وأسلحة أخرى جو / جو وجو / أرض لمنصات طائرات سكاى هوك وفانتوم، ولاحقاً لأسرابها من طائرات إف ١٥ وإف ١٦. وبخلاف الطائرات نفسها، كانت الصواريخ والقنابل تستهلك باستمرار، إما فى التدريبات أو فى الاشتباكات العسكرية الفعلية، وكانت تحتاج لإعادة الإمداد باستمرار عبر ميلتشان،

وعبر تضخيم الحسابات السرية الخارجية لإسرائيل، وبزيادة رقعة قدراتها السرية حول العالم.

أصبح أحد تلك الأنشطة السرية مألوفاً للعديد من مريدى السينما فى فيلم الحركة والإثارة "ميونيخ" للمخرج ستيفن سبيلبرغ من إنتاج ٢٠٠٦ . إذ يروى الفيلم القصة الحقيقية لعملاء الموساد الإسرائيليين من وحدة كيدون أو الرمح، الذين أرسلوا إلى أوروبا لاغتيال أولئك المسئولين عن مذبحة ١٩٧٢ للرياضيين الإسرائيليين فى دورة الألعاب الأوليمبية فى ميونيخ.

ويصف سبيلبرغ العملية بأنها كانت ممولة من قبل الحكومة الإسرائيلية، بمشهد غير واقعى يستدعى الضحك يشمل موظف حكومة إسرائيلياً يطالب بصوت عال أن يقدم القتلة فواتير عن كل التكاليف، بما سيوفر برهاناً ورقياً لكل أنشطتهم.

لكن ما كان واقعياً هو المشهد والذى يفتح فيه العميل الرئيسى أفنر -والذى لعب دوره إيريك بانا- صندوق ودائع فى مصرف فى زيوريخ ليحصل منه على المال اللازم لتمويل المهمة.

وبدون أن يدرى سبيلبرغ فقد تعرض بالصدفة لنفس الأنواع من الحسابات الخارجية التى استخدمتها إسرائيل لتمويل تلك العمليات وأمثالها. وكانت الشركة النرويجية الوهمية التى اشترت قوارب تشيربورج، والشركة الوهمية التى اشترت مائتى طن من أكسيد اليورانيوم والتى اختفت فى البحر المتوسط، وعمليات الشراء السرية لطائرات سوبر ميراج الفرنسية بالغة السرية، كلها أمثلة على العمليات التى كانت تمولها الحسابات السرية.

وكان من المعتاد لأى عميل إسرائيلى أن يستميل كبار مديرى الشركات ومسئولى الحكومات فى قطاعات هامة حساسة، من خلال تماهيهم مع إسرائيل، أو

بواسطة المال، أو كليهما. لكن تلك الحسابات لم تكن تستخدم فحسب فى عمليات التجسس. حيث كانت تستخدم فى الأغلب فى الشراء المباشر للتكنولوجيا المحرمة، أو حتى لإعالة أرامل الجواسيس الذين سقطوا وأطفالهم، مثل نادية، أرملة الجاسوس الإسرائيلى المحترف إيلى كوهين.

كان من الطرق المعتادة فى العمليات، توفير سبل الإنكار المعقول للمجرم، أى إقناع الموظف المسئول بترك التصميمات، بالصدفة، فى منطقة مكشوفة فى موعد محدد مسبقاً. كانت ساعة أو اثنتان مدة أكثر من كافية تتيح لفريق مدرب تصوير تلك المواد وتوثيقها. قبل أن يعيدها مالكها الغافل إلى مكانها.

يقول أرنون: "أياً كان الإنجاز، لطالما كانت الرحلة إلى الهدف أكثر إرضاء عن الإنجاز نفسه". كان هذا هو الحال بالتأكيد فى علاقته مع بريجيت، ثم كون أرنون – وخلال فترة قصيرة من الوقت–، صلة بأُولا، وهى فارسة من جوتنبريج، التقاها فى باريس قبل المعرض الجوى. وتكفل بأُولا وابنها الصغير، واستأجر لهما منزلاً فى قبرص، على مسافة ثلاثين دقيقة بالطائرة من تل أبيب، حيث افتتح مكتباً محلياً. ثم عاش حياة مزدوجة.

وكل أسبوع تقريباً كان مكتب ميلتشان إخوان فى تل أبيب يتلقى تلغرافاً مستعجلاً يطلب حضور أرنون فى اجتماع عمل طارئ فى قبرص، مما يستحثه للسفر لقضاء بعض الوقت بين ذراعى عشيقته الجديدة. وخلال عام من السفر ذهاباً وإياباً، قرر أرنون أن يأتى بأُولا إلى إسرائيل، حيث وفّر لها إقامة فى منزل صغير مريح فى ضواحى تل أبيب، واشترى لها أفضل حصان وجده. وبعد ذلك قضى أيامه بين زوجته، وعمله، وعشيقته السرية. لم يكن ذلك وضعاً يمكن استمراره، وكان عليه التخلى عن بعض مصادر متعته.

7

العميـــل

إيران؟ لقد تعاقدت فقط على إزالة الأعشاب من مهبط الطائرات بالمطار!.

أرنون ميلتشان لجريدة لوس أنجلوس تايمز ٢٨ فبراير ١٩٩٢

أدرت مشاريع ميلتشـان للأسمدة والكيماويات أموالاً وفيرة، وكانت غطاء جيداً، لكن ليس مثل صفقاته السرية المتزايدة باستمرار والخاصة بأنظمة الدفاع العسكرى عبر شركة ميلتشـان إخوان والعديد من شركات الواجهة والحسابات المصرفية المفتوحة لتتولاها.

وانتشرت أسطورة إعادة بناء شركة والده للأسمدة، مما جعله شخصية غامضة شبيهة بالنجوم فى تل أبيب. واكتسب ميلتشان علاقات قوية مع النخبة السياسية، وأصبح محركاً حقيقياً فى عالم ما وراء الكواليس للأمن والتسليح الإسرائيلى. عرف ذلك جميع من كان عليهم أن يعرفوا.

وكان متزوجاً من امرأة جميلة وأباً لابن حديث الولادة، بينما يمارس علاقته مع الحسناء السويدية من ناحية أخرى. لكن لم يجلب أى من هذا السلام الداخلى، فقط القلق الدائم. كان ما زال عليه أن يترك بصمته فى العالم بأسلوب يقترب من إرضاء تطلعاته؛ وكان دائماً فى رحلة بحث مستمرة عن تحديات جديدة وغير تقليدية. بحلول أواخر الستينيات بدأت هذه التحديات تواجهه وفى هذا يقول ميلتشان: من وجهة نظرى، تعثرت فيها صدفة.

المفـاجئ أنه فى أواخـر السـتـينيـات قـدمت إيران لعـدد من الإسـرائيليـين الطموحين ذوى العلاقات القوية أكثر فرص المشاريع الدولية أهمية. تم تقديم إحدى هذه الفـرص إلى مـيلتـشـان على طبق من فـضـة. ومـجـدداً اسـتـفـاد منهـا أقـصى استفادة.

ومنذ قيام إسرائيل وحتى الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩ -أثناء الفترة التى كان يحكم إيران فيها الشاه محمد رضا بهلوى- تمتع كلا البلدين بعلاقة حميمة وخاصة جداً. وكانت إيران فى الواقع ثانى بلد فى العالم يعترف بإسرائيل كدولة مستقلة، بعد الولايات المتحدة مباشرة، وكانت تعتبر أقرب أصدقائها فى العالم الإسلامى.

وكشـأن الجـمـيع، انبـهـر الشـاه خـاصـة بانتـصـار إسـرائيل السـاحق فى حـرب الأيام الستة، وخلال بضعة أعوام أصبح البلدان يشتركان فى مجموعة كبيرة من

المشـاريع، العسكرية، والزراعيـة، والتـجارية. وأمـدت إيران إسـرائيل بمعظم احتياجاتها في مجال الطاقة، ودفعت إسرائيل ثمن ذلك بتبادل الخبرات. وبالمساعدة في تأمين وضع الشاه الداخلي المتقلقل والحفاظ عليه. دربت إسرائيل الاستخبارات السرية الإيرانية سـافـاك، وكـانت من أكـبر قـوات الأمن الداخلي في العـالم آنذاك وأكثرها شراسة.

أنشأ البلدان معاً شركة مشتركة لتوزيع الطاقة اسمها ترانس أسياتيك أويل. وبعد إغلاق قناة السويس عقب حرب الأيام الستة، كانت إيران تشحن البترول إلى مـيناء إيلات في جنوب إسـرائيل، وكـانت تنقل البـتـرول عبـر خطوط الأنابيب إلى مينائها أشدود على البحر المتوسط، ثم تشحنه إلى أوروبا من هناك، متجاوزة في ذلك قناة السويس كليـاً. بالنسبـة لإسرائيل كـان اللاعبون الأسـاسيون في تبادل السـلاح الإيراني الإسـرائيلي هو ملحقـهـا العسكري في طهـران ياكـوف نمرودي، ورجل الأعمـال الأمريكي الإسـرائيلي آل شـويمر، وهو مـهرب طائرات سـابق أثناء حرب الاستقلال الإسرائيلية والذي كان مؤسس ومدير شركة صناعات الطائرات الإسرائيلية واسمها حالياً صناعات الفضاء الجوي الإسرائيلية أو (أي إيه أي)، وهي شـركـة مملوكـة للدولة وإحـدى أكبـر شـركـات التـوظيف في إسـرائيل وتقـدر مـبـيـعـاتـهـا السنوية بـ٥ر٣ مليـار دولار. وأدار كل من نمرودي وشـويمر العلاقـات الإيرانية الإسرائيلية على أعلى المستويات لأعوام وطوراها. وحدثت الطفرة الكبيرة في أعقاب حرب الأيام الستة، بما عزز من سمعة إسرائيل في عيني الشاه ودفعه لتوقيع العديد من العقود السخية في مجال الأمن مع الإسرائيليين.

وبحلول أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات كان نمرودي وشويمر يحصدان الثمار الوفيرة لمجهوداتهما، ولم يكن لأحد علاقات قوية في إيران تفوق علاقاتهما، لا الاسـتـخـبـارات الأمـريكيـة ولا وحـدة M 15 البـريطانيـة. فـتح كل من هذين الرجلين

أبواب إيران للشاب ميلتشان ولإسرائيليين آخرين. وفي عام ١٩٨٢، نشرت جريدة نيويوريك تايمز أن أكثر من نصف كل أنظمة السلاح التي اشترتها إيران، حتى ثورة ١٩٧٩، كان مصدرها إسرائيل مباشرة، أو تم الحصول عليها بواسطة إسرائيل.

وبموافقة شمعون بيريز قدم نمرودي وشويمر للشاه ولكبار الجنرالات فكرة إنشاء شبكة متطورة من محطات الإنذار المبكر على قمم الجبال المتباعدة ومن مواقع التنصت القادرة على اعتراض الاتصالات وإشارات الرادارات من الدول المجاورة لإيران. وأنشأت إسرائيل حلقة إلكترونية مشابهة حول حدودها لأغراض الإنذار المبكر وللتنصت عند الضرورة، وتشاركوا بعض المعلومات مع الشاه ومع قائد القوات الجوية الإيرانية الجنرال محمد خاتمي، كي يقنعوهم بأهمية مثل تلك الاستخبارات.

لكن مساحة إيران تفوق مساحة إسرائيل بأكثر من ٦٠ ضعفاً، وسرعان ما أدرك شويمر أن المشروع ستتجاوز تكلفته المليار دولار بكثير وربما كان أكبر من إمكانيات شركته صناعات الطائرات الإسرائيلية آنذاك. وكان واثقاً أن قسم الإلكترونيات في شركة (أي إيه أي) أو إلتا يستطيع توفير الهوائيات وبعض الإلكترونيات، وأن الطاقم الإسرائيلي يمكنه أن يتولى أعمال التركيب، والتي قد تصل لحوالي ٢٠٪ من حجم المشروع، لكن كثيراً من العناصر الأخرى كانت تفوق قدرات شركة (أي إيه أي).

لزم الأمر أن تضطلع شركة أكبر بدور المتعهد الأول، وشركة (أي إيه أي) كمتعهد ثانوي لها. ولم تكن إسرائيل تشعر بالارتياح سوى لعدد صغير من الشركات حول العالم وتثق في قدرتها على تنفيذ مثل ذلك المشروع. وكانت إحدى

تلك الشركات هى نورث أمريكا روكويل. وكانت علاقة شركة صناعات الطائرات الإسرائيلية بشركة روكويل متواضعة، تقدر بعشرة ملايين دولار فى العام من المشاريع المشتركة، أغلبها متعلق بشركة ويستويند للطائرات الخاصة، وهى شركة غير عسكرية لتصنيع الطائرات فى إسرائيل. لكن حتى هذا كان يعد مخاطرة بالنسبة لشركة روكويل التى تحسبت لخسارة الأرباح المحتملة من الدول العربية الغنية بالبترول والتى ظلت ملتزمة بالمقاطعة الاقتصادية لإسرائيل، لذا حُكِم على تلك العلاقة بالسرية.

ويدأ قلق مجلس إدارة شركة روكويل يتزايد حيث بدا البترول السعودى أكثر إغراء من الدخول فى مشاريع مع إسرائيل، لذلك قرروا إرسال نائب الرئيس المعين حديثاً وممثل تطوير المشاريع الإقليمية إلى تل أبيب ليريا ما إن كان المشروع المشترك يمكن أن يعاد بناؤه ليكون أكثر سرية أو يلغى برمته.

وكان الممثل الإقليمى الذى أرسلوه مهندساً رفيع المستوى واسمه الدكتور ريتشارد أو ديك كيلى سميث. كان سميث وهو فى أوائل الأربعينيات شخصية غير اعتيادية، إذ كان عالماً وعالم رياضيات ذا طموحات فى مجال الأعمال. نشأ فى ريف أكلاهوما وعانى مادياً لأعوام عديدة ليكمل دراسته، وفى النهاية حصل على شهادة جامعية فى مجال الفيزياء من جامعة كالتيتش، ثم الماجيستير والدكتوراه فى هندسة الكهرباء والرياضيات من جامعة جنوب كاليفورنيا. وأثناء ذلك كله تزوج سميث وأنجب خمسة من الأبناء. شق سميث طريقه إلى القمة، ليلعب فى النهاية دوراً رائداً فى تطوير أنظمة توجيه الصواريخ المتقدمة والتحكم فى الطيران الأوتوماتيكى. واكتسب سمعة قوية بين أقرانه وتم تعيينه فى العديد من مجالس الإدارات ومفوضيات الدفاع العسكرى فى وزارة الدفاع الأمريكية، والناتو وناسا.

هبط سميث فى مطار إسرائيل الدولى ووقف فى صف مراجعة جوازات السفر الطويل. وفجأة شعر بأحدهم يضع يده على كتفه من الخلف، وعندما التفت، مد شاب يده إليه وقدم نفسه بأنه أرنون ميلتشان. وتبادل كلاهما المزاح. وصدم سميث عندما رأى كم كان ميلتشان صغير السن. وكان قد سمع به لأول مرة من الجنرال غريتيل، والذى كان يعمل فى قسم المحاسبة فى شركة روكويل، وافترض أنه لاعب رئيسى فى صناعات الفضاء الجوى الإسرائيلية المتنامية. ولم تتطابق الصورة التى رسمها فى مخيلته مع الشخص الواقف أمامه.

وبسلاسة اصطحب أرنون سميث عبر الحشود فى صفوف مراجعة جوازات السفر، وتجاوز سريعاً الإجراءات الشكلية لإدارة الهجرة، وخرجا من المطار وتوجها إلى سيارة أرنون الشيفروليه الحمراء المكشوفة المركونة فى الممنوع، لكنها لم تُقطَر أو تنال مخالفة.

فى الحقيقة، فإن القول بأن أرنون كان يمثل شركة روكويل أو أية شركة أخرى متعلقة بالدفاع العسكرى سيعد بالمفهوم التقليدى أمراً على قدر من التضليل. كان أرنون يمثل الدولة الإسرائيلية ويمثل نفسه وشركته، ثم بعد ذلك شركة روكويل بذلك الترتيب بالضبط. من غير الواضح معرفة ما إن كانت شركة روكويل –أو شركة رايثيون أو بيتشكرافت، أو أى متعهد دفاع عسكرى آخر كان يعمل معه– على دراية بتلك الحقيقة.

قد افترض كيلى سميث فى الأساس أن الشاب أرنون ما هو إلا موظف حكومى بسيط تم تكليفه بتسهيل تواجد روكويل فى إسرائيل، وتساءل بسذاجة كيف يمكن لموظف مدنى شاب أن يقدر مادياً على قيادة سيارة أمريكية مكشوفة مستوردة، وكانت نادرة فى إسرائيل فى ذلك الوقت. لكنه لاحقاً أدرك إلى أى مدى

استهان بأرنون، وبدأ يستوعب العلاقة المعقدة بين أرنون ودولة إسرائيل، لكنه لم يفهمها بشكل كلى أبداً.

وبقدر ما كان الإنكار الظاهرى بالنسبة للمتعهد الأمريكى جزءاً من الصفقة، فإن ما فعله أرنون حقيقة بالمبلغ الذى تلقاه لم يكن من شأن شركة روكويل، فقد كانوا مهتمين فقط بالنتائج التى سيحققها، وعلى هذا الصعيد لم يكن ثمة سوى القليل من الشكوى.

ونظراً لجهلهم بأسلوب إسرائيل الفريد فى إدارة العمليات وبدور أرنون الاستثنائى فيها، كان كلما عرض متعهدو الدفاع الأمريكيون على وزارة الدفاع الإسرائيلية عملية بيع محتملة، تم توجيههم بشكل روتينى إلى الحديث مع أرنون، وتحير بعضهم فى سبب تفضيل الدولة للتعامل مع وسيط عن التعامل معها مباشرة. كانت تلك الصفقة بالنسبة لدولة فى حالة حرب مستمرة منذ قبل قيامها، تُخصص ٨٪ من إجمالى ناتجها المحلى، ونسبة متزايدة من صادراتها، وحوالى ١٦٪ من إجمالى ميزانيتها للنفقات المتعلقة بالدفاع العسكرى الضرورية لبقائها – هامة وكانت قابلة للازدياد بسرعة.

عندما بدا واضحاً أن شركة صناعات الطائرات الإسرائيلية تحتاج لأن توقع شركة روكويل على مشروع المراقبة الإيرانى وشركة (آى إيه آى) كمتعهدها الثانوى، تم استدعاء ميلتشان لتقديم بيان موجز فى لاكام لوضع استراتيجية لإقناعهم بذلك. وكان هذا أول اشتراك فعلى له فى مشروع دولى سرى لا يتضمن مبيعات إلى وزارة الدفاع الإسرائيلية بل تصديراً من إسرائيل إلى بلد ثالث. ومنذ البداية تم إبلاغ أرنون أنه إن سارت تلك الصفقة على ما يرام مع عميلته شركة روكويل، فسيكون هناك المزيد من الفرص الدولية بالنسبة له بالإضافة إلى إيران.

وكان مفهوماً أيضاً أن الصفقات التى سيبرمها أرنون والتى لا تتضمن إرسال شحنات إلى إسرائيل ستعنى أن تئول العمولات إليه وليس إلى الحسابات السرية الإسرائيلية. فعلى الرجل فى النهاية أن يتكسب قوته.

وبعد شرح أهمية المشروع، وجه بلومبيرغ ميلتشان لتقييم ريتشارد كيلى سميث، ومعاملته كشخصية هامة، وبأن يأكل ويشرب معه، ويتعرف على نقاط ضعفه، ويبحث عن نقائصه الشخصية. والأهم من ذلك، كُلِف بإلزام سميث بالمشروع الإيرانى.

وفى الحال بدأ ميلتشان فى تنظيم مجموعة من الاجتماعات لسميث مع شخصيات إسرائيلية بالغة الأهمية، ليس لأن مساهمة تلك الشخصيات الهامة سيكون هاماً تقنياً للمشروع، لكن كان المهم هو التوضيح الكافى لسميث، ثم لرؤسائه فى مقر روكويل فى لوس أنجلوس، مستوى العلاقات التى أشركها أرنون فى الصفقة. لكن كان هناك أيضاً دافع آخر، وهو أن يستوعب سميث أنه أهل للثقة بما يكفى للانضمام لدائرة النخبة الداخلية فى إسرائيل، تلك الميزة التى لم يكن يتمتع بها الوافدون العاديون إلى إسرائيل، وتقييم ردة فعله أيضاً.

عقب لقائهما الأول فى مطار بن جوريون، أوصل ميلتشان سميث بسيارته إلى فندق هيلتون تل أبيب على الشاطئ ليقدم له ملخصاً مبدئياً. كانت لأشعة الشمس الدافئة، والنسيم البارد العليل، ومياه البحر المتوسط الزرقاء، والصوت الرخيم للأمواج المتلاطمة وقع السحر، وكذلك منظر الشاطئ الرملى الطويل الممتد جنوباً حتى يافا، والتى شرح ميلتشان لسميث أن جده وصل إليها أول ما وصل فى القرن الماضى. وعلى مرمى البصر كان يرى بوضوح التل الذى قذف إليه الحوت النبى يونس عليه السلام فى القصة التوراتية الشهيرة التى تعلمها وهو طفل.

وكشأن الكثيرين من قبله، تعلق سميث بإسرائيل.

وبعد نوم ليلى هانئ، تجول ميلتشان مع سميث فى مكاتب الجنرالات والسياسيين المشهورين، وكان قد أطلعهم مسبقاً على الأمر، وشرح لهم أهمية العلاقة مع شركة روكويل عامة وأهمية المشروع مع إيران خاصة. وكان سميث قد أتى إلى إسرائيل ليناقش بحرص تخفيض درجة علانية شركة روكويل بسبب مخاوفهم من المقاطعة العربية.

وبدلاً من ذلك وجد نفسه فى دوامة من الاجتماعات وقُدمت فرصة ضخمة لشركة روكويل فى إيران. غيّر هذا من وتيرة الأحداث فى الحال. إذ استشعر سميث أن شخصاً ما قد أطلع الإسرائيليين مقدماً على الغرض من مهمته فى إسرائيل، وكانوا مستعدين تماماً لإبرام صفقة مضادة مع شركة روكويل سيصعب عليها رفضها.

فى تلك الليلة اصطحب ميلتشان سميث لتناول العشاء فى مطعم الحمراء جنوب تل أبيب. وكان المطعم من أوائل المطاعم الراقية فى إسرائيل وكان قطعاً من أغلى المطاعم فى البلد آنذاك، حيث كان يقدم الأصناف الفرنسية غير اليهودية، ويُعَد الوُجهة الأولى لنخبة إسرائيل. وكان لوزير الدفاع موشيه ديان مائدة دائمة خاصة به، وتصادف فى تلك الليلة أنه كان يستضيف ضيفين أجنبيين ترافقهما امرأتان رائعتا الجمال.

وكان ديان المتزوج زير نساء سيئ السمعة وكان نصف البلد يعرفون بذلك. وكان أيضاً من مشاهير العالم وظهر على غلافى مجلتى تايم ونيوزويك، ثم تعرف عليه فى الحال بفضل رقعة عينه الشهيرة. قدم ميلتشان ديان لسميث بشكل عفوى، وفى الحال فتن، وتفاجأ، وانبهر بدفء العلاقة بين ميلتشان وديان.

وعلى العشاء عبر سميث عن قلقه بخصوص قدرة شركة روكويل على استصدار تراخيص التصدير الأمريكية الضرورية لإيران لتلك التكنولوجيا الحساسة، إذ سيتطلب هذا موافقة عدة مستويات من الوكالات المتنافسة والكيانات المترفعة. وأكد له ميلتشان أن المسئولين فى سبيلهم للتوصل لحل لذلك. وتحير سميث بشأن ثقة ميلتشان.

وفى الواقع، كان الإسرائيليون قد وضعوا فى اعتبارهم كل العقبات وقاموا بالترتيب لحالة تفاوضية شعروا يقيناً بأنها ستغرى الحكومة الأمريكية بعرض لا يمكنها رفضه. بالطبع كان قد تم للموساد إطلاع جيمس جيزاس أنغلتون من الاستخبارات الأمريكية، والذى كان يتولى الملف الإسرائيلى، جزئياً على الأمر وأبدى موافقة مبدئية، لكن الاستخبارات الأمريكية سى آى إيه بقيادة رئيسها ريتشادر هيلمز كانت هى صاحبة الكلمة الأخيرة، وكانت هذه هى البداية فحسب. وأطلع ميلتشان سميث على الخطة، كما تم التنسيق لها مع فريق الشاه التفاوضى، كان موقف إيران هو أنها مهتمة فحسب بمواقع المراقبة بطول حدودها مع أفغانستان وباكستان والخليج العربى والعراق. ولم يأتوا بأى ذكر لحدودهم الشاسعة مع الاتحاد السوفييتى شمالاً.

عندما ترددت وزارة الدفاع الأمريكية ووزارة الخارجية مسبقاً بخصوص التصريح بتمرير تلك الصفقة الحساسة والتى تنطوى على تجسس إيران على حلفاء الولايات المتحدة مثل المملكة العربية السعودية، أضافت إيران عرضاً آخر مغرياً إلى الصفقة إذ عرضت موقعى مراقبة بطول حدودها مع الاتحاد السوفييتى، الأول فى بوشهر والثانى فى كابكان. بتكلفة إضافية بسيطة، تتكفل بها إيران.

بدأت الولايات المتحدة تميل إلى الفكرة لكنها كانت لا تزال مترددة.

ثم قدمت إيران دعوة للاستخبارت الأمريكية سى آى إيه وللبنتاجون للحصول مباشرة على كل المعلومات التى تم اعتراضها والاتصالات التى تم تجميعها من الجبهة السوفييتية بواسطة مواقع المراقبة الإيرانية. وكما هو متوقع كان لإسرائيل مصالحها المسبقة فى المعلومات الاستخباراتية التى تجمع من الدول العربية المجاورة.

وكانت الولايات المتحدة تواجه مشكلة فى تقبل فكرة حصول إيران على أحدث تقنياتها التشفيرية. بيّن ميلتشان أنه بدلاً من ذلك سيتم إشراك الشركة السويسرية التى قامت بتشفير نظام المصارف السويسرية السرى جميعه.

ودخل الأمريكيون إلى ذلك المجال.

كان للحكومة الأمريكية أن تحصل على استخبارات إلكترونية مجانية من الحدود الجنوبية السوفييتية،وحصل أحد المتعهدين الأمريكيين على صفقة بمليار دولار. وسمى الأمريكيون المشروع لاحقاً "دارك جين" بالنسبة للعناصر الجوية، و"آيبيكس" بالنسبة لمواقع المراقبة الإلكترونية. أيبيكس وهو اسم معزة جبلية نادرة توجد فى إيران، وكانت الحيوان البرى الذى يفضل الشاه اصطياده.

وطمأن ميلتشان سميث أنه بالنسبة للإيرانيين فإن الصفقة قد أبرمت بالفعل. وأخطره بأن ممثل روكويل فى إيران سيكون الجنرال محمد خاتمى، قائد القوات الجوية الإيرانية وزوج أخت الشاه. وعَيَّن خاتمي وسيط اتصال مباشراً ليعمل كواجهة له، يتخفى خاتمي وراءها. وكان الشاه يدعمه.

صدم الشاب ميلتشان سميث حيث فتنه بسحره، وبإلمامه بالموقف، وتقديمه المتطور، وحجم المشروع، والتبعات الجيوستراتيجية المحتملة، والجرأة المطلقة لتلك التجربة. أوجز له ميلتشان قصة ميراثه لشركة أسمدة فاشلة عن والده وتحويلها

لأحد مراكز القوة. ولم يفهم سميث أن وراء هذا الوجه الشاب كانت لاكام، وبنيامين بلومبيرغ، وياكوف نيمرودى، وأل شويمر، وفى النهاية الآلة الاستخباراتية للدولة الإسرائيلية. لكن ما أدركه هو أن ميلتشان ليس موظفاً مدنياً بسيطاً كما تكهن بداية. وفى النهاية ظن أنه بدأ يُلِم بالصورة العامة.

ومن ناحيته، استشعر ميلتشان أنه كان فى سبيله إلى النجاح فى ترك انطباع جيد لدى المهندس الأمريكى الأكبر منه سناً. وشعر أيضاً أن سميث شخص يمكنه تجنيده. ولاحظ فى سميث تذوقاً قوياً للحياة المرفهة، وميلاً إلى المال والنساء، بالرغم أنه كان متزوجاً وتدفع له شركة روكويل راتباً ضخماً. ولاحظ غروره المتضخم -إذ أصر الرجل على استخدام لقب دكتور كلما أتيحت له الفرصة- وشعوره بأنه ومواهبه لا ينالون التقدير الكافى.

كان سميث بالفعل مهندس إلكترونيات موهوباً عميق المعرفة فى مجال أنظمة السلاح، والمواد، والتكنولوجيات، وسبل الحصول عليها. كانت تلك مواهب يمكن لكل من ميلتشان ولاكام الاستفادة منها. وبدا سميث مهتماً بالتاريخ وكان يجيب بحماسة وتبجيل فى لقاءاته مع الشخصيات الهامة فى إسرائيل.

وعندما كان يُسأل بشكل عفوى ولطيف عن تفهمه للصراع العربى الإسرائيلى، كان ينحاز لإسرائيل دائماً. وربما كان بعض من هذا لإرضاء مضيفيه ويمكن ألا يحتسب، لكن ميلتشان استشعر مستوى قوياً من الأصالة فى تعبيراته الداعمة. وكما هو مخطط له، لم يكن سميث يعرف أنه يجرى تقييمه.

أوضح ميلتشان أنه فيما يخص الإسرائيليين والإيرانيين، كان المشروع قد تمت الموافقة عليه، طالما ستحصل شركة (أى إيه أى) على نسبة ٢٠٪ من المشروع كمتعهد ثانوى. وأكد لسميث أنه قادر على توجيه روكويل عبر النظام الإيرانى،

وسيعتمد ميلتشان على نمرودى ولاكام لتوجيهه، لكن لم يكن هذا ما يقلق سميث.

كان ميلتشان يعرف أن شركة روكويل تستطيع تولى تلك المهمة، لكن مصدر قلقه الأساسى كان كيفية تمرير المشروع عبر البيروقراطية الأمريكية للحصول على تراخيص التصدير اللازمة وموافقات الوكالات العديدة. كانت تلك هى العقبة الكبرى، وسعى لطمأنة سميث بأنه أهل لتلك المهمة. ولم يتردد سميث فى القبول، إذ كان يعلم أنه سيكون لديه قسم كامل يعاونونه.

ولاحقاً فى تلك الليلة أجرى سميث مكالمة هاتفية عاجلة من غرفته بالفندق إلى رئيس مجلس إدارة شركة روكويل ليبلغه بمستجدات الأحداث. وأُعطِىَ الضوء الأخضر لمواصلة المهمة.

شمل اليوم التالى إفطار عمل فى فندق هيلتون وبعض الجولات السياحية. وذكر سميث أنه مهتم بشراء ماسة لزوجته وكان قد سمع أن بورصة تل أبيب للماس هى المكان الأمثل لعقد الصفقات الجيدة. فاتصل ميلتشان بأحد معارفه وخلال لحظات دبر لاجتماع سرى بالبورصة حيث عرض على سميث صفقة بيع رائعة بسعر الجملة لماسة وزنها قيراط لزوجته. وبدت كل ساعة وكأنها تحمل فرصة جديدة ليبهر ميلتشان سميث بعلاقاته.

وعقب شراء الماسة توجه الرجلان لكنيسة القبر المقدس فى القدس، وكنيسة المهد فى بيت لحم، وجبل مسعدة المطل على البحر الميت. وحاضر ميلتشان سميث فى تاريخ تلك المواقع وأوضاعها السياسية بمعرفة واسعة وبحماس متقد. وأخذ انبهار سميث بهذا الشاب يزداد اللحظة تلو الأخرى. وتأثر خاصة بجبل مسعدة والموقف المأساوى والبطولى معاً الذى اتخذته طائفة الزيلوت اليهودية أو الغيورون فى لحظاتهم الأخيرة فى المعركة أمام الجنود الرومان المعتدين قبل أن ينتحروا

بشكل جماعى فى النهاية بدلاً من أن يستسلموا للعبودية.

وفى اليوم التالى اصطحب ميلتشان سميث إلى المطار ورافقه شخصياً عبر الأمن إلى قاعة كبار الزوار لينتظر طائرته. وترك الرجلان بعضهما بمصافحة قوية وبوعود بدوام الاتصال والعمل جنباً إلى جنب لإنجاح المشروع. وأدى ميلتشان مهمته، وغادر سميث إسرائيل فى ذلك اليوم محملاً بمشروع كبير محتمل، وبمزيد من الإعجاب لإسرائيل، وبما شعر أن صداقة قوية مع ممثلى شركة روكويل فى إسرائيل قد بدأت.

وما أن عاد لمقر شركة روكويل فى لوس أنجلوس وأطلع مجلس إدارة الشركة على المجريات، تم إعطاؤه موافقة مؤقتة. واجتمع الفريق التقنى وبدأت عملية تصميم المشروع المعقدة وتوجيهه ليمر عبر البيروقراطية الأمريكية الشرسة.

لكن كان هناك اجتماع روتينى أخر عقده سميث لدى عودته إلى لوس أنجلوس، وهو اجتماع يعقده أغلب متعهدى الدفاع العسكرى رفيعى المستوى لدى عودتهم من المشاريع الخارجية كشرط للحفاظ على تراخيصهم بالغة السرية، وهو اجتماع مع عميل من السى آى إيه يستجوب فيه مسئولى الدفاع العسكرى بخصوص مقابلاتهم مع المسئولين الأجانب أثناء رحلاتهم الخارجية، ليعرف ما يمكن معرفته عن النوايا والأساليب، وليقيّم محاولات التجنيد أو الاختراق.

كان متعهدو الدفاع العسكرى من أمثال سميث يعملون كمصادر مساعدة لإمداد عملاء السى آى إيه حول العالم بالمعلومات، وبالرغم من اتفاقاتهم على ألا يتجسسوا على بعضهم البعض، كانت إسرائيل بالقطع من الدول التى تركز عليها السى آى إيه. وكشف ريتشارد كيلى سميث بشكل تلقائى عن كل معارفه وأصدقائه فى إسرائيل أثناء الرحلة، وذكر ميلتشان بالاسم، ضمن آخرين، بينما كان العميل

يدون ملاحظات كما اعتاد أن يفعل فى اجتماعاتهما السابقة. ولم تكن تلك المرة الأولى التى يلاحظ فيها عميل لسى آى إيه اسم أرنون ميلتشان.

ومن إسرائيل، أخذ ميلتشان يتابع تقدم سميث بعناية ومن خلال المساعدة السرية للملحق العسكرى الإسرائيلى فى طهران ياكوف نمرودى، وتمكن من توجيه شركة روكويل عبر العالم الإيرانى الفاسد والمعقد لشراء الأسلحة. وحرص رجل نمرودى الخفى على التعرف على سمسار الجنرال خاتمى.

وقّع الإيرانيون خلال أشهر على عقد مطول ومعقد صاغه فريق روكويل القانونى. وعقب ذلك ببضعة أشهر سافر مدير أمن شركة روكويل شخصياً على طائرة سابرلاينر ومعه كومة من الأوراق طولها أكثر من ١٠ أقدام تمثل مشروع المليار دولار، وشملت كل تصميم وكل تفصيلة، حيث كان قد مر بمكتب البنتاجون لمراقبة الذخائر لتفحصه البنتاجون، ووكالة الأمن القومى (إن إس إيه)، والاستخبارات المركزية الأمريكية سى آى إيه، ووزارة الخارجية، حيث كان يجب أن ينال المشروع موافقتهم جميعهم قبل أن يتم البدء فى تنفيذه. وبعد ستة أشهر -أى فى وقت قياسى- فى الواقع، تمت الموافقة على المشروع، وفى مطلع عام ١٩٦٩، بدأ تنفيذ الإنشاءات. وكان ميلتشان فى الرابع والعشرين من عمره.

فى ١٩٦٨، كان موتى بلوك -اختصاصى الإنشاءات بالقوات الجوية الإسرائيلية والبحرية، ومتخصص فى الاتصالات وتجهيزات الرادارات- يصف فى مذكراته عودته ذات يوم عرقان ومتسخاً من شبه جزيرة سيناء بعد العمل فى مشروع ضخم. وعندما وصل لمنزله أخبرته زوجته أن شخصاً ما يحاول الاتصال به وأنه مطلوب لاجتماع عاجل فى تل أبيب.

ولأنه محترف مخضرم، ذهب فى الحال. "سنرسلك إلى إيران بعد ثلاثة أيام"

كان هذا ما أُخطر به. لم يكن بلوك سعيداً بذلك وحاول أن يعرف من وراء هذه المهمة المفاجئة، "إن أخبرناك أن بنيامين هو الذى وراءها، أسيكفيك هذا؟" وُجه إليه هذا السؤال بدون أى انتظار لإجابة منه.

"بلومبيرغ كان اسماً مقدساً" هكذا يقول بلوك "لم أقابله يوماً لكن كل المطلعين يعرفون أن له الكلمة الأخيرة فيما يتعلق بالأمن القومى". هكذا عرف بلوك أنه سيسافر إلى إيران ليس لأسباب تجارية فقط، لكن لغرض يخص الأمن القومى. "طلبوا منا أن نفتح أعيننا ونرسل التقارير".

قبل مغادرته، أُطلع على حقيقة أنه سيعمل لدى شركة اسمها ساريك إيران. وخلال ثلاثة أيام من عودته من سيناء، وصل موتى إلى طهران. وانضم لفريق يشمل خمسة عشر إسرائيلياً وأمريكيين من شركة روكويل، وعينوا حوالى ٧٥٠ إيرانياً لأجل هذه المهمة، أو ١٥٠ عاملاً إيرانياً لكل مشرف إسرائيلى

تم إنشاء مبانى الاتصالات فى ١٤ موقعاً مختلفاً، وشمل كل موقع قبتين للرادار، و٤ هوائيات، وبرجاً للاتصالات ذا أطباق استقبال ضخمة كانت تستخدم فى اتصالات العمليات وكانت تسمى الوحوش. وكانت المواقع ممتدة من الحدود الجنوبية مع باكستان، إلى بندر عباس عند مدخل الخليج العربى، إلى الشمال الغربى تجاه بيشاور، مروراً بمركز البلد، ثم إلى شيراز، ثم إسبان، ثم طهران. وفى تلك الأيام كان الضباط ورجال الأعمال الإسرائيليون والإيرانيون يعبرون الحدود بشكل منتظم، ويتبادلون المعرفة، ويستثمرون فى مشاريع مشتركة. كان الأمريكيون يجلبون المعدات، وكان الإسرائيليون يقدمون الخبرة، وكان الإيرانيون يقدمون الأموال. كانت هناك شركات إسرائيلية قائمة هناك، وكان الإسرائيليون هم المهيمنين فى البلد.

وكـان مـوتى بلوك يطلع لاكـام على مـلاحظاته فى إيران، وكـان من أول من حـذروا بشدة من تزايد قوة الإسـلاميـين المتطرفين فى البلد، وتنبـأ بثـورة قريبـة. وخدمت تلك المعلومات ميلتشان بشكل جيد.

واستمتع ميلتشان بنشاطاته فى إيران، وقضى عدة سهرات فى الملاهى الليلية فى جادة باهلانو الراقية فى طهران. وكان دوره فى مشروع المراقبة الإلكترونى الإيرانى، أبيكس، يعد طفرة بالنسبة له، وامتدت عواقبه لمدى بعيد. وكسب ود الشاه نفسه فى القصر الملكى، وأبرم العديد من العقود الزراعية والعسكرية الإضافية فى حقبة السبعينيات بأسلوبه الساحر. وأسس العديد من الشركات فى إيران لخدمة تلك العقود، ومنها إنشاء قاعدة جوية كبيرة جديدة، والتى زَعَم لاحقاً أنه مجرد عقد لإزالة الأعشاب حول المهبط الجوى. وأصبحت شركته "فارم ميديسين" أكبر شركة كيماويات زراعية فى إيران.

ولم يتم تجاهل شركة رايثيون والتى كانت عميلة ميلتشان، إذ باعت رايثيون صواريخ هوك أرض/ جو مطورة متوسطة المدى لإيران فى السبعينيات، وتم تركيب أنظمة إلكترونية متطورة بالغة السرية فى طائرة الشاه الشخصية من قبل إى سيستيمز وهى شركة فرعية سرية تابعة لرايثيون. وطلب الجنرال خاتمى العديد من صواريخ سايدويندر وفينيكس وسبارو ومافريك من أجل القوات الجوية الإيرانية. ومن تلك الصفقات، ومن كل الصفقات خارج إسرائيل، كان ميلتشان يأخذ عمولته.

وبحلول سنة ١٩٧٣ كانت مرحلة الإنشاء فى مشروع أيبيكس قد شارفت على الانتهاء وتم استبعاد المشاركة الإسرائيلية. وبانتقال الإسرائيليين وميلتشان إلى مشاريع أخرى فى إيران، تطور كل من مشروع "آيبيكس" و"دارك جين" وتوسعا طوال السبعينيات ليصبحا عملية أمريكية مستمرة بالغة السرية على الحدود

الجنوبية للاتحاد السوفييتى.

واستـثـمـرت شـركـة روكـويل فى العـديد من المشـاريع التـحـديثـيـة. وفى ٢٨ أغسطس عام ١٩٧٦تم اغتيال ثلاثة موظفين لروكويل يعملون فى مشروع آيبيكس فى طهران بواسطة من اشتبه فى أنهم عملاء سوفييت أو متطرفون إسلاميون، ولم تكتشف ملابسات تلك الواقعة بشكل حاسم قط. وأصبحت روكويل نفسها غارقة فى فضائح الرشاوى المتعلقة بآيبيكس، والتى نشر تفاصيلها الصحفى بوب وودوارد على الصـفحة الأولى لجريدة واشنطن بوست فى ٢ يناير عام ١٩٧٧ . وكـانت تلك المرة الأولى التى يسمع فيها العالم عن آيبيكس، لكن آنذاك كان ميلتشان قد تملص منها منذ فترة طويلة، إذ كان لديه مشاريع أخرى فى إيران وفى مناطق أخرى حول العالم.

وفى عـام ١٩٧٥ توفى زوج أخت الشـاه وأقرب مـخلصـيه الجنرال مـحـمـد خاتمى، والذى لعب دور الممثل الفعلى لشركة روكويل فى إيران. مات فى حادثة قفز بالمظلات غامضة تزامناً مع بدء القلاقل فى البلاد بأسلوب منتظم. وكانت الجماعة المتطرفة تودا هى المشتبه به المعتاد. وكنتيجة للثورة الإيرانية عام ١٩٧٩، تم تفعيل خاصية التدمير الذاتى لمواقع التنصت لتجنب وقوعها فى أياد معادية.

كان ياكوف نمرودى من الأشخاص الذين ساهم نجاح ميلتشان فى إيران، إذ كان قد أصابه الملل من مشاهدة نخبة إسرائيل، وبخاصة شاب فى عمر أرنون، يزدادون ثراء فى إيران نتيجة صلاتهم، تلك الصلات التى كان نمرودى نفسه قد عمل على تنميتها على مدار أعوام عديدة. وبحلول عام ١٩٧٠ استقال نمرودى من منصبه كملحق عسكرى إسرائيلى فى طهران وبدأ مشروعه الشخصى الناجح لتجارة السلاح، والذى جنى منه الملايين فى النهاية بعقده صفقات فى إيران

ومناطق أخرى. تورط نمرودى لاحقاً مع أل شويمر فى فضيحة إيران كونترا، بينما نأى ميلتشان بنفسه عنها، بالرغم من أنها كانت تنطوى على بيع صواريخ هوك من شركة رايثيون عن طريق إسرائيل.

فى عام ١٩٧٨، أدرك ميلتشان أن الشاه كان على وشك أن يطاح به، وأنها مجرد مسألة وقت قبل انهيار نظامه. وتحرك سريعاً لبيع شركة فارم ميديسين، والتى كانت قد أصبحت أكبر مجموعة شركات زراعية فى إيران، ومعها كل مشاريعه الأخرى فى إيران بأرباح كبيرة. وعقب ذلك بعام، استولى آية الله الخمينى والمتطرفون الإسلاميون على البلد كلياً. وتجنب ميلتشان طلقة النهاية باتباعه لحدسه وغادر المشهد قبل فوات الأوان.

ومع بداية السبعينيات، كانت شركة ميلتشان إخوان قد افتتحت أفرعاً فى بلاد عدة، ومنها عدد من الدول التى لم تكن بينها وبين إسرائيل علاقات دبلوماسية، وفى بعض الحالات بلاد كانت فى حالة حرب مع إسرائيل. وعبر الشركات الفرعية فى اليونان وقبرص، افتُتح لها أفرع فى مصر والسودان وإثيوبيا والأردن وتركيا، ضمن بلاد أخرى. وكانت تلك الشركات غالباً ما تُستخدم كواجهات لوفاء المتطلبات المتعددة لدولة إسرائيل. وفى قمة تلك الأنشطة، كان ميلتشان يتحكم فى أكثر من ٣٠ شركة فى ١٧ دولة، وقال فى هذا الصدد "أعطيت إسرائيل تفويضاً مطلقاً لاستغلال شركاتى للمساعدة فى الدفاع عن بلدى وبقائه".

لكن إيران كانت أول مكان انهمرت عليه فيه المكاسب المالية المفاجئة على مستوى دولى، وربما كان المكسب الأهم من مشروع المراقبة الإيرانى هو علاقة ميلتشان التى تطورت مع ريتشارد كيلى سميث فى روكويل. عمل الاثنان جنباً إلى جنب طوال تطوير مشروع آيبيكس، فى إيران وإسرائيل، ونشأ بينهما مستوى من

الثقة، وأتيحت لميلتشان عدة فرص لنثر بذور المرحلة المقبلة. وفى أواخر عام ١٩٧٢ جلس ميلتشان وسميث معاً مجدداً على العشاء، وهذه المرة فى مطعم كاسباه فى شمال تل أبيب أثناء إحدى زيارات سميث الروتينية كجزء من مسئولياته فى تطوير منظومة العمل.

وشعر ميلتشان بالارتياح بما يكفى للإدلاء بتلميحات عن نواياه، حيث اقترح أن تلك اللحظة ربما تكون المواتية لسميث ليجنى مبالغ كبيرة فى مشروعه التجارى الخاص. وكان يعرف سميث بقدر مكنه من أن يدرك أنه يشعر أن روكويل تبخسه قدره وراتبه. كان يعرف أن سميث لم يكن من محبى ثقافة المؤسسات حيث يدير الآخرون وقته وينسقونه، وأنه كان مسئولاً أمام أشخاص يراهم يعملون أقل منه لكنهم يتقاضون رواتب أكبر منه.

لكنها كانت مخاطرة بالنسبة لسميث الذى كانت أشياء مثل التأمين الصحى، ومعاش التقاعد، وأمان الوظيفة تثقل تفكيره. وفكر ملياً فى الطريق الطويل الذى قطعه من أوكلاهوما الريفية حتى وصل إلى مركزه الحالى فى أعلى مستويات مجاله. سنوات من التعليم المكلف، وعائلته، وأبناؤه، وأقساط الرهن. كان غارقاً فى الالتزامات.

واستشعر ميلتشان درجة من التردد من سميث. وأوضح أن الفكرة هى العمل بشكل قانونى ومعلن، وأنه يستطيع تزويده بكل الطلبات التى يمكنه توليها من قائمة طويلة من الأغراض المطلوبة لمشاريع عدة. وتحمس سميث لفكرة انخراطه فى بعض أكثر برامج إسرائيل سرية، لكن فكرة استقلاله بذاته، ووضع جدوله الخاص، وتحسين مستوى معيشته كانت أقوى المغريات. وعرف ميلتشان مواطن ضعفه، وبالطبع كان الطمع أبرزها.

كان العرض مغرياً، فألقى ميلتشان بنوره، ومضى سميث يتصور بالفعل كيف سيخبر زوجته إيميلى بأنها يمكنها أن تستقيل من عملها كمعلمة. وامتلأ عقله بصور لمنازل مواجهة للبحر وعضويات نوادى اليخوت.

٨

الرجل الذى عرف أقل مما يجب

كان أرنون ميلتشان هو تشاك نوريس وكالة لاكام.

عمنون أبراموفيتش، صحيفة غلوبس الإسرائيلية، ٢٤ أبريل ٢٠٠٨

اقترح ريتشارد كيلي سميث متحمساً أن تسمي الشركة ميلكو، مما رسم ابتسامة عصبية على وجه ميلتشان.

٨

افترض سميث أن الاسم سيعجبه، لكنه كان مقلقاً بالنسبة لميلتشان واعترض بلطف. وكان يفضل اسماً أكثر عمومية، لكنه لم يرد أن يبدو قليل الاحترام، ولم يُرِد أيضاً أن يظن سميث أنه ينأى بنفسه عن التسمية لأى سبب كان. وشرح سميث أن الاسم هو مختصر لتعبير شركة المنتجات العسكرية، ولا علاقة له باسم «ميلتشان» فالتزم به. ولاحقاً، عندما سمع بلومبيرغ بالاسم، وبخ ميلتشان، لكن الأوان كان قد فات.

وبالرغم من حماسته، ظل سميث يماطل لأسابيع قبل أن يُرد على عرض ميلتشان المغرى. فبعد كل شيء، فقد وصل لمنصبه في شركة روكويل بعد أعوام من الكفاح الشخصى، ونال درجة المدير العام فى أهم شركات معدات الفضاء الجوى فى أمريكا، واكتسب خبرة تجاوزت بكثير تدريبه الشخصى كمهندس، وتعامل مع عقود بمئات الملايين من الدولارات، ومبالغ لم يكن ليحلم قط بالحصول عليها

كموظف أو حتى كمدير عام. وعرف مَنْ هم الذين يجنون المبالغ الطائلة، وعرف أنه ليس واحداً منهم، ومن المحتمل ألا يكون أبداً.

وبدأ يعجب بميلتشان بشدة من نواح عدة، وكان يغار منه ويجله في ذات الوقت. إذ كان ميلتشان مثالاً للحياة المرفهة، وكأنه يسبح فى بحور المال والشباب، وتحدوه قدرة لامتناهية فى الحصول على مراده أيما كان، كما كان مستقلاً وواثقاً من نفسه، وغير محدود بقيود الحياة، اجتماعية كانت أو اقتصادية. ومع كل يوم يمر، أصبح سميث أكثر انجذاباً للفرصة التى وضعها ميلتشان تدريجياً عند قدميه. فى قرارة عقله، كان يرى أن ميلتشان يعرف كيف يجنى المال، وأنه من النوعية التى يجب عليه ملازمتها والاحتذاء بها إن أراد أن يتحرر من أغلال الوظيفة ليحيا الحياة التى شعر أنه يستحقها.

وعندما وافق سميث على عرض ميلتشان لم يكن لديه فكرة عن طبيعة عمل شركة ميلكو، وعن طبيعة الاتفاق الذى سيبرم بينهما. وتردد، هو وزوجته إيميلى. لكنه فوجئ عندما فتح الموضوع مع رؤسائه فى روكويل، أنهم سروا به، إذ كان يمثل حلاً للضغط المستمر من السعوديين لقطع العلاقات مع إسرائيل.

وبدلاً من الطلب من روكويل مباشرة، كان بالإمكان تمرير التجارة مع إسرائيل عبر شركة ميلكو، ويمكن لشركة روكويل حينها أن تدعى أنها تتعامل قليلاً مع إسرائيل أو لا تتعامل مطلقاً معها، كما يمكن لميلتشان أن يمرر طلباته لروكويل عبر ريتشارد كيلى سميث، والذى بدوره سيبعث بالطلبيات إلى إسرائيل مباشرة، أو إذا لزم الأمر عبر شركة ثالثة يتحكم فيها ميلتشان.

ووفقاً لسميث، فقد عرضت عليه شركة روكويل منصباً بمجلس الإدارة للحفاظ على تصريحه الأمنى بالغ السرية، حتى يظل على اطلاع على أحدث التطورات السرية فى تكنولوجيا الفضاء الجوى. وقدم ميلتشان العديد من الوعود، وفقاً لسميث، وقال إنه سيمرر كل طلباته من روكويل ومن أية شركة أمريكية أخرى عبر ميلكو.

وأدرك سميث أيضاً أنه إن عمل مستقلاً عن روكويل، فسيتمكن من فعل أشياء أخرى. كان قد حصل بالفعل على العديد من العمولات من الناتو وناسا، والذين كانوا يتعاملون فى الأغلب فى أنظمة توجيه الصواريخ والتحكم فيها. وكان عضواً بالمجلس الاستشارى العلمى فى البنتاجون، وكان يحظى برتبة مدنية بروتوكولية بدرجة جنرال بثلاث نجوم. وكان يمكنه طلب طائرة نقل من القوات الجوية الأمريكية لتقله إلى أى مكان يريده. وكان مقتنعاً بأنه سيتمكن من إبرام بضعة عقود استشارية من تلك المؤسسات. وبطبيعة الحال كان ميلتشان يشجع خط التفكير ذلك.

كان ميلتشان يعرف أن استصدار الترخيص سيكون أكبر عقبة سيواجهها سميث وكان هذا من أهم الأسباب التى جعلته مهتماً بسميث فى المقام الأول، إذ إن قدرته المحققة على تحريك المياه الراكدة فى النظام الضخم للبيروقراطية الأمريكية قد ظهرت عن حق طوال مشروع آبيبكس. وعلى عكس الأمور فى إسرائيل، حيث كان ميلتشان يستطيع أن يتجنب العديد من الإجرءات البيروقراطية بمكالمة هاتفية واحدة لبلومبيرغ، كانت البيروقراطية فى الولايات المتحدة أكثر شراسة. كانت مكونات الصواريخ عالية الحساسية، والأنظمة الإلكترونية المعقدة، وأنظمة التوجيه تحتاج كلها، من الناحية النظرية، إلى تراخيص تصدير ذخائر، بالرغم من أن كل الجهود كانت تبذل لتفادى أى معوقات.

وكانت العديد من القطع تنال موافقات التصدير الاعتيادية من وزارة التجارة الأمريكية، وفى بعض الأحيان كانت لا تحتاج لذلك حتى. وكان ميلتشان يعرف أن معظم القطع مزدوجة الاستخدامات، والتى تُشترى وتشحن بشكل منفصل، لن تعتبر قطعاً ذات تطبيقات عسكرية. فى أغلب الحالات كانت الرخص الخاصة ضرورية إن كانت للقطعة غرض عسكرى حصرى.

وبمرور السنين شددت الولايات المتحدة الإحكام على سوق القطع مزدوجة الاستخدامات، لكن فى مطلع السبعينيات كانت تلك لا تزال فى ظلال المنطقة الضبابية، والتى تتخللها فجوات واسعة يمكن لشخص مثل ميلتشان أن يقود شاحنات ضخمة متخطياً إياها. ووفقاً لسميث فقد ناقش الاثنان البنية التنظيمية للشركة، حيث سيتملك سميث شركة ميلكو كلية، وسيكون مديرها ورئيس مجلس إدارتها، ولن يكون لميلتشان أية حصة فى الشركة. لكن بما أن ميلتشان سيجلب لميلكو كل طلباتها تقريباً، طالب بأن يتم تقسيم الأرباح بنسبة ٦٠٪ له و٤٠٪ لسميث. وبالرغم من الاتفاق لم يكن سميث يعرف أن نسبة الـ٦٠٪ من الأرباح التى

سيجنيها ميلتشان ستئول فى الواقع إلى حسابات إسرائيل السرية والتى كانت تحت سيطرة ميلتشان. وسريعاً أقنع سميث نفسه أن التوزيع غير العادل للأرباح كان مقبولاً لكن التكاليف كانت شأناً آخر، ووافق ميلتشان على أن يخصم سميث كل نفقاته من أرباح الشركة فى حدود المعقول.

وكان التمويل المبدئى للمشروع هو العقبة الأخيرة. وبما أن سميث لم يكن يملك هذا القدر من المال، وافق ميلتشان على تحمل تمويل الطلبية الأولى للمشروع. وشعر سميث بالرضا حيال ذلك. وكانت تلك فرصته للتحرر من أغلال المؤسسات الأمريكية، ومن تقارير سير العمل، وتقييم الأداء، والجداول الصارمة، وسجلات الدوام.

أصبح رجلاً مستقلاً، والأهم من ذلك، كانت تلك فرصته لجنى الأموال الطائلة.

وفى الواقع أملى ميلتشان بدهاء بنود تكوين شركة ميلكو وطريقة تشغيلها. وأقام شركة لا تحمل بصماته وجند عميلاً مرموقاً واسع المعرفة، يعتمد كلية على استعداد إسرائيل -عبر ميلتشان- لتسليم الطلبات. ومقابل اعتماده عليهم، وفى مقابل فرصة العمل لصالح ميلتشان والذى هو امتداد للاستخبارات الإسرائيلية، أعفى ريتشارد كيلى سميث من نفقات شركته وخَصّه بنسبة ٤٠٪ من الأرباح.

وكانت طريقة التشغيل المتفق عليها بسيطة ومباشرة: ترسل مديرة مكتب ميلتشان ديبورا بن إسحاق، والتى تعمل مباشرة مع بنامين بلومبيرغ، تلغرافاً مشفراً إلى سميث بقائمة الأغراض الحساسة التى ترغب أية شركة من شركات ميلتشان فى الحصول عليها. ويتوارى ميلتشان نفسه فى الظلال الخلفية ويتصل بها عندما يلزم الأمر فقط.

وفى أواخر ديسمبر ١٩٧٢، غادر سميث شركة نورث أمريكان روكويل. وكان

البعض فى روكويل يعرفون أن سميث قد افتتح بالفعل شركة ميلكو، والتى أدارها من منزله فى مـــدينة هاوس أوف أورانج فى جنوب لوس أنجلوس. وكـــان يدير المشروع فى ساعات غير ساعات العمل بالولايات المتحدة، مراعاة لفروق التوقيت فى إسرائيل.

وفى ١٩ يناير ١٩٧٣، افتتح سميث والذى كان قد بلغ أربعة وأربعين عاماً شركة ميلكو إنترناشونال، وسجل الشركة فى أورانج كاونتى، كاليفورنيا. وكانت ديبورا تبعث له بقوائم طويلة من القطع ليشتريها. فى المرحلة الأولى، كانت كل القطع التى يتم طلبها من أجل نظام جيريكو ٢ للصواريخ البلاستيكية النووية، وكمهندس متخصص فى أنظمة توجيه الصواريخ، كان سميث يستنتج بسرعة بالغة الغرض من كل قطعة، ومن أين يمكن الحصول عليها.

حاول لأقصى مدى ممكن، الالتزام بقوانين التصدير الأمريكية واستصدار تراخيص تصدير الذخائر عندما يلزم الأمر. وكانت العديد من القطع مزدوجة الاستخدامات لا تتطلب رخصة على الإطلاق. وكان المستخدم الأخير لمعظم الشحنات هو شركة رحوفوت إنسترومينتس ليميتد، وهى شركة ذات علاقة وثيقة بوزارة الدفاع، ومقرها كان قريباً من معهد وايزمان للعلوم فى مسقط رأس أرنون فى رحوفوت. وكان من يدير شركة رحوفوت إنسترومينتس ليميتد كيميائى عبقرى اسمه جوزيف يافى، والذى كان قد ترك معهد وايزمان ليؤسس الشركة.

وفى حالة طلب قطعة تعتبر حساسة للغاية لحد يجعلها لا يجوز ذكرها فى التلغراف، كانت ترسل بشفرة محددة مسبقاً، أو يسلمها مبعوث خاص إلى سميث. وكان سميث يتحصل على القطع، ويضع عليها العلامات وفقاً لتعليمات ديبورا، ويدفع مقدماً بالأموال التى ترسلها شركات ميلتشان. وبعدها كان سميث يشحن

تلك القطع إلى إسرائيل.

ووفقاً لجريدة واشنطن بوست، أحياناً، كانت القطع ترسل إلى شركة أخرى في هيوستون، تكساس، ثم يتم شحنها إلى إسرائيل. وأحياناً كانت تشحن عبر بلد ثالث أو بواسطة الحقائب الدبلوماسية الإسرائيلية. وكان سميث يرسل إلى شركات ميلتشان الكميات المتفق عليها وكانوا يحولون ثمنها إلى حساب ميلكو المصرفي في الولايات المتحدة. وكان نسبة الـ٦٠٪ الخاصة بميلتشان تحول إلى إحدى حساباته المصرفية السرية. وعمل النظام بسلاسة وفاعلية.

وعندما بدأت شركة ميلكو إنترناشونال ليتد تعمل بكامل طاقتها في الولايات المتحدة، كان ميلتشان على دراية تامة بقائمة طويلة من برامج إسرائيل بالغة السرية، مثل مصنع القنبلة الذرية في ديمونة، مساعي صناعة القنبلة النيتروجينية، وبرنامج تصغير القنابل، ومؤسسة أبحاث المياه الثقيلة، وإنتاج صواريخ جيريكو ٢ البلاستيكية في بئر الطابية، وصوامع صواريخ زكريا، والأسطول النووي في تل نوف، وأبحاث الأسلحة الكيماوية والبيولوجية في المعهد الإسرائيلي للأبحاث البيولوجية في نس زيونا. واطلع ميلتشان بتوسع على العناصر الناقصة في تلك البرامج، والتي كانت تحتاجها إسرائيل بشدة لكي تمضي قدماً، وكانت تعتمد عليه لتحقيق ذلك.

وفقاً للمعلومات التي كشفت للعلن من قبل التقني النووي الإسرائيلي السابق موردخاي فانونو، أنه كان من أهم أولويات إسرائيل آنذاك تصنيع قنابل نووية تحتوي على ٤ كيلو جرام من البلوتونيوم، والتي تعادل من ١٢٠ إلى ١٦٠ كيلو طن من المسحوق الانفجاري، أو ما يعادل ١٠ أضعاف القنبلة التي ألقيت على هيروشيما وناجاساكي من قبل الولايات المتحدة في نهاية الحرب العالمية الثانية.

أن الترسانة النووية الإسرائيلية تطورت بشكل كبير منذ صناعة القنبلتين البدائيتين فى عشية حرب الأيام الستة فى عام ١٩٦٧، كانت الترسانة الاستراتيجية لا تزال تُعتبر غير كافية، ولا توفى من نواح عدة المجال المعقد لاحتياجات إسرائيل من أسلحة الردع.

وفقاً لحسابات كل من بيريز وبلومبيرغ وديان كانت إسرائيل تحتاج إلى حوالى ٥٠ قنبلة لإنشاء سلاح ردع قوى طويل المدى بمساحة الإقليم، لكن حتى هذا لم يكن كافياً لأهدافهم الاستراتيجية الأبعد من ذلك.

كان الإسرائيليون فى حاجة لأن يعرف السوفييت أن موسكو نفسها ليست حصينة. وبلا شك، فقد كان السوفييت لديهم القدرة على تفجير إسرائيل ألف مرة الواحدة تلو الأخرى، لكن طالما فهموا أن تلك الخطوة قد تنطوى على ثمن لا يمكن تخيله، حينها ستكون إسرائيل قد حققت هدفها الاستراتيجى الأهم. ولم يكن هذا يعنى قنابل ضخمة فحسب بل والقدرة على إطلاقها لمسافات أكبر.

لكن تلك كانت البداية فحسب. وشعرت إسرائيل أنها بحاجة لأسلحة نووية أصغر للاستخدام فى ميادين المعارك، حجمها يعادل ٥٪ إلى ١٠٪ من قنبلة هيروشيما، ويمكن إطلاقها من مدافع مداها حوالى ٧٠ كليومتر، أو ما يعادل ٤٣ ميلاً. وكانت تحتاج لصواريخ نووية مصغرة فى حجم حقيبة اليد كأسلحة ردع لهؤلاء الذين يظنون أنهم خارج مداها. ونظراً للمسافة الصغيرة التى تفصل بين إسرائيل وأعدائها، فقد كانت فى حاجة إلى القنبلة النيوترونية، وهى أسلحة نووية حرارية تحدث حرارة وانفجارات صغيرة وتطلق كميات كبيرة من الإشعاع القاتل، ولا يتجاوز مداها منطقة مساحتها بضع مئات من الياردات فقط. وبسبب قدرتها التدميرية قصيرة المدى وعدم وجود عواقب طويلة المدى، تعتبر قنبلة النيوترون

شديدة الفاعلية ضد الدبابات وتشكيلات المشاة فى أرض المعركة لكنها لا تعرض المدن للخطر ولا التجمعات السكانية على بعد أميال قليلة.

جعلت المسافات القصيرة لمسرح العمليات الإسرائيلى، وتقارب المسافات بين سكانها للقنبلة النيوترونية أولوية هامة. وبهذا حددت لاكام العمل الذى يلائمها.

أثناء اجتماعات عدة مع بلومبيرغ وبيريز، عرف ميلتشان خيار شمشون وفهمه، أى مبدأ الأسلحة النووية الإسرائيلية. بالنسبة للرأى العام، لن تكون إسرائيل الدولة الأولى التى تعلن أنها تُنتج الأسلحة النووية فى الشرق الأوسط ولن تؤكد وجودها أو تنفيه.

أما ما لم يتم إقراره علناً، على الرغم من الافتراض العام بصحته، هو أن إسرائيل تمتلك سادس أو ربما خامس أكبر كتلة أسلحة نووية فى العالم وأنها لن تستخدمها إلا إذا واجهت خطر الإبادة الفيزيقية ولم يتبق أمامها ما تخسره. ويشير مصطلح "خيار شمشون" بشكل رمزى إلى قصة شمشون التوراتية، وهو السجين اليهودى الذى هدم المعبد على رأسه ورءوس معذبيه.

ومع تصاعد أنشطة ميلتشان السرية وتوسع عمله من أجل إنجاز السر الكبير، شعر كل من بيريز وبلومبيرغ أن الوقت قد حان لضمه لعضوية ناديهم، وأن يتم اصطحابه فى جولة طوال اليوم فى مفاعل ديمونة والتى لم يقم بها إلا الأعضاء أهل الثقة والمطلعون من القيادة الإسرائيلية. وكان مرشدهم فى تلك الجولة هو رئيس عمليات مجمع المفاعل آنذاك يوسف توبيمان.

كان أول ما انبهر به أرنون بمجرد وصوله إلى البوابة بعد رحلة طويلة بالسيارة، هو الأجواء السلمية، وكأن المكان واحة فى وسط الصحراء! وكانت المساحة الخضراء معتنى بها جيداً وكانت صفوف أشجار النخيل الصديقة للبيئة

تتمايل برفق مع النسيم العابر.

وفى وقت زيارته الأولى، كان المجمع أصغر بكثير مما هو عليه الآن، ويحوى ستة منشآت فحسب، مقارنة بالعشرة منشآت الحالية.

وتم اصطحاب أرنون بشكل تلقائى عبر الأقسام المختلفة. وسرعان ما عرف أن المفاعل قدرته تبلغ ١٥٠ ميجاوات ويعمل به حوالى ٢٧٠٠ شخص فى مهام منفصلة بالغة الخصوصية. كان، ومعه نصف البلد يفترضون بالفعل أن الغرض الرئيسى من تلك المؤسسة هو إنتاج البلوتونيوم، وهو منتج ثانوى لليورانيوم بغرض تصنيع ترسانة للأسلحة النووية. وعلم أرنون أن إسرائيل لا تحتاج فى المتوسط سوى ٤ كيلو جرام من البلوتونيوم لإنتاج قنبلة واحدة من النوع الذى كان يركز عليه البلد وقتئذ.

ماكون ١: كانت البنية المهيمنة على المجمع بقبة عزل يصل ارتفاعها إلى ٦٥ قدماً وكانت مرئية بوضوح من الطريق الرئيسى الذى يصل بئر سبع بوادى عربة. كانت ولا تزال، الرمز المرئى الشهير للبرنامج النووى الإسرائيلى، وهناك بدأت جولة أرنون، وعلم أن أكسيد اليورانيوم المخصب بنسبة ٣ أو ٤٪ يتم تصنيعه فى هيئة كرات صغيرة، ثم يتم إدخاله فى قضبان الوقود.

وكانت تلك القضبان مولدات للنيوترونات، متراصة بالقرب من بعضها البعض، تتفاعل تفاعلاً متسلسلاً ذاتياً لإنتاج الطاقة وعناصر جديدة عن طريق انشطار اليورانيوم لإنتاج البلوتونيوم.

وكان هذا البلوتونيوم يتم تجميعه لإنتاج القنابل، لكنها كانت عملية بطيئة وشاقة. وسرعان ما استوعب عقل أرنون النابه العملية بدون حاجة لمزيد من الشرح. ومنها تم اصطحابه إلى ماكون ٣، متجاهلين ماكون ٢، والذى كان له أن

يعود إليه فى نهاية الجولة.

وكان ماكون ٣ يُستخدم فى الأغلب لمعالجة اليورانيوم الطبيعى من أجل المفاعل ولتحويل ليثيوم ٦ إلى مادة صلبة، لاستخدامه فى رءوس الصواريخ النووية الحرارية، كما شرح له مرشده بشكل تلقائى. ثم انتقلوا سريعاً إلى جناح ماكون ٤، والمخصص لمعالجة بقايا المنتجات النشطة إشعاعياً، وكان يشمل مصنعاً لمعالجة البقايا ووحدة تخزين للبقايا النشطة. أما عن البقايا غير النشطة فكانت تمزج بالقار، ثم تُعبّأ وتدفن فى موقع سرى، يفترض أنه خارج البلد.

وكان ماكون ٥ يتعامل مع اليورانيوم الناتج من ماكون ٣، الذى كان يصنع على هيئة قضبان تبطن بالألومونيوم قبل أن ترسل إلى المفاعل فى ماكون ١ . ومنها كان يذهب إلى ماكون ٦، والذى كان يستخدم فى الأساس كمنشأة للصيانة تخدم المجمع كله. وشعر أرنون بالتميز إذ تم السماح له بالدخول إلى عالم يمكن أن ترتكب جرائم قتل فى سبيل الاطلاع عليه لأقوى وكالات الاستخبارات العالمية. وصلت الجولة لذروتها عندما وصلوا إلى بناية مستطيلة بسيطة من طابقين وبلا نوافذ تعرف بماكون ٢، أثمن ما فى مجمع ديمونة. ومن الموظفين الكثر الذين يعملون بمفاعل ديمونة، لم يكن يسمح سوى لحوالى ١٥٠ موظف فقط بالدخول إلى ماكون ٢، وأسفل البناية ذات الطابقين بريئة المظهر كانت تقبع ٦ أدوار شاسعة، على عمق سحيق تحت الأرض، لا تراها الأقمار الاصطناعية ولا الضيوف غير المدعوين. وكان ذلك هو قدس الأقداس، حيث أسست إسرائيل منشأة ضخمة لفصل البلوتونيوم بهدف واحد فقط... وهو صناعة القنابل النووية. ودخلوا إلى الطابق الثانى، والذى كان فى الواقع الطابق الثامن!

عندما زار المفتشون الأمريكيون مفاعل ديمونة فى الستينيات، زاروا ماكون ٢

أكثر من مرة، وشاهدوا المكاتب وتناولوا الغداء فى مقصفه، وهم غافلون تماماً عن الأسرار الخطيرة التى تقبع تحت أقدامهم مباشرة، بفضل الحائط المزيف الذى أقامه بلومبرج أمام المصاعد المحرمة والتى تؤدى من المقصف إلى المجمع تحت الأرضى، ولم يتمكن المفتشون الأمريكيون من تخيل حجم الخداع الإسرائيلى.

انبهر أرنون وضغط مرشده على زر الدور الرابع، وفتح باب المصعد على شرفة كبيرة تطل على فضاء شاسع فوقها وتحتها. وكانت تلك شرفة جولدا مائير الشهيرة، وسميت على اسم رئيسة وزراء إسرائيل والتى وقفت فى ذات المكان بالضبط عدة مرات، تتلقى التقارير وتفحص العملية. وقيل إنها علقت قائلة: لن يقاد أى يهودى أعزل إلى مذبحة كما حدث فى المحرقة بعد ما رأيناه هنا.

دهش أرنون لما يشهده وشعر بالفخر والتمكين وهى مشاعر طغت على أى إحساس مشابه كان قد شعر به فى الماضى. وإذ يقف فى شرفة جولدا تلقى تقريراً مفصلاً عن عملية تصنيع الأسلحة النووية. وكان التقرير يشمل العديد من المصطلحات والإجراءات والمواد التقنية، والتى حفظها أرنون سريعاً فى ذاكرته بينما كان يشاهدها، وهو مبهور بالعملية التى كانت تتكشف أمام عينيه.

عرف أرنون أن هناك شاحنات خاصة كانت تأتى بقضبان اليورانيوم المعالج والذى كان يعد بالدور الأرضى من ماكون ١ ويتم رفعه إلى الطابق السابع. وكان ثمة رافعة تقبض على الأعمدة وتنزل بها إلى منطقة العمل بالأسفل. وكانت القضبان تُغمر فى أحواض حامض النيتروز ثم تطهى. وكانت شبكة من المواسير تُصفّى المياه التى تحتوى على اليورانيوم والبلوتونيوم عبر عملية كيمائية كما كانت المواد تُفصل وتستخلص فى الفرن، لتنتج كرات بلوتونيوم صغيرة وزن كل منها ١٣٠ جراماً، بإجمالى ١,٧ كيلو جرام فى الأسبوع، وكانت الكمية المطلوبة لصناعة

قنبلة هى ٤ كيلو جرام.

وفقاً للحسابات التى أجراها أرنون سريعاً كان بوسع إسرائيل إنتاج قنبلة نووية كل أسبوعين ونصف، أو حوالى ٢٠ قنبلة نووية فى العام. وفى معامل أخرى تحت الأرض، تم إخبار أرنون بأن هناك مواداً ضرورية إضافية يتم إنتاجها، مثل التايتينيوم لصنع القنابل النووية الحرارية. ساد الصمت الرهيب الغرفة، مع قليل من الهمسات العرضية، كما لو كانوا فى مكتبة أو كنيسة.

وعقب ذلك تبع أرنون مرشده إلى الغرفة الأخرى، وكانت غرفة ترفيهية للموظفين مخصصة لمجمعى القنابل. وكانت الفكرة منها توفير بيئة خالية من الضغوط ومريحة بقدر الإمكان للمُجمّعين، إذ كان من غير المقبول ترك أشخاص يعملون بمثل تلك الوظيفة يشعرون بالتوتر أو الانزعاج أو الكدر بأى شكل كان.

وفى الغرفة الترفيهية تلقى أرنون تقريراً هاماً عن احتياجات ديمونة من المواد، عبارة عن قائمة طويلة من الأغراض المطلوبة وبدأ أرنون يفهم الآن أن تلك من المهام المصيرية التى هيأه لها كل من بيريز وديان وبلومبرج، ألا وهى تطوير البرنامج النووى الإسرائيلى.

وبطبيعة الحال كان أكبر الاعتبارات هى توفير مورد ثابت لليورانيوم. كانت إسرائيل قد أملت أن تستخرج يورانيوم كافياً من موارد البوتاس فى صحراء النقب، لكن النتائج كانت محبطة.

ونما لعلم أرنون أن المفاعل يعمل بشكل عشوائى، ويعتمد على عمليات لاكام المبتكرة والجريئة ليستمر فى عمله وكانت معظم الأغراض المطلوبة غريبة وغير مألوفة بالنسبة له، مثل الملح الأخضر، وهو مركب بلورى صلب من تترافلوريد اليورانيوم، والكرايترون وهى أنابيب من الكاثود البارد معبأة بالغاز تستخدم

كمفاتيح فائقة السرعة لتفجير الأسلحة النووية، والنابذات وهى أجهزة تستخدم قوة الطرد لفصل المواد. والنابذ يمكن استخدامه لأغراض عدة، لكن لم يكن معروفاً أنذاك أنه يمكن استخدامه أيضاً لتخصيب اليورانيوم بدرجة تحقيق جودة الأسلحة. وضمت القائمة أيضاً دتريد اليورانيوم، وهى مادة ليس لها أى استخدام مدنى أو عسكرى محتمل سوى إنتاج القنبلة النووية.

كانت ميلكو وشركات واجهة أخرى أسسها أرنون معدة خصيصاً بغرض الحصول على تلك المواد. وحققت جولة المفاعل الغرض منها لدى بيريز وديان، إذ أصبح أرنون متحمساً أكثر من أى وقت مضى لأداء دوره.

أراد أن ينجح من منطلق الوطنية العميقة. وفكر فى جده الراحل حاييم إليعازر ميلتشان، الذى نجا من المذابح وترك عائلته فى بولندا وهو فتى أغر فى الرابعة عشرة من عمره ليصل وحده على شواطئ أرض مقفرة، ومعه حلم كبير، نسج منه حياة مزدهرة بيديه. ورسخ حاييم فى حفيده حب بلده والاستعداد لفعل أى شىء من أجله، بما فيه التضحية بحياته إن لزم الأمر.

قال أرنون: أحب إسرائيل، وسأساعد بأية طريقة ممكنة، وسأفعل ذلك مراراً وتكراراً.

كان أحد أهدافه المتعددة هو جلب تصميم النابذات، وهى طريقة جديدة وبالغة السرية لتخصيب اليورانيوم. وكان المصنع الأول للنابذات فى العالم هو شركة يورينكو ليمتد، وهى شركة مقرها فى يوليش، ألمانيا، ومملوكة لاتحاد شركات هولندية وألمانية وإنجليزية.

ووفقاً للدكتور أفنر كوهين، وهو خبير مخضرم فى الانشطار النووى، فقد بدأت إسرائيل تجرب النابذات من مطلع الستينيات حتى منتصفها، لكنها استغرقت

وقتاً طويلاً، ربما عقداً، لإتقان تلك التكنولوجيا. وفى الواقع لم تتقن إسرائيل يوماً تكنولوجيا النابذات من تلقاء نفسها، بل فعلت ذلك فقط بعدما حصلت على تصميمات شركة يورينكو للنابذات فى مطلع السبعينيات من أحد المديرين التنفيذيين فى يورينكو نفسها، وتم تبادل المال، ووضعت التصميمات فى المكان الخطأ وتم العثور عليها لاحقاً، لكن ليس قبل أن تصنع منها نسخ، والتى ظهرت بأعجوبة على مكتب بينيامين بلومبرج فى تل أبيب. وتم إنجاز المهمة.

وخلال بضعة أعوام من زيارة ميلتشان الأولى لمفاعل ديمونة، تم تخصيص مبنى "ماكون" جديد بأكمله لتخصيب اليورانيوم بشكل أسرع وأكثر فاعلية، بواسطة النابذات التى تم تصميمها كلياً فى إسرائيل طبقاً لتصميمات يورينكو بالضبط، والمبنى هو ماكون ٨، الذى يضم آلاف النابذات الدوارة، والذى يستحق أن يسمى ماكون ميلتشان.

ولاحقاً، تم إضافة منشأة إضافية "ماكون ٩"، إلى مفاعل ديمونة لمواءمة تكنولوجيا الليزر المطورة حديثاً. وكان ميلتشان اللاعب الرئيسى فى توفير الكثير من المواد الحساسة والمعدات التى احتاجها العلماء لتطوير تلك الطريقة الفريدة لتخصيب اليورانيوم.

وجدير بالذكر أنه بعد فترة وجيزة من حصول إسرائيل على تكنولوجيا النابذات من يورينكو، سلم الدكتور عبد القادر خان "أبو القنبلة الباكستانية"، والذى كان يعمل آنذاك فى أحد المعامل التابعة لشركة يورينكو فى هولندا، التصميمات ذاتها إلى باكستان، ثم باعها لاحقاً إلى إيران وكوريا الشمالية. وتمثل سرقة الدكتور خان وانتشارها لاحقاً أسوأ اختراق أمنى ذى علاقة بتكنولوجيا الأسلحة النووية منذ فجر التاريخ الذرى، ويفسر أيضاً سبب استخدام كل من إيران

وإسرائيل لنابذات نووية متطابقة، وتلك حقيقة استفادت منها إسرائيل لاحقاً.

وكان محللو الاستخبارات الأمريكية يعرفون بأمر الهدف من مفاعل ديمونة، واحتياجاته، وبرامج إسرائيل السرية الأخرى لتطوير أنظمة التوصيل، مثل صاروخ جيريكو ٢ .

وكانوا يعرفون دور ميلكو كمورد جديد لمتطلبات إسرائيل العسكرية، وكان ذلك فى الأساس بسبب تقارير ريتشارد كيلى سميث المنتظمة إلى السى آى إيه كشرط للحفاظ على تصريحه الأمنى. لكن أياً من هذا لم يضايق ميلتشان لأنه فهم أن المخاطرة الكبرى فى الولايات المتحدة كانت هى العمل خارج المنظومة. وكان من الأفضل له العمل فى النور، داخل حدود القانون، أمام أعين الجميع، وبذلك يستفيد أقصى استفادة من داخل المنظومة، ثم يدعى الجهل، وأنه خطأ برىء، أو سوء فهم نتيجة الترجمة الخاطئة للتعليمات، إن حدث خطب جلل. وكانت الأخبار الجيدة هى أنه إن افتضح أمر الشركة، فلم يكن لميلتشان أى حصة فيها.

وعلى أية حال، ففى عام ١٩٧٣ كانت السى آى إيه والولايات المتحدة بصفة عامة لديهم مشاكل أكبر من بحث إسرائيل عن مواد حول العالم ليهتموا بها. لم تكن الأمور تسير على ما يرام فى جنوب شرق آسيا. وكانت إسرائيل حليفاً فى الحرب الباردة وكانت تقدم استخبارات بالغة الأهمية، فى الأغلب من المجتمع اليهودى بداخل الاتحاد السوفييتى. وكانت إسرائيل من أهم ميادين التجارب للأسلحة الأمريكية، وكان لها تأثير متزايد فى المؤسسة السياسية الأمريكية تزامنت مع نمو اللوبى المؤيد لإسرائيل "إيباك"، وكان لها أصدقاؤها النافذون فى كل قطاعات الحكومة، ومنها المجتمع الاستخباراتى.

سمحت تلك البيئة لريتشارد كيلى سميث بأن يشعر بالارتياح للمضى قدماً فى

إرسال شحنات إلى إسرائيل خارج النطاق القانونى. وفى عام ١٩٧٣ شحن براميل البوتيل - وهو مركب يستخدم لتحويل المساحيق التفجيرية إلى وقود صواريخ صلب - إلى شركة أخرى فى هيوستون، حيث تم شحنها إلى مستخدم نهائى تبين فى النهاية أنه إسرائيل.

كان مكوناً بالغ الأهمية بالنسبة لصاروخ جيريكو ٢، ونجح سميث فى جلبه بوفرة لكنها كانت البداية فحسب ثم تلى ذلك بيروكلورات الأمونيوم والبيوتارين، والجيروسكوب، ومولدات النيوترونات، ومنظار الأوسيلسكوب عالى السرعة، المئات من القطع مزدوجة الاستخدامات، بإجمالى تكاليف يعادل عشرات الملايين من الدولارات. كلها تم شحنها إلى سميث ثم منه إلى المستخدم النهائى هو شركة رحوفوت إنسترومينتس ليتد.

ومع توسع ميلتشان فى عملياته فى الولايات المتحدة، كان أيضاً مستغرقاً بالعمليات فى إيران وفى صفقات شراء معدات الدفاع العسكرى المعتادة لإسرائيل. حيث كان يجوب العالم بطائرته، ويبرم الصفقات، ويقابل الأقوياء والنافذين، ويعيش بشكل عام الحياة التى يمكن الشخص العادى أن يحلم بها، لكن كانت هناك مشكلة واحدة.

بمرور الوقت، أصبحت "أولا" الحب المهيمن على حياته، وبدأ يفكر فى طرق للانفصال عن زوجته، ووعد "أولا" بأنه سيتخذ تلك الخطوة. وقبل ذلك بعام فى ١٩٧١، أخطرت بريجيت أرنون بأنها حامل بطفلها الثانى، ابنتهما ألكساندرا. ولم يكن هذا وقتاً مناسباً للحديث عن الانفصال. لكن بعد بضعة أشهر من ميلاد ألكساندرا، استجمع أرنون الشجاعة الكافية لإبلاغ بريجيت بنواياه تجاهها. وفى ذلك المساء، دخل من باب منزله، متوتراً لكن عازماً. واستدعى بريجيت إلى غرفة

المعيشة ليتناقش معها لكن قبل أن يتمكن من البدء، قاطعته بخبر قائلة أنا حامل مجدداً.

ومجدداً تراجع أرنون عن حديثه مع بريجيت، وأخبر "أُولا" بالموقف.

وفى اليوم الذى ولد فيه طفله الثالث أى ابنته الثانية إليانور، هرع أرنون إلى المستشفى لمرافقة زوجته. وبينما كان ينتظر خارج غرفة الولادة مع أفراد عائلته، لاحظ ممرضة توجه شرطيين صارمى المظهر تجاهه. وباقترابهما منه سأله أحدهما هل أنت أرنون ميلتشان؟، وعندما أجاب أرنون الذى ملأته الدهشة بالإيجاب، كان السؤال التالى هو هل تمتلك حصاناً؟.

كانت "أُولا" قد انهارت أخيراً، وحزمت حقائبها، وقبل أن تغادر إلى المطار أطلقت سراح الحصان الذى كان أرنون قد اشتراه لها. وثار الحصان المفزوع فى شوارع ضواحى تل أبيب، مسبباً الفوضى ومتلفاً العديد من أكشاك البائعين والسيارات. وبعدما أمسكت الشرطة أخيراً بهذا الوحش الهائج، تحروا عن مالكه المهمل.

وبينما كانت بريجيت تلد إليانور، تم اصطحاب أرنون إلى قسم الشرطة، وأجبر فى النهاية على دفع غرامة وتغطية الأضرار التى تسبب فيها الحصان. وعندما علمت بريجيت بتلك الواقعة، انقلبت علاقتهما رأساً على عقب. وكانت تلك صحوة هائلة بالنسبة لأرنون.

الآن وبعد أن خرجت "أُولا" من الصورة، صار أرنون عازماً على إنقاذ زواجه. ووافق الزوجان على إحداث تغيير جذرى فى حياتهما على أمل أن يقربهما ذلك من بعضهما. كان الحل، أو ما أملا أن يكون حلاً، هو الانتقال إلى فرنسا كعائلة، حيث ستشعر بريجيت أنها فى وطنها وأنها بجوار أقاربها.

وقرر أرنون أن يشترى قصراً كبيراً من القرن الثامن عشر على حافة بحيرة صغيرة، جنوب غرب باريس ويبعد عنها بحوالى ٢٥ ميلاً. وكانت تلك الضيعة ذات الخمسين فداناً على مشارف مدينة مونتفورت لاموري التاريخية الخلابة، وعلى حواف غابة رامبوبليه، وكان البيت يستخدم ذات يوم كمنزل للصيد للعديد من ملوك فرنسا. كان جاره هو الرئيس الفرنسى المستقبلى جاك شيراك والذى كان يسكن منزلاً أكثر تواضعاً.

وكانت أقصى آمال أرنون هى أن تصلح البيئة الريفية الخلابة، بخيولها وكل الرفاهيات الممكنة، علاقته الزوجية المضطربة.

٩

تحت الحصار

النجاح هو القدرة على الانتقال من فشل إلى آخر بدون أن تفقد حماسك.

ونستون تشرشل

في ٦ أكتوبر سنة ١٩٧٣، اندلعت حرب يوم الغفران، أكثر الحروب الإسرائيلية قسوة وتكلفة من بعد قيامها. كانت المفاجأة مكتملة الأركان. في هجوم متناسق ومتزامن، هرعت القوات السورية عبر هضبة الجولان وعبرت القوات المصرية قناة السويس في أكثر أيام السنة اليهودية قداسة.

ساد الخوف من احتمال سحق قوات الهجوم لإسرائيل قبل أن تتمكن من استدعاء احتياطييها، وحينها سيكون الأوان قد فات. خيم الفزع وإحساس بالخطر الحقيقى، والموت، والدمار بظلاله الثقيلة.

وصعق ميلتشان عندما سمع أن معلمه وزير الدفاع موشيه ديان فى لحظة يأس وصف الموقف بأنه شفير تدمير الهيكل الثالث وأنه ينذر بنهاية دولة إسرائيل، إذ كانت خسائر إسرائيل غير مسبوقة، قُدِّرت بالآلاف فى النهاية، وبدا هذا جلياً فى خسائر قوات المدرعات والقوات الجوية.

وكردة فعل لهذا الموقف الرهيب، قامت رئيسة الوزراء جولدا مائير بتنشيط المرحلة الأولى من خيار شمشون. وتم تجهيز أسلحة إسرائيل النووية غير المعدّة للاستخدام، وأخطرت مائير الرئيس نيكسون أنه إن استمرت القوات العربية فى

التقدم بدون إعادة تزويد إسرائيل بالسلاح لتتمكن من الدفاع عن نفسها، لن يكون أمامها سوى اللجوء للخيار النووى لإيقاف هذا الهجوم. وبدون خيار شمشون وأولئك الذين جعلوه ممكناً، لم تكن إسرائيل لتنجو من كارثة ١٩٧٣ .

كانت الرسالة واضحة وصريحة لواشنطن،وتم تمريرها بسرية إلى الاتحاد السوفييتي، والذى أبلغ بها كلاً من مصر وسوريا، واللذين أمرا بدورهما بعدم تجاوز قواتهما لما وراء الخطوط الحمراء التى حددتها إسرائيل.

وأتاح التردد العربى - خاصة فوق هضبة الجولان - لإسرائيل الوقت لإعادة تعبئة قواتها الاحتياطية. وأمر الرئيس نيكسون بإعادة إمداد كامل للقوات الإسرائيلية بالرغم من اعتراض مستشاريه، بمن فيهم هنرى كسينجر وجيمس شليسينجر. ولم يقبل نيكسون ذلك الاعتراض وقال: دعونى أقلق بشأن السياسة.

سيكون رد الفعل واحداً سواء أرسلنا لهم ثلاث طائرات أو ثلاثمائة طائرة، أرسلوا إليهم أي شيء يمكنه الطيران".

وخلال أيام، كانت طائرات جالاكسي العملاقة، وهي أكبر ناقلات طائرات في الأسطول الأمريكي، تغدو وتروح بلا توقف تقريباً على مطار بن جوريون، محملة بأنظمة الأسلحة والذخيرة، والتي أرسلت في الحال إلى الجبهة.

وإذ تم إمدادها باحتياطي حديث ومعدات جديدة، بحيث غيرت إسرائيل وتيرة الحرب، وعبرت قناة السويس، وحاصرت الجيش الثالث المصري، ووصلت حتى عمق ٦٣ ميلاً بالقرب من القاهرة. وفي الشمال استعادت القوات الإسرائيلية هضبة الجولان بأكملها وتعمقت حتى مشارف العاصمة السورية دمشق.

آنذاك هدد الاتحاد السوفييتي بالتدخل العسكري نيابة عن حلفائه العرب. ورداً على ذلك، أمر الرئيس نيكسون بتشغيل نظام ديفكون ٣ لحماية الولايات المتحدة، ووضعت وحدات نووية في ديفكون ٢، وهو أقصى مستوى للاستعداد وصلته القوات النووية أثناء الحرب الباردة. وأخيراً، صدر قرار بوقف إطلاق النار في ٢٦ أكتوبر ١٩٧٣ .

كانت حرب يوم الغفران عسيرة على إسرائيل، وكشفت عن ضعف رهيب في دفاعاتها. وكانت الصواريخ الأكثر فاعلية بالنسبة للجانب العربي هي صواريخ إيه تي ٣ ساغر السوفييتية المضادة للدبابات، والتي ثبت أن مداها أطول من الدبابات الإسرائيلية وكانت فاعلة في ردع العديد من الهجمات المضادة الإسرائيلية. وسحقت الصواريخ الأرض/ جو الحرارية القوات الجوية الإسرائيلية التي قيل يوماً بأنها لا تُقهر، وحرمت قوات الميدان من الدعم الجوي المنخفض، والذي كانوا قد يعتبرونه من المسلمات.

وتم تبادل الاتهامات المضادة القاسية فى أنحاء المجتمع الإسرائيلى عندما وصف الجنود العائدون كيف كان الجيش المصرى أفضل إعداداً ومعدات، وكيف كانت قوات الدفاع الإسرائيلية غير جاهزة بالمرة لتلك الهجمة،وفهم ميلتشان أن إعادة بناء الجيش الإسرائيلى غدا أمراً ضرورياً. وفى البنتاجون، تم اعتبار خسائر إسرائيل المبدئية فشلاً فى أنظمة السلاح الغربية فى مقابل التكنولوجيا السوفييتية، وعزمت الولايات المتحدة على ألا يتكرر هذا الموقف.

وفى أعقاب الحرب، بدأت حملة محمومة غير مسبوقة لشراء السلاح لتحديث الجيش الإسرائيلى وإعادة تجهيزه. ومع انتهاء عام ١٩٧٣ القاسى، كانت الولايات المتحدة قد مولت إسرائيل بـ٩٧٢,٧ مليون دولار فى هيئة قروض،و١,٥ مليار دولار كمنحة لا ترد لشراء معدات عسكرية من شركات أمريكية.

وكانت تلك بداية برنامج معونة عسكرية ضخم مصمم لردع أعداء إسرائيل، ولضمان وتأمين التفوق العسكرى الإسرائيلى التكنولوجى النوعى طويل الأمد فى المنطقة، وغدت تلك سياسة أمريكية رسمية، ويخصص الكونجرس اعتمادات مالية سنوية لخدمة هذا الغرض.

وفجأة انهالت الأموال على إسرائيل أكثر من أى وقت مضى لشراء معدات الدفاع العسكرى من نفس نوعية الشركات التى يمثلها ميلتشان،والذى وجد نفسه فى محور جهود إعادة البناء بفضل هذه الظروف المؤسفة والتى أدت للحاجة لمثل تلك الأنظمة بداية.

وكان من أهم أولويات إسرائيل بعد الحرب تقوية قدراتها للدفاع الجوى. وكانت حتى ذلك الحين تعتمد فى الأغلب على صواريخ هوك العتيقة. واستحدث ميلتشان نظاماً جديداً، وهو صاروخ إم أى إم ٧٢ شابرال أرض/ جو.

وكانت شركة رايثيون تواقة لأن يثبت صاروخ شابرال فاعليته فى أرض المعركة، وأتاحت لها إسرائيل تلك الفرصة سريعاً. وبعد فترة وجيزة من استيعاب النظام، وفى ٤ مايو ١٩٧٤، أسقط صاروخ شابرال طائرة ميغ ١٧ كانت تحلق فوق هضبة الجولان.

ومجدداً كانت تلك أول عملية إصابة محققة لنظام أسلحة أمريكى، وعُدَّ هذا دليلاً آخر لدور إسرائيل كميدان تجارب رائد للمعدات العسكرية الغربية المتطورة. وسر ميلتشان بذلك.

من أولويات إسرائيل الأخرى فى أعقاب حرب يوم الغفران كانت الحاجة إلى إيجاد حل لرد الهجوم على الأرتال المدرعة سريعة التحرك فى شبه جزيرة سيناء وهضبة الجولان. وكان الحل هو مروحية كوبرا المضادة للدبابات والتى يمكن إرسالها خلال دقائق إلى مسرح العمليات.

وفَّرت منصة الكوبرا مزيداً من العمل لميلتشان، لأن الصاورخ الأساسى الذى كانت تطلقه هو إيه آى إم ٩ سايدويندر، والذى تصنعه رايثيون. وكان كل صاروخ يتم إطلاقه يحتاج إلى بديل عنه.

وبالرغم من أن ميلتشان كان يصب تركيزه على المنصات والأسلحة الفضائية باهظة الثمن وعالية التقنية، التى تناسب القوات الميدانية الإسرائيلية. كان صاروخ ساغر السوفييتى نداء صحوة مميتة للقوات المدرعة الإسرائيلية أثناء حرب يوم الغفران، حيث أصاب كل الدبابات الإسرائيلية التى أطلق عليها تقريباً. ولم يكن له مثيل فى الترسانة الإسرائيلية ولم يكن هناك دفاع جاد ضده. وكان الرد هو صاروخ بى جى إم ٧١ الموجه المضاد للدبابات والذى أنتجته شركة رايثيون والذى أسموه تى أو دبليو، ويرمز لأنبوب الإطلاق ذى التعقب البصرى، ووصلة البيانات السلكية.

وحتى يومنا هذا يعد صاروخ تى أو دبليو أكثر صاروخ موجه مضاد للدبابات يستخدم فى العالم، وتكلفته ١٨٠ ألف دولار للصاروخ الواحد. وسرعان ما أصبح السلاح الرئيسى فى نظام سلاح إسرائيل المضاد للدبابات، وشكلت ألوية المشاة فصائل الـ«تى أو دبليو» وأسمتها أوريف، ولُقبوا باسم صائدو الدبابات.

وفى عام ١٩٨٢، استخدمت إسرائيل صواريخ تى أو دبليو بشكل مدمر ضد القوات السورية فى لبنان، فى معركة شهيرة على المنحدرات الشرقية لجبل باروخ، إذ دمرت وحدة تى أو دبليو إسرائيلية مضادة للدبابات تعتلى سيارة جيب عشر دبابات سورية طراز تى ٧٢ فى ظرف دقائق بدون أية خسائر إسرائيلية. ومجدداً كان كل صاروخ تم إطلاقه يحتاج لبديل عنه عبر شركة ميلتشان بروس.

ومن الصواريخ الأخرى التى قدمها ميلتشان إلى جيش الدفاع الإسرائيلى كان صاروخ إم ٤٧ دراغون من إنتاج شركة رايثيون. وكان نظام أسلحة أرضياً مضاداً للدبابات موجهاً سلكياً، ويطلق بالتوجيه من أعلى الكتف، وله القدرة على هزيمة المركبات المدرعة، والخنادق المحصنة، ومخابئ الأسلحة الخرسانية، وأهداف أخرى منيعة.

بهذا، شكلت كل كتيبة مشاة إسرائيلية فرقة دراغون. وبلغت كلفة الصاروخ حوالى ١٣ ألف دولار، لكن كانت كلفة الصواريخ ذات أنظمة الهجوم الليلى ٥١ ألف دولار عن كل صاروخ. وكالمعتاد، كان كل صاروخ يتم إطلاقه فى التدريبات أو فى المعركة يستبدل من شركة ميلتشان بروس.

كان يتم تحديث كل الأنظمة التى يمكن تخيلها فى جيش الدفاع الإسرائيلى، على الأرض، أو فى البحر، وفى الجو، بواسطة شركات ميلتشان بتكنولوجيا جديدة. وعبر تلك العملية، تطور جيش الدفاع ليصبح من أهم القوات المقاتلة العصرية على هذا الكوكب. كانت أحدث معدات الرؤية الليلية، وأحدث القنابل الذكية والصواريخ

الموجهة، وأحدث الرادارات وأنظمة إلكترونيات الطيران، والتى لا يزال معظمها بالغ السرية حتى يومنا هذا، تتدفق كالأنهار إلى إسرائيل عبر شركات ميلتشان.

مولت العمولات المستحقة من تحديث ما بعد ١٩٧٣ وإعادة الإمداد حسابات إسرائيل السرية التى كان ميلتشان يخفيها بشركات واجهة، وبتزايد الربح، تزايدت قدرات إسرائيل الاستخباراتية عالمياً.

وبتوسعه فى صفقات الدفاع العسكرى، فهم أرنون أنه لكى تستمر شركته فى المضى قدماً على طريق النجاح والنفوذ، وممارسة العمل المربح، كان فى حاجة لتعيين جنرال متقاعد من جيش الدفاع الإسرائيلى. وكان الشخص الذى وجده هو الجنرال ذا السادسة والأربعين عاماً شلومو لاهات الملقب بشيتش. وكما تبين، فقد كان خياره محل ترحيب بأكثر مما تصور.

بعد شهور محدودة فقط من الانضمام للشركة، دعا ميلتشان لاهات لحضور مباراة لكرة السلة للمحترفين فى الدورى الأوروبى فى تل أبيب. وعندما دخلا الملعب فى طريقهما إلى مقصورة الشخصيات الهامة، تلقى لاهات تصفيقاً حاداً من الجمهور. إذ إن الإسرائيليين يحبون أبطالهم.

وفى تلك اللحظة التفت ميلتشان إلى الجنرال لاهات واقترح على سبيل المزاح أن يرشح نفسه فى منصب العمدة. وراقته الفكرة، وخلال شهور، دخل لاهات المعترك الانتخابى بعدما وعده ميلتشان بأن منصبه محفوظ فى حال خسرانه الانتخابات. ووافق ميلتشان أيضاً على تصميم استراتيجية حملته ودعمها مالياً. وفى فبراير عام ١٩٧٤ لم يفز لاهات بالانتخابات فحسب، بل وظل عمدة المدينة المحبوب لحوالى ٢٠ عاماً. وأثمرت جهود ميلتشان فى عالم السياسة للمرة الثانية.

أدى ظهور مطلب مُلح إضافى إلى استعجال تطور برنامج الأسلحة

الإسرائيلي غير التقليدي. لم يكن هناك ما يتوجب إخفاؤه، في أغسطس عام ١٩٧٤، وفي ذات الوقت تقريباً الذي أجبر فيه الرئيس الأمريكي نيكسون على الاستقالة وتولى السلطة نائب الرئيس جيرالد فورد، أصدر رئيس الاستخبارات الأمريكية سي آي إيه تقريراً يؤكد فيه أن إسرائيل لا تمتلك أسلحة نووية فحسب، بل وتعد موزعاً نشطاً للتكنولوجيا النووية إلى أصدقائها وحلفائها، مثل إيران وجنوب إفريقيا. جاء بمذكرة كولبي والتي كان عنوانها «تقييم استخباراتي خاص: مخاطر الانتشار النووي» وكان بالغ السرية، جاء به ما يلي:

"تساعد إسرائيل بنشاط عدداً من الدول لتطوير تكنولوجيا الأسلحة النووية، وفي حالة معينة تفعل ذلك في مقابل الحصول على اليورانيوم من أجل برنامجها النووي الخاص. وفي كل أنحاء إسرائيل تتواجد العديد من منشآت التصنيع مخصصة بشكل حصري تقريباً لتطوير صاروخ قادر على توصيل الرءوس النووية. تم إجراء تحسينات في إسرائيل على تصميمات الصاروخ الأصلية والتي تحصلوا عليها من فرنسا. ويشمل تقييمنا معرفة بصفقات حصول إسرائيل على كميات ضخمة من اليورانيوم، وبرنامجها المستمر لتخصيب اليورانيوم، وبرنامجها لتطوير أنظمة توصيل الأسلحة النووية. ولا نتوقع أن تستخدم إسرائيل الأسلحة النووية إلا إذ غدا وجودها في خطر. وبدون أدنى شك، فستستمر إسرائيل في تطوير تلك القدرات وتحسينها بصواريخ باليستية ذات مدى أطول، وبأنظمة خاصة بالطيران، وبمجموعة أشمل من الإمكانيات النووية".

عندما تلقى ريتشارد كيلي سميث أول قائمة أغراض من ميلتشان، فهم سريعاً ما كانت تركز عليه إسرائيل آنذاك. كانوا يريدون مكونات الصواريخ ذات الوقود الصلب، وأرادوا الحصول على تعليمات التصنيع وأي شيء آخر يمكن أن تطاله أيديهم.

كان من مزايا الصواريخ ذات الوقود الصلب أنها من الممكن تزويدها بالوقود مسبقاً لفترات طويلة، ويمكن إخراجها من مخبئها وإطلاقها في الحال، قبل أن تُرصد وقبل أن تتخذ أى إجراءات مضادة.

لكن من ناحية أخرى فإن الصواريخ ذات الوقود السائل، تتطلب عملية تزويد بالوقود بطيئة على منصة الإطلاق قبل الإطلاق مباشرة، وهى عملية مستهلكة للوقت يمكن أن تكشف عملية الإطلاق مبكراً لتُتخذ الإجراءات المضادة.

وفى النهاية، فالوقود الصلب نفسه أكثر أماناً وأسهل فى التعامل معه عن الوقود السائل.

كانت صواريخ جيريكو الإسرائيلية ذات الرءوس النووية صلبة الوقود يمكن إطلاقها فى الحال إن لزم الأمر، وكان تطويرها وتحسينها يتم باستمرار. وتم تكليف كل من ميلتشان وسميث وشركة ميلكو بإمداد مشروع صاروخ جيريكو ٢ ذى تكلفة المليار دولار بالمواد اللازمة، ولعبا دوراً حيوياً فى الحصول على مكوناته بالغة الأهمية.

من أكثر الفترات غموضاً فى علاقة ميلتشان بسميث كانت تلك التى تلت استقالة سميث من شركة روكويل، بحجة التركيز الكلى على شركة ميلكو. وبدلاً من ذلك، قبل سيمث فجأة وظيفة لفترة وجيزة، ما بين فبراير ويونيو عام ١٩٧٤، مع مؤسسة مارتن ماييرتا فى الجانب الآخر من البلاد فى أورلاندو، فلوريدا، وترك أسرته فى كاليفورنيا.

ومارتن ماييرتا هو مصمم ومُصنّع نظام بيرشينغ للصواريخ النووية، وهو أول صاروخ باليستى نووى دافع متوسط المدى يستخدمه الجيش الأمريكى. سَعَت إسرائيل لشراء صاروخ بيرشينغ الجاهز من الولايات المتحدة كجزء من اتفاق وقف

إطلاق النار فى حرب يوم الغفران، لكن الولايات المتحدة لم توافق.

وبعد بضعة أعوام، وفى ٢٤ سبتمبر عام ١٩٧٥، واجه وزير الخارجية السوفييتى أندريه غروميكو وزير الخارجية الإسرائيلى ييجال عالون فى اجتماع فى الأمم المتحدة، وسأله عن سبب شعور إسرائيل باحتياجها للصواريخ متوسطة المدى. وكان عالون دبلوماسياً فلم يعط غروميكو إجابة مباشرة، والتى كان من المرجح أن تكون من أجل أن تستهدف موسكو لأهداف ردعية.

كان صاروخ بيرشينغ قد ظل فى الخدمة بأمريكا لحوالى ٣٠ عاماً وتم تحديثه عدة مرات. وفى عام ١٩٧٤ عندما هرع سميث ليقبل الوظيفة فى شركة مارتن مايبرتا، كانت الشركة تطور صاروخ بيرشينغ ٢، وهو أكثر تطوراً من ناحية المدى والدقة عن صاروخ بيرشينغ ١ . وسواء حدث ذلك بالصدفة أم لا، وبعد فترة وجيزة من فترة عمل سميث القصيرة الغامضة فى شركة مارتن مايبرتا، بدأت إسرائيل فجأة تخطو خطى واسعة فى تطوير برنامج صاروخ جيريكو ٢ مستخدمة تقنية مشابهة بشكل مثير للدهشة لتقنية صاروخ جيريكو ٢ .

والشىء اللافت أيضاً أنه لدى عودته إلى كاليفورنيا عقب فترة عمله القصيرة مع شركة مارتن مايبرتا، أصبح لدى سميث فجأة الاعتمادات المالية اللازمة لنقل عمليات شركة ميلكو من منزله إلى مكاتب جديدة فى هانتجتون بيتش، كاليفورنيا، والتى تلقب بسرف سيتى أو مدينة التزلج على الماء. ومن الواضح، أن فترة عمل سميث فى مارتن مايبرتا كانت مثمرة للغاية بالنسبة له، ولميلكو، ولإسرائيل. واجتاز سميث اختباره العصيب.

سمع ميلتشان لأول مرة بالكرايترون أثناء جولته فى مفاعل ديمونة النووى. والكرايترون عبارة عن أنابيب من الكاثود البارد معبأة بالغاز وهى رخيصة وبريئة

الشكل تستخدم كمفاتيح فائقة السرعة. يمكن استخدام الكرايترون لتشغيل مصابيح الفلاش الضخمة في آلات تصوير الأوراق، والليزر، وأضواء الهبوط في المطارات، والأجهزة العلمية في العديد من المجالات من بينها المعدات الطبية. وحقيقة أن هذا الجهاز الصغير هو أكثر مفتاح تشغيل للقنبلة النووية فاعلية كانت من الأسرار المحكمة. وكانت هناك شركة وحيدة في الولايات المتحدة تصنع هذا الجهاز، وهي إي جي آند جي في ماساتشوستس، وهي مؤسسة معنية بأكثر التكنولوجيات الحساسة لدى الحكومة الأمريكية. وكانت عمليات بيع الكرايترون وتوزيعها تراقب بعناية، خاصة في أسواق الصادرات.

وفي صيف ١٩٧٥، أرسلت إسرائيل عبر ديبورا بن إسحاق مساعدة ميلتشان طلباً إلى سميث لشراء ٤٠٠ مفتاح كرايترون. وفي طلب الشراء وكالمعتاد، وضعت ديبورا اسم القطعة المطلوبة، والغرض من استخدامها، «مجسات استشعار المعدات عن بعد»، ووضعت اسم المستخدم النهائي وهو شركة رحوفوت إنسترومينتس ليميتد.

وتوصل سميث للمصنع، واشتراها بسعر ٧٥ دولار للوحدة، وتأكد من صحة متطلبات الترخيص الضرورية.، وكان المطلوب في تلك الحالة هو ترخيص تصدير ذخائر من وزارة الخارجية الأمريكية. وكان قد أمن مثل تلك الرخص مرات عديدة في الماضي. وفي ٣٠ أكتوبر عام ١٩٧٥ قدم لوزارة الخارجية الأمريكية طلباً باستصدار ترخيص ذخائر تقليدي لجلب الكرايترون. وبعد بضعة أيام، قدمت السفارة الأمريكية في تل أبيب تحذيراً لوزارة الدفاع الإسرائيلية بخصوص محاولة شراء مفاتيح كرايترون.

ويزعم سميث أنه لم يكن على دراية بالرفض أو التحذير لإسرائيل بخصوص

هذا الشأن، حتى تلقى مكالمة من ديبورا لإلغاء الطلب. ولم يفكر سميث فى الأمر كثيراً ومضى فى عمله.

لكن الكرايترون ظل مكوناً مصيرياً لبرنامج السلاح النووى الإسرائيلى يجب اللجوء لبعض المحاولات الخطيرة لجلبه. وبطريقة ما، وخلف الكواليس، أجريت تحقيقات دبلوماسية أمريكية من قبل وزارة الخارجية ووزارة التجارة، ودفع الإسرائيليون بأنهم يحتاجون الكرايترون لأجل قائمة طويلة من الأغراض المدنية. وما أن حققوا تقدماً لدى واشنطن، أشاروا لبلومبيرغ بأن عليه إعادة المحاولة. وفى مارس ١٩٧٦، أضاف بلومبيرغ الكرايترون إلى قائمة المشتريات.

وقدم سميث طلباً لترخيص تصدير ذخائر لوزارة الخارجية مجدداً، ومجدداً تم رفض الطلب. وتم إلغاء الطلب. لكن فى تلك المرة رصدت السى أى إيه أنشطة ريتشارد كيلى سميث.

وقررت إسرائيل أن تغض الطرف عن أمر الكرايترون لفترة طويلة. وكان سميث قد نجح فى الوفاء بعدة طلبيات حساسة ولم يكن هناك جدوى من تعريض العميل لمزيد من المخاطر، على الأقل للفترة تلك. وبالنسبة لسميث، فقد كانت علاقته بميلتشان تمثل له كل شىء. فما يتجاوز ٨٠٪ من إجمالى مشاريع شركة ميلكو كانت تتم عبر شركة ميلتشان بروس. وشركات تابعة مثل هيلى تريدينغ ليمتد. وبالرغم من أن ميلكو كانت على الورق شركة متواضعة مكافحة، إلا أن سميث كان قد تعلم بعضاً من حيل المهنة، ومنها أن إظهار الأرباح، ليس مكسباً بالضرورة لكن من الأفضل بكثير أن تُظهر كثيراً من النفقات.

وكان سميث قد تملك منزلين على الشاطئ فى هانتجتون بيتش وشقة فى كتالينا أيلاند. وانضم إلى نادى اليخت المحلى، وبحلول عام ١٩٧٧ وصل لدرجة

عضوية رئاسة نادى اليخوت. واشترى أيضاً مزرعة مساحتها ١٥٠ فداناً فى أوكلاهوما من والده. واستمتع بطيب الحياة.

وفى النهاية استقالت زوجته إيميلى من عملها كمعلمة وانضمت لشركة ميلكو كمديرة مكتب، وكانت مسئوليتها الأولى التواصل مع ديبورا بن إسحاق مساعدة ميلتشان. وتطورت بينهما علاقة صداقة دافئة بمرور الوقت. وكان سميث يسافر فى رحلات متقطعة إلى إسرائيل للاطلاع والاستشارات وأحياناً كان يصطحب إيميلى أو أحد أبنائه معه للاستمتاع بالمرح وبالشمس، فيما يجتمع هو بميلتشان وبيلومبيرغ نفسه.

وكما شهدت ديبورا لاحقاً حيث قالت «إن الدكتور سميث، وزوجته، وأبناءه، أصبحوا أصدقاء مقربين لزوجى ولى. تقابلنا عدة مرات فى إسرائيل وفى لوس أنجلوس عندما ذهبنا لحضور زفاف ابنته. وأشعر أننى أعرف الدكتور سميث بشكل جيد نتيجة لسنوات عديدة من العلاقة الحميمة».

وبمرور السنين، قام سميث أيضاً بتعيين ثلاثة من أبنائه فى شركة ميلكو، فى قسم الحسابات وفى قسم تكنولوجيا المعلومات لحواسيب المكاتب. وحاز أحد أبنائه على ميدالية أوليمبية فى الإبحار، وعملت ابنته بعدما أنهت الجامعة فى مدريد، إسبانيا، كمذيعة فى يونيفيجن، أكبر قناة متحدثة بالإسبانية فى الولايات المتحدة، والتى يمتلكها حاييم صبان صديق ميلتشان.

كانت عمليات سميث فى أغلبها ناجحة، لكن جهوده لتوقيع عقود استشارية مع الناتو ووكالة ناسا، والبنتاجون كانت مخيبة للآمال وغير مثمرة. وتمكن من توقيع عقود صغيرة قليلة لا تزيد قيمتها عن ٢٥ ألف دولار للعقد. ومن المحتمل أنه كان قد تم إدراج سميث فى القوائم السوداء بسبب واقعة الكرايترون فى عام ١٩٧٥، على

الرغم من أن تصريحه الأمنى لم يتغير.

وفى جهوده لتوسيع مجال شركته، بدأ سميث يعرض أغراض دفاع عسكريه إسرائيلية الصنع على الحكومة الأمريكية والشركات الخاصة، ولهذا الغرض طبع كتيبات فاخرة تروج لقائمة طويلة من المنتجات الإسرائيلية المتعلقة بالدفاع العسكرى. والتى استوردها من إسرائيل إلى الولايات المتحدة من دون عملية استخراج الرخص المُضنية. ولم تكن تلك العمليات بديلاً عن تدفق الطلبات المنتظمة الحساسة لميلتشان من الولايات المتحدة. وعلى أية حال، لم نسمع عن صفقات تصدير إسرائيلى عُقدت عبر شركة ميلكو.

واستمرت طلبات ميلتشان للمواد الحساسة تتوالى، وببطء، وبمرور الوقت، عرفت شركة ميلكو كعميل شراء أساسى للاحتياجات العسكرية الإسرائيلية فى معظم الجهات التى كان منوطاً بها المعرفة فى وزارة الخارجية، والسى أى إيه، والبنتاجون، ووزارة التجارة. ولم يكن هذا غير متوقع بالمرة من جانب ميلتشان. فبعد كل شىء، كانت الفكرة هى العمل بشكل واضح للعيان، والمجازفة المحسوبة، وفى الأغلب بالتنسيق مع الولايات المتحدة. لكنه لم يكن سعيداً بالشهرة التى نالتها الشركة، وأصبح أكثر قلقاً من اسم الشركة، والذى كان يشير بشكل مباشر له. فبعد كل شىء، كانت فكرته عن الشهرة، هى ألا توجد على الإطلاق.

لم يتخيل ميلتشان ولا سميث أهمية طلبية الكرايترون الصغير الرخيص فى حياتيهما.

وإذ انغمس أرنون فى شبكة متنامية من المشاريع والأنشطة غير التقليدية، وصلت علاقته بزوجته لنهاية الطريق. ولم يحقق الانتقال إلى فرنسا الهدف المنشود، ولم يَعُدْ الحب الأصلى بينهما، واتخذا قرار الطلاق.

وخلال أشهر، دخلت امرأة سويدية جديدة «أولريكا» حياته، وأثناء أول ليلة لهما معاً، تفاجأ أرنون عندما عرف أنها من نفس مدينة «أولا» وأنها تقيم فى الشارع ذاته الذى تقيم فيه وهو شارع جوتنبيرج، وأنهما لا تعرفان بعضهما، وتعجب أرنون لذلك بشدة.

واشترى شقة مريحة لبريجيت وللأولاد فى قلب باريس، على بعد مسافة قصيرة من برج إيفل، واشترى شقة لنفسه على مقربة منهم. ثم قضى الكثير من وقته فى باريس ليكون قريباً من أبنائه، وزاول جميع أعماله من هناك بينما كان يسافر بشكل متكرر إلى إسرائيل، والولايات المتحدة وإيران، وإلى وجهات عمل أخرى. وكانت إحدى تلك الوجهات لاس فيجاس، حيث أصبح مقامراً محترفاً، لدرجة أن فندق سيزار بالاس كان أحياناً يبعث له بطائرة خاصة لتقله وحاشيته لقضاء العطلات الأسبوعية فى المراهنات المرتفعة والاستمتاع بوقتهم. وذات مرة، أعطى فيشات البوكر المتبقية منه، والتى وصلت قيمتها لـ ٣٠٠ ألف دولار لشخص مجهول، وهو خبير تنمية إسرائيلى ويدعى ماشير تيبير، وكان قد تعرف عليه قبل ذلك ببضع ساعات، وأخبرنا تيبير قائلاً: لازمته بجوار مائدة البوكر حتى وافق على الاستثمار فى مشروع خاص بى. أظن أنه أعطانى المال لكى يتخلص منى فحسب.

واستثمر تيبير المال فى محل للملابس وأسماه تيد لابيدوس فى فندق سيزار بالاس. ثم تلقى ميلتشان بعد ستة أشهر شيكاً قيمته ٦٠٠ ألف دولار حصته فى تلك الشراكة، والتى كان ميلتشان قد نسيها. وكان هذا التصرف هو الذى دعم صداقتهما والتى لا تزال قائمة حتى يومنا هذا.

١٠

محامى الشيطان

سأناضل بقية حياتى ضد العنصرية والتمييز العرقى

أرنون ميلتشان لجريدة لوس أنجلوس تايمز فى ٢٨ فبراير ١٩٩٢

فى يونيو ١٩٧٥، دعي أرنون ميلتشان من قبل صديقه شمعون بيريز، والذى كان آنذاك وزير الدفاع فى حكومة رئيس الوزراء إسحاق رابين، إلى أحد أغرب الاجتماعات فى حياته. وطلب منه أن يشترك فى مخطط مغر، بزعم مساعدة بلده، وأنه إن جارى هذا المخطط، فسيتاح له عالم جديد كامل من الفوائد المحتملة.

عقب حرب يوم الغفران، قطعت خمس وعشرون دولة إفريقية علاقاتها الدبلوماسية بإسرائيل. وحتى ذلك الحين، كانت إسرائيل تربطها علاقات جيدة عبر قارة إفريقيا، وكانت تقدم التدريب والمعونة إلى العديد من الدول النامية، وكانت تحصل على المواد الخام فى المقابل. لم يحمل المستشارون الإسرائيليون، الذين كانوا ينتشرون عبر قارة إفريقيا، الطابع الاستعمارى مثل أقرانهم من فرنسا وإنجلترا. وانبهر الأفارقة حقاً بقيم المساواة التى يبديها الإسرائيليون، والذين كانوا لا يمانعون مشاركة العمل الشاق مع الأفارقة.

وأبقت إسرائيل على علاقاتها بدولة جنوب إفريقيا سرية وذلك لتتجنب إهانة الدول الإفريقية الصديقة ذات الأغلبية السوداء وكانت هناك معارضة أصيلة داخل إسرائيل لفلسفة الفصل العرقى. وكانت الدولتان لا تربطهما حتى علاقات دبلوماسية كاملة على صعيد السفراء. لكن أياً من هذا لم يكن كافياً بالنسبة للدول

الإفريقية لتجاوز الضغوط العربية، وما صاحبها من دولارات نفطية، لقطع العلاقات مع الدولة اليهودية عقب حرب يوم الغفران. واكتمل الانعزال الإسرائيلى عن إفريقيا مع نهاية عام ١٩٧٣ تقريباً.

وكان الموقف بالنسبة لجنوب إفريقيا بائساً بنفس القدر، وتصاعدت المشاعر المناهضة للعنصرية حول العالم واندلعت أعمال العنف فى البلاد. وبحلول ٣٠ نوفمبر عام ١٩٧٣، أعلنت الأمم المتحدة أن الفصل العرقى يعد جريمة ضد الإنسانية، وتبع ذلك المقاطعات الاقتصادية وحظر الأسلحة. بل إن رياضيى جنوب إفريقيا حرموا من الاشتراك فى المسابقات الدولية. ووصلت العزلة الدولية لجنوب إفريقيا مستويات غير مسبوقة وكانت تشارف على ما هو أسوأ.

وعلى النقيض من التخلى الإفريقى عن إسرائيل فى أول اختبار حقيقى

لعلاقاتهم، هبت جنوب إفريقيا للعون فى ساعة يأسها عام ١٩٧٣، بالرغم من أن الدولتين لم تكن تربطهما علاقات دبلوماسية كاملة. بحث وزير الدفاع بى دبليو بوثا -والذى أصبح رئيس الجمهورية لاحقاً- عن أية وسيلة ممكنة لتقديم الدعم المعنوى وحتى المادى لها. هرع أكثر من ١٥ ألف جنوب إفريقى معظمهم من اليهود للقتال فى صفوف إسرائيل، وقدمت حكومة جنوب إفريقيا أكثر من ٣٠ مليون دولار كمعونة لإسرائيل.

وعقب الحرب، أطبقت الحقيقة القاسية للانعزال الدولى على كلا البلدين، وعلى سبيل الحفاظ على بقائهما كان من الحتمى أن تتعاون الدولتان معاً.

وفى يونيو عام ١٩٧٥، نظم أوسكار هوريتز وهو رجل أعمال جنوب إفريقى بارز ومهندس معمارى، وعميل سرى فى المجتمع الاستخباراتى جنوب الإفريقى، اجتماعاً الهدف الرئيسى منه بناء علاقة جديدة بدولة إسرائيل.

ووصل الوفد جنوب الإفريقى محفوفاً بسرية بالغة. وكان على رأس الوفد وزير الداخلية الدكتور كونى مولدر، والذى كان نجماً صاعداً فى النشاط السياسى فى جنوب إفريقيا، وبدا وريثاً محتملاً لرئيس الوزراء جون فوستر، وصاحبه الجنرال هندريك فان دين بيرغ، رئيس هيئة الأمن القومى فى جنوب إفريقيا، ووزير المعلومات المستقل إسشيل رودى. وتجاهلت المهمة وزير الخارجية، والذى اعتبروه كسولاً وبيروقراطياً وغير فاعل.

وكانت المهمة هى وضع أسس اجتماع لم يكن ليخطر على بال فى السابق، بين رئيس الوزراء جون فوستر ورئيس الوزراء الإسرائيلى إسحاق رابين.

وتناقشوا بصراحة بشأن مأزق جنوب إفريقيا الصعب وكشفوا عن خطة خمسية بالغة السرية، وافق عليها رئيس الوزراء فوستر، ليحاول التأثير على الرأى

العام العالمى ليؤيد النظام العنصرى لجنوب إفريقيا، ويطلب المشاركة الإسرائيلية فى دور استشارى.

طلبوا على وجه التحديد من بيريز ورابين تسمية شخص للانضمام لمجموعة سرية تدعى نادى العشرة. تتكون من عشرة أشخاص فاعلين من عشر دول مختلفة، ويفعلون كل ما بوسعهم لإيقاف الحظر والمقاطعة، وتحسين صورة جنوب إفريقيا بواسطة شراء القنوات الإعلامية أو التأثير فيها.

وأُختير هؤلاء العشرة بعناية وفقاً لجشعهم، وعلاقاتهم، وحماسهم، وكفاءتهم، وقدرتهم الفائقة على إنجاز الأمور، على أن يعملوا فى تعاون سرى مباشرة مع وزارة المعلومات التى يرأسها إسشيل رودى. وكان إسشيل قد أسس شركة واجهة بالفعل وأسماها "ثورة للاتصالات" لتنسيق أنشطتهم وتمويلها، شملت تلك الأنشطة التخطيط للعملية ديفيد والإشراف عليها، واحتوت كل شىء بدءاً من التبادل الثقافى الرياضى بين جنوب إفريقيا وإسرائيل إلى صفقات الدفاع العسكرى السرية والتعاون النووى.

وتم تصميم المشروع برمته كحرب نفسية مكتملة التمويل لا تطبق عليها أية رقابة حكومية أو قواعد، مع الالتزام بأن تكون الأعمال الورقية بأقل قدر ممكن وتدمير أى شىء غير ضرورى مع تفضيل العمل بدون أوراق. كان هذا ما قاله رئيس الوزراء فوستر لإسشيل رودى، والذى اختاره للإشراف على العملية برمتها.

وتم تمويل المؤسسة السرية بمئات الملايين من الدولارات الأمريكية.

وكما فى حالة الإسرائيليين، فقد تم تمويل المشروع السرى الطموح بشكل غير رسمى، وبدون موافقة البرلمان. وكانت التمويلات تأتى من احتياطى الذهب الضخم لجنوب إفريقيا فى لندن، وتم نقل شحنة ضخمة من القضبان الذهبية فى ظل تأمين

مكثف من لندن إلى خزينة مصرفية فى زيوريخ،وبعكس بريطانيا، فقد كانت قوانين السرية المصرفية السويسرية آنذاك مناسبة أكثر لخدمة أهداف جنوب إفريقيا السرية.

وفى مقابل المساعدة الإسرائيلية فى مجال التكنولوجيا العسكرية والعلاقات العامة التى تدار بشكل سرى، كانت جنوب إفريقيا مستعدة لخلق عالم كامل من الاحتمالات فيما يخص عقود الدفاع العسكرى والوصول لمواردها الطبيعية الكثيرة، وخاصة اليورانيوم. وكان لابد من اختيار رجل طليعة من إسرائيل، لينضم إلى نادى العشرة. وكان لهذا الشخص أن يبرم عقوداً وصفقات مربحة محتملة أخرى فى خطوط الأنابيب.

وعقب الاجتماع فكر كل من رئيس الوزراء رابين وشمعون بيريز فى الأمر بعناية، ليقيّما المخاطر والمكاسب المحتملة. وبما أن علاقات الدولة العنصرية مع معظم الدول الإفريقية كانت متفسخة، كانت الحاجة للحفاظ على سرية علاقة إسرائيل مع جنوب إفريقيا. وآنذاك طلب وزير الخارجية الأمريكى هنرى كسينجر أن تكون إسرائيل وكيلته فى دعم معركة جنوب إفريقيا ضد القوات الشيوعية فى أنجولا.

بعد أن تجرعت إسرائيل مرارة حرب يوم الغفران وغدت على مشارف الدمار الكامل، كان الاتجاه السائد فى إسرائيل هو أن يوضع بقاؤها فى الاعتبار قبل أى شيء أخر. وكانت جنوب إفريقيا تمثل سوقاً كبيراً وغنياً لمبيعات الأسلحة الإسرائيلية والحفاظ بذلك على استمرار صناعات المعدات العسكرية المحلية. والأهم من ذلك، كانت إمكانية توفير مصدر إمداد ثابت لليورانيوم ومواقع الاختبار النووى هى الأكثر إغراء.

وعلى الرغم من أن الفصل العنصرى كان فلسفة مكروهة ومرفوضة، وأن رئيس وزراء جنوب إفريقيا جون فوستر، سجن فى شبابه لاتهامه بالتعاطف مع النازية، وعلى الرغم أيضاً من حظر السلاح الذى فرضته الأمم المتحدة على جنوب إفريقيا منذ ٧ أغسطس ١٩٦٣، كانت كلها حقائق مقلقة، لكنها لم تطغ على المكاسب المحتملة لتحالف استراتيجى سرى بين البلدين.

أقنع بيريز رابين بأن الخيار المتاح كان خياراً بين بديلين موصومين، وأن حركة جنوب إفريقيا السوداء تدعم عرفات والاتحاد السوفييتى، وتقف ضد إسرائيل. وأضاف قائلاً: لكننا لن نكف أبداً عن شجب العنصرية، ولن نوافق عليها أبداً.

قرر كل من بيريز ورابين المصادقة على خطة مولدر وردى، ووقع اختيارهما بالفعل على شخص نشط يجيد كتمان الأسرار، ويعمل فى الخفاء، ولا يخاف الخطر ويكره التورط فى شيء. وكان هذا الرجل هو ميلتشان، وتحرك بيريز فى الحال لتنظيم الاجتماع.

وعندما وصل ميلتشان قوبل بتحيات حارة من بيريز، الذى قدمه لمولدر، والجنرال فان دين بيرج، وردى. كان ديفيد كيمشى، وهو عميل بارز فى الموساد ومتخصص فى الشأن الإفريقى، حاضراً أيضاً، ولم تكن هناك حاجة للمقدمات، وتبادلوا كلهم التحيات وجلسوا لإجراء حديث هادئ.

وبدأ بيريز الحديث بأن أخبر الضيوف بأن ميلتشان رجل أعمال مستقل، تثق فيه الحكومة الإسرائيلية، ويمتلك شركة للأسمدة والمواد الكيماوية. وشرح أنه قام بإتمام العديد من المشاريع الهامة الإسرائيلية الأمريكية المشتركة فى إيران، وأنه يتولى توفير نسبة كبيرة من مشتريات الدفاع العسكرى

الإسرائيلية، وأنه طموح للغاية.

وتفاجأ كل من مولدر ورودى عندما رأيا أن ميلتشان لا يزال فى الثلاثين من عمره. وبدأ رودى يمطر ميلتشان بالأسئلة عن آرائه فى جنوب إفريقيا والعالم بشكل عام. وسرعان ما نجح ميلتشان فى جعل ثلاثى جنوب إفريقيا يتخلون عن حذرهم بسحره المميز، وذكائه، ومعرفته المدهشة بشئون العالم، وحماسته الشبابية. وكمعظم من قابلوه، أعجبوا كلهم به فى الحال.

كان الشعور متبادلاً. وبالرغم من أن إسشيل رودى كان فى الأربعينيات، لكن سرعان ما اكتشف الرجلان أن طباعهما متشابهة، إذ إن كليهما كان رياضياً وشغوفاً بالتنس، وكان لهما أن يلتقيا فى ملاعب التنس لسنوات عدة، وكان كلاهما يقدر الحياة المترفة، والنبيذ الفاخر، والأطعمة الراقية، والنساء، والقمار. وكلاهما كان جامح الخيال وذا نزعة للمجازفة فى أى شىء يفعلانه.

دعا رودى ميلتشان إلى جنوب إفريقيا لتعزيز صداقتهما، ومن هنا بدأت مغامرة ميلتشان الرائعة فى جنوب إفريقيا، والتى أحيط معظمها بالسرية، لكن ما عرف عن أنشطته هناك يكفى ليجعلنا نستنتج بكل ثقة، أنها كانت عميقة، وسرية، وعالية الربح، ومثيرة للجدل.

لم يكن ميلتشان محباً يوماً للفصل العنصرى على المستوى الفكرى. قال فيما بعد بصوت متألم: فقط لو كنت أعرف، كنت شاباً، جاهلاً، وساذجاً، وظننت أن وجودى هناك ممتع. وبدأت مشاركته، بمعرفة من حكومته من أجل المصلحة العليا لبلده، وعلى سبيل الوطنية، ويمكن تقسيم أنشطته إلى ثلاث فئات رئيسية: شراء معدات الدفاع العسكرى، وحرب الدعاية، والتعاون النووى.

عندما وصل ميلتشان لجنوب إفريقيا لأول مرة، فوجئ بأنه تم استقباله وكأنه

رئيس دولة.«قابلنى إسشيل رودى بحفاوة بالغة، ولم يكن فى وسعى إلا أن أنبهر بذلك». رأى أفارقة سعداء يرقصون على دقات الطبول المحلية، وقدم له الأطفال الصغار الهدايا التراثية، بدا الأمر مثالياً، وعلى النقيض تماماً من حقائق الفصل العنصرى.

وبعد الرسميات، تم اصطحاب ميلتشان إلى فندق فخم فى جوهانسبيرج، وعلى العشاء، قدم إليه رودى شيئاً ليتفحصه. وكان ذلك هو جواز ميلتشان جنوب الإفريقى الجديد، وكانت تلك هى طريقة رودى ليخبر ميلتشان بأنه صار واحداً منهم.

وعلى العشاء أطلعه رودى على خطة العمل. كانت مهمتهم هى التعرف على صناع الرأى العام فى الإعلام الغربى والقنوات الترفيهية، مثل الصحفيين، والرموز الثقافية، والسياسيين، واستهدافهم بغرض تجنيدهم بدهاء لخدمة القضية جنوب الإفريقية [العنصرية] بواسطة الإقناع الرقيق، والرشاوى، وحتى شراء الأهداف المسيطرة فى جل القنوات الإعلامية إن لزم الأمر.

كانت الحاجة للسرية واضحة. وكان الهدف هو عدم الدعاية للفصل العنصرى بشكل مباشر، إذ فهموا أن تلك مسألة خاسرة، بل التأكيد على القيمة الاستراتيجية لجنوب إفريقيا بشكل عام للعالم الغربى الحر، وعلى أنه بلد غنى بالمواد الخام ومهدد بانتشار الاستبداد الشيوعى من الداخل، ومن قبل الدول المجاورة والمدعومة بشكل مباشر من الاتحاد السوفييتى فى أوج الحرب الباردة.

فى الصباح التالى سافر رودى وميلتشان جنوباً تجاه بورت إليزابيث. وبوصول الطائرة لحدود المحيط الهندى مالت غرباً وحلقت بمحازاة خط غاردين روت الساحلى الجميل، وهو على الحافة الجنوبية للقارة. وهبطوا فى مدينة بليتينبرغ

باى الصغيرة الخلابة، بشواطئها البيضاء الذهبية. كانت تلك جنوب إفريقيا، المنعزلة، الشاعرية، السالمة، الآمنة التى أراد رودى لأرنون أن يشاهدها.

وأخبر رودى أرنون أنه دبر له شقة فارهة دائمة فى بليتينبرغ باى، وأن عليه أن يعتبرها منزله فى جنوب إفريقيا. وفيما استرخوا فى الشقة الجديدة، مضوا يتعمقون أكثر فى تفاصيل الخطة.

جوهرياً كانت الخطة هى أنه سيؤدى ذات الدور المالى لجنوب إفريقيا الذى كان يؤديه لإسرائيل، ويفتح حسابات مصرفية سرية ويودع فيها الأموال حسب توجيهات إسشيل رودى، بدون أى آثار تشير إلى جنوب إفريقيا. كان ذلك هو التفاهم الذى توصلا إليه ومضت الخطة قدماً.

بلغت الأمور ذروتها سريعاً بعد زيارة رئيس الوزراء فوستر الرسمية لإسرائيل فى ١٩٧٦ . وكان محور محادثاته مع رابين وبيريز يتعلق بتجارة الأسلحة والتكنولوجيا النووية فى مقابل رأس المال جنوب الإفريقى والمواد الخام. وتمت الموافقة فى الحال على بيع مدافع الهاون، ومعدات المراقبة الإلكترونية، وأنظمة الإنذار ضد حرب العصابات، ومعدات الرؤية الليلية، والرادارات، وقوارب الدوريات، ومروحيات بيل، والمركبات المدرعة، وقطع المدفعية لجنوب إفريقيا. وأمدت إسرائيل جنوب إفريقيا أيضاً بتصميمات طائرة كيفير المقاتلة، والتى كانت قائمة فى ذاتها على التصميمات المسروقة لطائرة سوبر ميراج من تصنيع شركة داسولت. ونتج عن ذلك إنتاج طائرة شيتا المقاتلة جنوب الإفريقية. وكان لابد من إمداد منصات الطائرة شيتا بالصواريخ اللازمة لها، وتكفلت بذلك شركة رايثيون عبر ميلتشان وقدمت أحدث الأنظمة.

وأتى يوم ٤ نوفمبر عام ١٩٧٧ بمزيد من الأخبار، إذ تبنى مجلس الأمن التابع

للأمم المتحدة القرار ٤١٨، والذى يفرض حظر الأسلحة الإجبارى على جنوب إفريقيا. وحتى ذلك الحين، كان حظر الأسلحة اختيارياً، لكن الآن تصرفت الأمم المتحدة بصرامة غير معهودة، مما عنى أن الولايات المتحدة والدول الأوروبية كان عليها أن تمتثل، أو على الأقل تدعى ذلك.

ووضع هذا القرار كلاً من إسرائيل وميلتشان فى الوضع المثالى للعمل كوسطاء سريين. وبالطبع ظاهرياً امتثلت إسرائيل رسمياً للقرار ٤١٨ لكن فى السر، وبمساعدة خدمات الشركات التى أسسها ميلتشان، لعبت إسرائيل دور المورد الرئيسى لأنظمة الدفاع العسكرى إلى جنوب إفريقيا، وكانت توجه ملايين الملايين من الدولارات للشراء من طرف ثالث ومن خلال البيع المباشر لصناعاتها العسكرية. وما كان الحظر ليكون فى وقت أفضل من ذلك بالنسبة لكل من إسرائيل وميلتشان سواء بسواء. إذ كان متورطاً بقوة فى التحالف الإسرائيلى جنوب الإفريقى الذى كان آخذاً فى التطور السريع بصفته ممثل إسرائيل فى نادى العشرة، وكان ميلتشان يتمتع باعتباره جزءاً من دائرة النخبة الداخلية فى إسرائيل لأعوام، كان يعمل فى وضع مماثل فى جنوب إفريقيا، وهى بيئة أوسع كثيراً. ومثل زهرة ليلية، كان ميلتشان ينشط ليلاً.

وعمدت الدول الغربية إلى اللجوء لوسطاء من دول ثالثة حول العالم للتجارة فى السوق جنوب الإفريقى المربح بينما كانت تعلن موقفها المعارض شكلياً للفصل العنصرى. ويمكن القول إن كل ماسة تم شراؤها فى العالم الغربى كان تم استخراجها فى الأصل من جنوب إفريقيا وبذلك كانت تلك الدول تساعد على التمويل المربح للمنظومة العسكرية جنوب الإفريقية.

وخافت إسرائيل من الدلالات السياسية وخاصة الرمزية لحظر السلاح ووجدت

أنه من الأجدى لها تقويضه بشكل سرى، حيث اعتقدت أنه كان من الممكن دفع الغرب لدعم الحظر ضد جنوب إفريقيا، ومهما كان ذلك غير مؤثر، فإنه بالإمكان الدفع بحظر مماثل ضد إسرائيل أيضاً. ولهذا تبنت إسرائيل سياسة عدم الالتزام بالحظر، بالرغم من أنها دعمته شفهياً بشكل كامل.

كان يجرى شراء أى نظام أسلحة تحتاجه جنوب إفريقيا، والذى كان بالإمكان شراؤه مباشرة من إسرائيل، من السوق الدولية، وبدلاً من أن تنتهى الشحنة فى إسرائيل كما هو مبين فى وثائق المستخدم النهائى، كانت تحول إلى جنوب إفريقيا. وسرعان ما أصبحت شركة ميلتشان أكبر مشتر لمعدات الدفاع العسكرى لصالح الحكومة جنوب الإفريقية.

لكن بقدر أهمية أنظمة الدفاع العسكرى وربحيته، كان اليورانيوم هو شاغل إسرائيل الرئيسى فى علاقاتها بجنوب إفريقيا، إذ إن المواد الخام المبدئية لمفاعل ديمونة كانت تأتى من فرنسا ومن خلال سلسلة عمليات سرية أخرى لوكالة لاكام. وسهل بلومبيرغ شراء أول شحنة وقدرها خمسون طناً من أكسيد اليورانيوم من جنوب إفريقيا، لكنهم كانوا يبحثون عن شىء أكثر خطورة من ذلك، وهو حقل اختبارات نووى. وكانت إسرائيل واثقة من كفاءة أول جيل لها من الأسلحة النووية، والتى تم اختبارها فى فرنسا. لكن عقب حرب يوم الغفران، طورت إسرائيل القنبلة النيوترونية والتى تنطوى على تكنولوجيا أكثر تعقيداً، وكانت تتطلب على الأقل اختباراً واحداً.

وفى مقابل نقل التكنولوجيا النووية الحساسة، وافقت جنوب إفريقيا فى النهاية على السماح لإسرائيل بالدخول إلى المساحة الشاسعة لصحراء كالاهارى والمحيط الأطلسى لأغراض التجارب النووية. وجاء النقل النووى فى هيئة التايتينيوم. وكان

الجنرال فان دين بيرغ تواقاً لشراء ثلاثين جراماً من التايتينيوم من إسرائيل، أى ما يكفى لصناعة اثنتى عشرة قنبلة ذرية. وكان التايتينيوم يستخدم لزيادة قوة الأسلحة النووية بواسطة إحداث اندماج مع القنبلة النووية الحرارية.

وفى عملية اسمها الحركى تيبلير أو أوراق الشاى باللغة الأفريكانية، سلمت إسرائيل اثنتى عشرة شحنة من التايتينيوم المصنع فى ديمونة إلى جنوب إفريقيا فى هيئة كبسولات صغيرة، زنة كل منها ٥ر٢ جرام. كان بنيامين بلومبيرغ وإسشيل رودى، وميلتشان، وآخرون يعملون كمرافقين فى الرحلات الخاصة لطائرة سى ١٣٠ التى تحمل الكبسولات. وأمنت تلك الصفقات مواقع التجارب، وبمرور الوقت، تم شحن ٥٠٠ طن أخرى من اليورانيوم لإسرائيل.

وبحلول أغسطس ١٩٧٧ كانت إسرائيل مستعدة لإجراء اختبار تحت الأرض فى موقع اختبارات صحراء كالاهارى الجديد، لكن قبل ذلك ببضعة أيام، فى ٣٠ يوليو، لاحظ قمر استطلاع اصطناعى سوفييتى الاستعدادات للاختبار لما افترضوا أنها قنبلة جنوب إفريقية. وأبلغ السوفييت قلقهم لواشنطن. وبعد سبعة أيام، أكد قمر اصطناعى أمريكى اكتشاف السوفييت. وأرسلت اعتراضات فورية من الحكومات الأمريكية، والإنجليزية، والفرنسية، والألمانية الغربية، وتم إلغاء الاختبار فجأة فى اللحظات الأخيرة. وكانت تلك نكسة، لكن لم يكن من المستحيل تخطيها.

كان ٢٢ سبتمبر عام ١٩٧٩، مساءً عادياً آخر. لكن كانت هناك عاصفة عاتية تهب فى المنطقة الجنوبية الغربية النائية فى المحيط الهندى.، وكان هذا معتاداً فى ذلك الوقت من العام. وعلى بعد آلاف الأميال، رصد التلسكوب اللاسلكى فى أريسيبو فى بورتو ريكو فجأة موجة كهرومغناطيسية شاذة فى السطح السفلى من طبقة الأيونوسفير الجوية منبعثة من منطقة المحيط الأطلسى والمحيط الهندى.

وفى ذات الوقت بالضبط، رصد قمر "فيلا" الاصطناعى الأمريكى وميضاً مزدوجاً مميزاً. وأبلغ بضعة صيادين تجاريين فى المنطقة عن وميض هائل فى الجوار قادم من جزيرة برينس إدوارد، والتى تقع على بعد ١٥٠٠ ميل جنوب غرب بليتينبيرغ باى. وأشارت بيانات مجسات الأشعة تحت الحمراء إلى ما يبدو كانفجار نووى، ربما من قنبلة نيوترونية ذات إشعاعات عالية. وساد الاعتقاد بأنه من المرجح أن التفجير قد تم على سفينة شحن تقع على مقربة من مركز قيادة عائم، ومن المحتمل أيضاً أنها انفجرت داخل حاوية صلبة مثل قبو تجارى.

انتظرت العقول المدبرة لتلك العملية بدهاء هبوب عاصفة قوية قبل البدء فى التفجير، إذ إن العاصفة كفيلة بإزالة الأدلة الإشعاعية فى البحر سريعاً. وعندما وصلت طائرات الاستكشاف الأمريكية إلى المنطقة لإجراء اختبارات على طبقات الجو، كانت العاصفة قد محت الأدلة بالفعل وكان لابد أن يستغرق الأمر أياماً قبل أن تصل سفينة مجهزة جيداً إلى الموقع لتجد القليل أو ربما لا تجد شيئاً.

كان البحر هائجاً ولم ترسل سفينة القيادة أية إشارات لاسلكية. كانت السفينة محملة بإلكترونيات معقدة ومجسات وكانت تتمايل بقوة. وعلى متنها كان العديد من العلماء والتقنيين الإسرائيليين وجنوب الأفارقة، والوسطاء الرئيسيين فى العلاقة النووية السرية. شاهدوا الوميض وشعروا ببعض الخوف، وكثير من الحماس والإثارة.

كانت تلك ضربة موفقة مفاجئة وإحدى العمليات الأكثر سرية التى أدارتها إسرائيل ولاكام. وبدأت تفاصيلها تظهر للعلن بعد سنوات، بعد سقوط حكومة الفصل العنصرى جنوب الإفريقية فى عام ١٩٩٥، بعد أن كانت إسرائيل قد أجرت اختبارها. وكانت قنبلة نيوترونية صغيرة حجمها التفجيرى يعادل ٢ أو ٣ كيلو طن،

وأثبتت مستوى عالياً من التطور.

واجتمع الخبراء الأمنيون الأمريكيون فى محاولة يائسة لفك شفرة البيانات، وكان مجهوداً بدأ فى الحال واستمر لأشهر تالية. استمر الجدل بشأن تفسير البيانات لأعوام، واستنتج معظم العلماء والخبراء النوويون عن يقين أنه كان انفجاراً نووياً. وكان الرئيس كارتر فى موقف حرج، إذ إنه وفقاً للقانون الأمريكى، إذا أكدت الولايات المتحدة علناً أن إسرائيل على صلة بالاختبار النووى، فسيكون على كل من الرئيس والكونجرس وفقاً للمادة ١٦ من قانون ١٩٦١ المنظم للمساعدات الأجنبية، قطع المعونات العسكرية والاقتصادية لإسرائيل.

وينص القانون صراحة على أن تحرم الدول التى تمتلك أو تنقل الأسلحة النووية، أو المواد النووية، أو التكنولوجيا خارج الأنظمة الدولية لحظر الانتشار النووى - مثل معاهدة حظر الانتشار النووى والتى لم توقعها إسرائيل - من تلقى أية معونات عسكرية أو اقتصادية من الولايات المتحدة. ولهذا السبب لم تعترف الولايات المتحدة يوماً علناً بالترسانة النووية الإسرائيلية، ولهذا السبب ظل اختبار ١٩٧٩ مغلفاً بالغموض.

وإذا كان هناك وسيط مالى فاعل فى حملة الدعاية العالمية المستترة لتحسين صورة جنوب إفريقيا، فقد كان هو ميلتشان، الذى قال إنه تصرف بناء على طلب بلده.

وأدار إسشيل رودى تدفق الأموال بشكل ثابت من شركة "ثور" للاتصالات التابعة لوزارة المعلومات، عبر حسابات أوروبية يسيطر عليها ميلتشان، والذى أنشأ بدوره شركات واجهة لشراء القنوات الإعلامية المؤثرة والهامة لجنوب إفريقيا.

ركز هو والعميلان جنوب الإفريقيان ديفيد أبرامسون وستيوارت بيغ أولاً على

الإعلام الإفريقى مثل ويست أفريكا، وهى مجلة هامة تصدرها أفترميديا إنترناشونال. واشترى التحكم الإدارى فى أفريكان ديفيلوبمينت وهى مجلة ربع سنوية. واشترك فى شراء يورأفريك، وهى مجلة شهرية تقرأ فى كل الدول الإفريقية المتحدثة بالفرنسية. ثم سعى جاهداً للسيطرة على عملاق النشر الإنجليزى مورغان غرامبين، وكان هذا تتويج العملية.

وعبر مورغان غرامبين كانت الخطة هى السيطرة على العديد من الصحف الهامة فى الغرب، ومنها الأويزيرفر فى إنجلترا، ولوكسبيريس فى فرنسا، وواشنطن ستار فى الولايات المتحدة، ولم يكن ثمة أداة أفضل من مورغان غرامبين للتحكم فى تلك الغنائم كما كتب إسشيل رودى فى كتاب فضيحة المعلومات الحقيقية الصادر عام ١٩٨٣ .

وفى نوفمبر ١٩٧٧، أفرج رودى عن ١,٨ مليون دولار لشراء أسهم كافية للسيطرة على إنفيستورز كرونيكال فى إنجلترا، وهى صفقة لم تتحقق. وجوهرياً نسق، رودى وميلتشان كشريكين، كل الأنشطة مستخدمين الحسابات السرية، والتى كان لها أن تنفجر لاحقاً فى وجهيهما!

١١

الوحـــــل

لا أستطيع أن أكون رساماً أو كاتباً، ولهذا قررت أن أكون منتج أفلام.

أرنون ميلتشان

ميلتشان رجل ذو نزعة فردانية، وقناص وحيد من نواح شتى، لكنه لديه ضعف تجاه الاستعراضات الضخمة للنشاط الإنساني المنسق، سواء كان في الحرب أو في الترفيه. يريد المشاركة فيه، لكن عن بعد ليس بالكبير، وبشروطه الخاصة.

وكالمعتاد، كان يحتاج إلى وسيلة جديدة للحفاظ على اهتمامه باللعبة. وأدرك أنه كان مؤمَّناً مادياً آنذاك بما يكفى ليجعله يخوض بعض المجازفات خارج نطاق مجاله المعتاد وبدأ يحقق فانتازيا قديمة بالعمل فى مجال الترفيه وصناعة الأفلام. إذ لطالما أحب السينما ونظر بإجلال إلى الممثلين الذين كان يشاهدهم على الشاشة. وأعجب بكتاب السيناريو الذين أبدعوا وصنعوا بنية القصص. وبالمخرجين الذين تمكنوا بطريقة ما من تنسيق المشروع وإدارته برمته. وكان مفتوناً بالقوى الإبداعية واللوجيستية التى تجتمع لإنتاج فيلم ناجح، وكان مفتوناً أيضاً بمجال صناعة الأفلام.

فى البداية مضى يزور مواقع الأفلام لمراقبة العملية. وتتذكر ابنته إليانور كيف كان والدها يجلس مع أبنائه ويشاهد الأفلام بلا توقف أثناء زياراته وتقول إن كل أفراد عائلتهم مدمنون للأفلام، وإنها أصبحت مهووسة منذ أن كانت فى

الخامسة بالأفلام من خلال أبيها.

وفى عام ١٩٧٦ قام ميلتشان بأول استثمار له فى مجال الترفيه. وفتح الباب له المنتج إليوت كاستنر، والذى سرعان ما تعرف على القدرات التمويلية للمليونير المفعم بحماس الشباب لتلك الصناعة الساحرة. كان كاستنر وكيل مواهب يهودياً أمريكياً قبل أن يعمل كمنتج. ونقل عملياته إلى أوروبا فى الستينيات، وبالرغم من أن مسيرته المهنية السينمائية فشلت فى إبهار النقاد، فقد نجح فى إنتاج العديد من الأفلام الشهيرة التى نجحت فى شباك التذاكر ومنها فيلم جسارة النسور، وهو فيلم حركة درامى عن الحرب العالمية الثانية من بطولة ريتشارد برتون، والذى قاد فريقاً من قوات الكماندوز فى عمق ألمانيا.

وقدم كاستنر ميلتشان بشكل ممنهج إلى اللاعبين الفاعلين فى هوليوود.

ويصف ميلتشان كيف قابل نجماً حقيقياً من هوليوود لأول مرة:

"كنت فى مطعم فى تل أبيب ذات ليلة عندما أتانى شخص وقال لى إن اسمه إليوت كاستنر. عجباً! الرجل الذى أنتج للتو فيلم ذا ميزورى بريكس. وكنت مجرد معجب آخر، لكنه سحرنى بشدة. وكان ينتج فيلم "أليتل نايت ميوزيك" مع إليزابيث تايلور فى أستراليا آنذاك. وقال "أو تَعلم، أنا واثق أن إليزابيث ستسعد بمقابلتك" فقلت "هل أنت جاد؟!" فقال "سأذهب إلى هناك غداً، تعال معى".

واتصل أرنون بأمه شوشانا فى الحال وقال لها:

لن تصدقى ما يحدث لى، سأقابل إليزابيث تايلور.

وآنذاك كان نجم إليزابيث تايلور قد بدأ يخبو، إذ كان وزنها قد ازداد ولم تعد فى الصدارة، لكنها كانت أسطورة هوليوودية بأصدق معنى للكلمة واحترمها أرنون بشدة.

وعقب العشاء المنتظر بلهفة مع تايلور، حسم أرنون أمره. وفى هذا يقول "دخلته واعياً، وأردت أن أُستَغل، وتطوعت لأكون المغفل المقبل فى مجال السينما. وأخبرت إليوت أننى أريد أن أعمل فى المجال. وفجأة صرنا نتعاون معاً فى صناعة الأفلام".

تُفسِّر عدة مواقف حماس أرنون المفاجئ لمجال صناعة الأفلام وكيف اختلطت بمشاريعه الأخرى. مثلاً، كان الكاتب البريطانى أنتونى سامسون قد أصبح مشهوراً نتيجة لمعارضته النشطة للفصل العنصرى فى جنوب إفريقيا، ولاحقاً أصبح كاتب سيرة نيلسون مانديلا. معارضة سامسون للعنصرية ودوره

كصحفي وكاتب مؤثر لم يمر مر الكرام على إسشيل رودى، وكونى مولدر، وجهاز الاستخبارات جنوب الإفريقي.

كان سامسون قد أصدر مؤخراً كتاباً أسماه "بازار الأسلحة، من لبنان إلى لوكهيد" يناقش العديد من صفقات الأسلحة الضخمة فى منتصف السبعينيات، ويركز بخاصة على جنوب إفريقيا.

بالطبع لم يكن سامسون يعى سوى جزء يسير من الحقيقة. وبعد إصدار الكتاب بفترة وجيزة، تلقى سامسون مكالمة فى شقته في لندن من إليوت كاستنر يقترح عليه إنتاج فيلم مقتبس من كتابه الجديد. وأوضح له أن ممول المشروع سيكون إسرائيلياً واسمه ميلتشان، وأنه جديد على مجال السينما وأنه أكثر شخص مبهر قابله فى حياته. وأكد أيضاً لسامسون أن الرجل يتحرك بسرعة الضوء، ليس لديه مكتب ولا سكرتير، ومكتبه فى رأسه، وإنه يغازل الخطر ويجوب العالم بحقيبة من الأموال مختلفة العملات، ارتاب سامسون لكنه وافق على الحديث معه.

وبعد محادثته مع كاستنر بفترة وجيزة، تلقى سامسون سلسلة من المكالمات الهاتفية السريعة من ميلتشان، والذى طلب منه أن يقابله على الفور. وبعد بضع ساعات، فتح سامسون بابه ليستقبل ميلتشان، والذى كان يرتدى حلة رياضية وحذاء التنس، ويحمل حقيبة سوداء ذات قفل رقمى من ٦ أرقام.

وصفه سامسون قائلاً: بدا وكأنه نجم سينمائى، وسيم، مبتهج، وساحر. شرح لى أنه يجنى أمواله من شركة الأسمدة والكيماويات التى ورثها عن والده.

قال ميلتشان: "أريد أن أكون مبدعاً ولا أستطيع أن أكون رساماً ولا

كاتباً، لذا قررت أن أصبح منتج أفلام وأريد أن أصنع فيلماً عن تجارة السلاح" وكان ذلك موضوعاً قريباً من قلبه.

ولم يكن لدى سامسون فكرة أنه يقابل محركاً رئيساً للأمور في جنوب إفريقيا، شخصاً كان من السهل أن يكون المادة الأساسية لكتابه.

تحدث الرجلان لفترة، بداية عن فيلم محتمل ثم لاحقاً تحدثا بشكل عام. وسرعان ما فهم ميلتشان أنه يتعامل مع رجل واسع الاطلاع ذى آراء مقنعة عن جنوب إفريقيا. لم يفتح قط تلك الحقيبة السوداء، واتفقا على أن يستأنفا نقاشاتهما التى لم ينتج عنها أى فيلم، لكن سامسون ألقى بذور الشك فى عقل أرنون بشأن أنشطته التى كان يقوم بها لحساب جنوب إفريقيا.

لكن صحوته الحقيقية عن حقائق الفصل العنصرى فى جنوب إفريقيا جاءت لاحقاً، وفى زياراته المعتادة لجنوب إفريقيا، عندما لم يعد يُستقبل لدى وصوله فى المطار بمراسم استقبال فخمه ولم يعد يصحبه المسئولون الحكوميون. وأثناء تلك الرحلات، استغل الفرصة لاستئجار سيارة جيب ليستكشف ما وراء المناطق المعزولة التى يتمتع البيض بالعيش فيها، لتتفتح عيناه على الحقيقة. وفى هذا الصدد نجده يقول:

"وجدت نفسى وجهاً لوجه مع أكثر فقر مدقع رأيته فى حياتى، إذ زرت بلدات وقرى صغيرة.

وكان الجور الذى شهدته تجربة غيرت حياتى. كنت حراً فى الذهاب إلى أى مكان أريده، وأدركت أن هذا ليس حال الناس الذين قابلتهم فى تجوالى. وكان هذا عبئاً يتثاقل على ضميرى. لكن كان ثمة واقعة قسمت ظهر البعير. ذات يوم زرت حديقة حيوان محلية، وعلى مدخلها لاحظت لافتة كتب عليها غير

مسموح بالسود ولا الأسيويين. ولم تكن تلك اللافتة الأولى التى رأيتها على تلك الشاكلة، لكن فجأة خطر ببالى أننى أسيوى وأخذت هذا على محمل شخصى بطريقة لم أفعلها من قبل. وعرفت أن التصريح الذى حصلت عليه عنصرى أكثر منه جغرافياً، لكننى ببساطة لم أستطع أن أحمل نفسى على الدخول.

ولم أستطع أن أمنع نفسى من التفكير فى العنصرية التى هربت منها عائلتى نفسها، أو فى أولئك الذين تخلفوا فى أوروبا وقتلوا بسبب التحيز".

فى تلك الليلة لم يستطع النوم. وفى الصباح حزم حقائبه واتجه إلى المطار، إذ اتخذ قراراً شخصياً بألا تطأ قدمه أرض ذلك البلد مجدداً أبداً حتى تنتهى منها العنصرية، وأنه سيفعل كل ما بوسعه للقضاء عليها.

أثناء تلك الفترة تعاون كاستنر وميلتشان فى إنتاج فيلم اسمه "Mad"، وتم تغييره لاحقاً إلى "ستيك أب" بطولة ديفيد سول. قال ميلتشان إن الفيلم كان سيئاً لحد أنه لم يضع اسمه ضمن القائمين على الفيلم، لكنه رفض أن تتثبط همته. تنطبق ملاحظة ونستون تشرشل أن صفة الشخص الناجح هى قدرته على الانتقال من فشل إلى التالى بدون أن يفقد أياً من حماسه على شخصية ميلتشان.

وفى مشروع الفيلم التالى تعامل مع منتج من نيوزيلندا وهو مارتن كامبل، فى فيلم من إنتاج عام ١٩٧٦ واسمه "بلاك جوى"، وكان موسيقياً كوميدياً مقتبساً عن مسرحية تحكى عن شاب أسود يصل من جزر الكاريبى إلى حى بريكستون القاسى المتحيز فى لندن، وينتقل من كارثة كوميدية إلى الأخرى، "الحياة موجودة لكى نعيشها كان شعار الفيلم"، و"دعونا من السياسة" كان معناه المضمر.

وتفاجأ الكثيرون عندما عرفوا أن فيلم "بلاك جوى" سيعرض بأسلوب لافت في مهرجان كان السينمائي المهيب وأن مخرجه أنتونى سيمونز رُشح لجائزة السعفة الذهبية.

وللحفاظ على المظاهر، اصطحب ميلتشان إسشيل رودى المفتون بالنجومية إلى مهرجان كان ذلك العام، حيث قدمه ميلتشان إلى صديقه رومان بولانسكى وآخرين فى مجال السينما. وعلى المائدة أيضاً كان ديفيد أبرامسون وستيوارت بيغ، خبيرى المال جنوب الإفريقيين اللذين كانا يعاونان وزارة المعلومات جنوب الإفريقية، وعملا عبر شركات الواجهة المملوكة لميلتشان لشراء القنوات الإعلامية المستهدفة. ولم يكونا يعرفان بأمر التغير الذى اعترى أرنون وأنه بدأ بالفعل يتجه إلى تقويض جهودهما.

لم تكن السينما فقط هى المجال الوحيد الذى بدأ ميلتشان يقتحمه. فى ٢٨ ديسمبر عام ١٩٧٦، افتتح مسرحية موسيقية فى برودواى اسمها "أيبى تومبى" وتعنى أين الفتاة؟ بلغة الزولو. وكانت أيبى تومبى مسرحية موسيقية جنوب إفريقية الأصل عن زعيم قبيلة إفريقى شاب تعانى قريته من الفقر والجفاف، ويسافر إلى المدينة الكبيرة على أمل أن يجد الثروة لينقذ بها قومه. وبدلاً من ذلك يجد الطمع، والفساد، والفنانين المحتالين. ومتحرراً من الأوهام يعود الشاب إلى قريته فى الوقت المناسب ليحول دون نشوب الحرب فيها.

كانت قصة تقليدية تشبه قصة فيلم "بلاك جوى"، ولم تشهد المسرحية الموسيقية سوى تسعة وثلاثين عرضاً فحسب. فى فبراير ١٩٧٧ . وفى ذات العام، اشترك ميلتشان وكاستنر فى إنتاج فيلمهما الثانى "ذا ميدوسا تاتش"، ولعب دور البطولة فيه ريتشارد برتون الأسطورى.

ويمكن وصف فـيلم "ذا مـيدوسـا تاتش" بأنه فـيلم مـؤامـرة شـيطانيـة سبعينياتي تقليدي، يماثل مزيجاً من سلسلتي أفلام "ذا إكسورسيست" و"ذا أومين" وأفلام الكوارث مثل "إيرثكويك" و"إيربورت"، إذ يؤدي ريتشارد برتون دور وسيط روحاني مهووس يحاول أن يقنع طبيباً نفسياً بقدرته الشيطانية على قتل الناس وعلى إحداث الكوارث من خلال قوة أفكاره.

كان الفيلم مقتبساً عن رواية لبيتر فان غرينواي، وظهر على غلاف الرواية طائرة ركاب ضخمة تصطدم في ناطحة سحاب. وبعد أعوام، ألهبت تلك الصدفة خيال نظريات المؤامرة عن حادث ١١ سبتمبر.

استثمر ميلتشان ٤٠٠ ألف دولار في فيلميه الأولين "ماد" و"بلاك جوي". وساهم بأكثر من نصف ميزانية فيلم "ذا ميدوسا تاتش" والتي قدرت بـ٤ مليون دولار.

سرعان ما تلقى مكالمة من اللورد لو غريد، وهو من أساطين المال الإنجليز، حيث دعا ميلتشان على الغداء ليناقشه في فيلم "ذا ميدوسا تاتش". وفقاً لجاك ماثيوز المحرر الفني في جريدة لوس أنجلوس تايمز، لم يستمر الاجتماع أكثر من نصف ساعة، اشترى فيها اللورد غريد حقوق عرض الفيلم بـ٥ مليون دولار. وبغض النظر عن احتمال فشل الفيلم، فقد كسب ميلتشان مليون دولار بالفعل. كانت المراجعات عن الفيلم جيدة في إنجلترا لكنه لم ينجح في الولايات المتحدة.

وعقب "ذا ميدوسا تاتش"، شعر ميلتشان أن كاستنر لا يشاركه الرؤية بشأن نوعية الأفلام التي يحلم بإنتاجها، وشعر أيضاً أن أفلامه لا تحقق نجاحاً في السوق الأمريكية، والتي انتوى ميلتشان غزوها. تعلم ميلتشان الأساسيات من كاستنر، وكان الوقت قد حان للمضي قدماً. ومضى كل منهما في طريقه.

لكن بحلول عام ١٩٧٨ كانت حرب إسشيل رودى وكونى مولدر المعلوماتية فى خطر كما كان محتوماً. وأعلن رئيس الوزراء جون فوستر استقالته فى ٢٠ سبتمبر وبدأ سباق محموم للحصول على منصبه وبدأ تنافس قوى بين مولدر ووزير الدفاع بى دبليو بوثا، لكن مولدر لم يتمكن من الحصول على دعم فوستر.

لكن الكلمة الأخيرة فى نتيجة الانتخابات كانت لشخص آخر يدعى بوثا، لا علاقة له ببى دبليو. كان وزير الخارجية بيك بوثا الذى كان قد ظل فى منصبه لوقت طويل، رجلاً متآمراً عنيداً يحب الترويج لنفسه، لم يكن يحب أياً من رودى أو مولدر، ورآهما كوجهين لعملة واحدة فى الساحة السياسية جنوب الإفريقية. وكان قد تعرض شخصياً لمحاولاتهما لإضعاف مكانته على مدى أعوام، حيث أبقياه ووزارته خارج دائرة الأحداث لمرات عدة.

وكانت الإطاحة بمولدر كمرشح أهل للثقة ستعزز من موقف بيك بوثا مع بى دبليو، والذى اشتهر بمكافأة المخلصين، وانتوى بيك بوثا مساعدة بى دبليو بوثا للفوز بمنصب رئيس الوزراء، لينتقم من مولدر ولينال مكافأته فى ذات الوقت.

كانت هناك طريقة واحدة تصلح لتقويض مكانة الدكتور كونى مولدر وموقفه الانتخابى فى الحال، وهى إثارة فضيحة مالية ضخمة تنطوى على اختفاء ملايين الراندات [عملة جنوب إفريقيا] أثناء حرب مولدر ورودى المعلوماتية الخبيثة.

وافترض رودى أن بيك بوثا تسلم تلك المعلومات المهلكة من خلال صديق مشترك سابق بينهما طعنه فى ظهره وكان أيضاً شريكاً فى العملية، وكان

اسمه ريتيف فان روين،ووفقاً لرودى، كان كاتم الأسرار الذى كان، بشكل ممنهج ومن وراء ظهره، يبلغ بيك بوثا بكل المعلومات الحساسة عن حرب المعلومات السرية.

لكن ما لم يكن رودى يعرفه هو أن ميلتشان وليس ريتيف فان روين، كان المصدر النهائى للتسريبات. كان ميلتشان بالفعل كاتم أسرار فضيحة المعلومات الكبرى فى جنوب إفريقيا،والتى تعد أكبر ضربة قاسمة لنظام الفصل العنصرى منذ أن وجد.

وفى الحال بدأت تطرح الأسئلة العامة عن شراء العديد من قنوات الإعلام العالمية وتظهر فى الصحف التى تساءلت: من أين أتوا بالمال؟ وفيم أُنفِق بالضبط؟ ومن المسئول؟ ومن المالك الفعلى لتلك القنوات الإعلامية الآن؟، كانت تلك كارثة مباشرة قاسية لكل من مولدر ورودى. وتم كشف العملية برمتها، ولأنها كانت سرية من البداية،لم تكن لها وثائق كثيرة،وتحمّل كل منهما العواقب كاملة. ولم يُرِد أحد بمن فيهم فوستر أن يبادر ويقر بأنه كان على دراية بالعملية برمتها، أو أنه وافق عليها.

وخلال أسابيع، تم تسمية تلك الفضيحة بمولدرجيت وتناقلتها كل الصحف،ليس فى جنوب إفريقيا فحسب بل وفى كل أنحاء العالم. أُهين رودى وأجبر على الاستقالة. وبقى مولدر لفترة أطول، لكنه استقال محفوفاً بالعار أيضاً. وهكذا أنهى ميلتشان حرب جنوب إفريقيا المعلوماتية السرية فجأة وبشكل محرج.

وذات يوم فى شقته فى باريس فى أوج زمن الفضيحة، تلقى ميلتشان زيارة مفاجئة من شخص قدم نفسه بلهجة جنوب إفريقية ثقيلة بأنه مبعوث من

بريتوريا. وأخبر هذا الشخص ميلتشان بعد ذاك بأنهم كانوا على علم تام بتسريباته وحذره قائلاً إن كان يعرف مصلحته هو وأطفاله، فعليه أن يغلق فمه الكبير المحب للزنوج. ويزعم ميلتشان بأنه لم يُخطِر بتلك الواقعة لا الموساد ولا لاكام حتى يتمكن من الاستمرار فى أجندته الخاصة، فى تقويض المؤسسة العنصرية بأكملها.

تنبأ إسشيل رودى بما كان ينتظره وهرب من البلد، أولاً إلى الإكوادور، ثم إلى كان فى جنوب فرنسا، حيث شرع فى تأليف كتاب يكشف فيه أركان المؤامرة. وبينما كان فى فرنسا تلقى رودى زيارة من الجنرال فان دين بيرغ، والذى نصحه بتجنب المغالاة فى مكاشفاته، خاصة وأنها مرتبطة بالجوانب الحساسة للعلاقة الإسرائيلية جنوب الإفريقية. والتزم رودى بنصيحته وحذف الإشارات إلى العملاء السريين الفاعلين من الكتاب بأكمله. لكن لسبب مستغرب، نسى أن يحذف اسماً واحداً من تلك القائمة وهو أرنون ميلتشان.

وفى الواحدة والربع من صباح ١٩ يوليو ١٩٧٩، قام رودى وقبَّل زوجته، وأخبرها أنه كان متوجهاً سيراً على الأقدام إلى الناصية لينتظر وصول صديق. وأخذ مفاتيح الشقة. ولم يتكبد حتى عناء توديعها إذ توقع أنه سيعود خلال دقائق بل إنه ترك محفظته.

وخرج من شقته ونزل السلم، وعبر الباب الأمامى إلى ضوء الشمس القوى. ولم يكد يخطو خمس عشرة خطوة عندما سأله صوت من ورائه السيد رودى؟. فالتفت، ليجد رجلين آخرين قد أطبقا عليه وأمسكاه من ذراعيه وهرعا به إلى سيارة مركونة أمام المبنى. وكان الثلاثة يرتدون ملابس عادية.

قال كبير الثلاثة بلهجة فرنسية ثقيلة "أنت مقبوض عليك"، وارتاح إذ كان

قد تخيل ما هو أسوأ من ذلك.

ولأول مرة فى حياته شعر رودى بالأصفاد تضيق على معصميه. كان متبلداً ومصدوماً، وسأل ما إن كان بإمكانه إبلاغ زوجته، لكنهم رفضوا ثم طلب أن يترك مفاتيح الشقة مع البواب، لكنهم رفضوا. وسألهم عن سبب القبض عليه، فلم يجبه أحد. وتم اصطحابه إلى مقر الشرطة فى نيس لأخذ بصماته، وحبسوه فى زنزانة قذرة، بدون سرير ولا كرسى، ولا مياه جارية، مجرد ثقب فى الركن ليستخدم كمرحاض.

وبعد عدة ساعات، تم إبلاغه وهو لا يزال فى الأصفاد، أنه قد صدرت بحقه مذكرة قبض وأنه سيتم ترحيله فى الحال إلى جنوب إفريقيا. وطلب الاتصال بعائلته لإبلاغهم لكن طلبه قوبل بالرفض. طلب محامياً وأيضاً قوبل طلبه بالرفض. وتبين أن محاميه الفرنسى أبلغ باختفائه، وشك فى أنه تم اختطافه بغرض الترحيل الفورى، وقدم بلاغاً بمبادرة شخصية منه.

صدمت الشرطة التى كانت قد حاولت ترحيله من البلاد قبل أن يحدث ذلك، عندما أصدر أحد القضاة أمراً طارئاً ببقائه. بدأت عملية طويلة وصعبة لتسليمه بينما كان هو قابعاً فى زنزانته الفرنسية القذرة.

وفى النهاية تم ترحيل رودى إلى جنوب إفريقيا وتمت محاكمته بتهمة تورطه فى تلك المؤامرة. أدين وحكم عليه بالسجن ١٢ عاماً، لكن الحكم تم إبطاله فى محكمة الاستئناف التى قضت بأنه كان يتصرف بصفته الرسمية بناء على تعليمات رؤسائه والذين كانوا على دراية كاملة بأنشطته. ورحل عن جنوب إفريقيا رجلاً يتجرع المرارة، وبدأ حياة جديدة فى الولايات المتحدة، حيث أصبح وكيل إعلانات فى منطقة أتلانتا، جورجيا. وفى ١٧ يوليو ١٩٩٣، وبينما

كان يلعب التنس الذى يحبه، انهار فى الملعب ومات بأزمة قلبية وهو فى الستين من عمره.

كانت فضيحة المعلومات جنوب الإفريقية حدثاً عالمياً مثيراً حيث كُشفت تفاصيل حملة تتضمن عشرات المشاريع لقمع صحافة المعارضة الداخلية وشراء التغطية الصديقة فى الخارج. تحمل رودى وطأة اللوم العظمى فى الفضيحة بينما تمكن المحرك المالى الرئيسى "أرنون ميلتشان" من تجنب التورط فيها. ولم تكن تلك هى المرة الأخيرة. إذ قبل فترة وجيزة من نهاية النظام العنصرى، نقلت جنوب إفريقيا كل موادها النووية تقريباً إلى إسرائيل، وكان من بينها التايتينيوم والقنابل الستة التى تحوزها. وأخطرت حكومة جنوب إفريقيا بعد ذلك الوكالات الدولية أنها قامت بتفكيك كل أسلحتها النووية.

وعلى حين أنه كان فى البداية يتخذ موقفاً متردداً بشأن الفصل العنصرى، إلا أن أرنون أصبح تدريجياً يناهضه بأسلوب نشط. وبحلول عام ١٩٩١، قبل ثلاثة أعوام من سقوط نظام الفصل العنصرى، أنتج أرنون فيلم "ذا باور أوف وان"، وأخرجه جون جى أفيلدسن مخرج الفيلمين الشهيرين "روكى" و"ذا كاراتيه كيد"، وكان الفيلم مقتبساً عن رواية لبرايس كورتناى عن دخول ناشط مناهض للعنصرية مرحلة النضوج أثناء حقبة الحرب العالمية الثانية فى جنوب إفريقيا. كان بطله بى كيه ذو السبعة أعوام فتى أبيض جنوب إفريقى تربى فى مزرعة عائلته على يد مربيته التى تنتمى إلى قلبية الزولو. وعندما مرضت أمه، تم إرساله إلى مدرسة داخلية أفريكانية، حيث كان يتم التحرش به وكاد يقتل على يد بلطجى المدرسة. ثم يصادق موسيقاراً ألمانياً، وملاكماً أسود سابقاً - والذى يلعب دوره مورغان فريمان - الذى يُعلّم بى كيه كيف يستخدم قبضتيه للدفاع عن نفسه.

وعندما يبلغ الثامنة عشرة من عمره، يصبح بى كيه الأمل الأبيض العظيم للأفارقة السود، ويشق طريقه بالملاكمة إلى قلوبهم وعقولهم. ويتحالف مع خصم قديم ملاكم، ويخوضان معاً صراع مناهضة العنصرية.

يمثل فيلم "ذا باور أوف وان" تحولاً مذهلاً لميلتشان، مقارنة بمواقفه فى الأعوام السابقة. قال ميلتشان: سأناضل طوال حياتى ضد العنصرية والفصل العرقى.

ثمة المزيد مما يقال بشأن ميلتشان والعنصرية وجنوب إفريقيا والتنس. فى عام ١٩٨٨ استضافت إسرائيل مسابقة تنس دولية دعى إليها لاعبون من جنوب إفريقيا. وكان رياضيو جنوب إفريقيا مُقاطَعين دولياً، لذا استغلوها كفرصة للمنافسة بالخارج. وكأمارة على العلاقة الخاصة بين البلدين، وافقت إسرائيل على إتاحة المسابقات الرياضية التى تشترك فيها جنوب إفريقيا. وفى تلك المسابقة شاركت بطلة التنس أماندا كويتزر من هوبستاد، جنوب إفريقيا ذات السابعة عشر عاماً لأول مرة دولياً، وأصبحت لاحقاً المصنفة الثالثة عالمياً، وهزمت لاعبات قويات مثل شتيفى غراف ومارتينا هينغيز. وبعد ذلك بفترة طويلة، أصبحت زوجة ميلتشان الثانية وأم أصغر أبنائه.

يمتلك الزوجان ضمن أماكن أخرى، منزلاً فى مدينة بليتينبيرغ باى الجميلة، المكان الذى وقع ميلتشان فى حبه منذ سنوات عديدة ماضية.

وفى أغسطس ٢٠٠٣، حضر أرنون وأماندا عيد الميلاد الثمانين لشمعون بيريز فى فندق هيلتون تل أبيب. وكمعظم الناس الذين يتحرون السرية، استقلا مصعد الخدم. ولدى نزولهما انضم إليهما بالصدفة ضيف آخر يتحرى السرية، وكان رئيس جنوب إفريقيا السابق إف دبليو دى كلارك، الحاصل على جائزة

نوبل للسلام والذى أشرف على تقويض النظام العنصرى. تعرف على أماندا فى الحال، لكنه لم يكن واثقاً من هوية الرجل الواقف إلى جوارها. وكما تتذكر أماندا، عندما قدمت رفيقها أرنون ميلتشان، تعرف دى كلارك على الاسم فوراً، ورفع حاجبيه، وابتسم وقال "لقد فعلت أشياء هامة لجنوب إفريقيا".

١٢

مذنب بالاشتباه

لنقُل إنه لا يوجد شيء تفعله إسرائيل والولايات المتحدة بشكل مستقل عن بعضهما.

أرنون ميلتشان لمجلة لوس أنجلوس أبريل ٢٠٠٠

كانت الأموال تتدفق. واستمرت إيرادات المشاريع فى إيران. واستمرت ميلكو وعمليات أخرى فى تلبية مهامها لتوفير التكنولوجيا والمواد الداعمة لبرامج إسرائيل النووية والصواريخ الباليستية.

١٢

كانت الخطوات التى اتخذها ميلتشان لصالح إسرائيل فى جنوب إفريقيا قد آتت ثمارها الوفيرة، إذ ازدهرت واردات الدفاع العسكرى وصادراته وزادت المخصصات التى يخصصها الكونجرس الأمريكى سنوياً للمعونة العسكرية، فيما استمرت شركة ميلتشان إخوان فى أنشطة توزيع الأسمدة والكيماويات المربحة. وأثناء كل ذلك كان ميلتشان غارقاً فى علاقة ملتهبة بالحسناء السويدية أولريكا.

أثناء تواجده فى إسرائيل وبعيداً عن قاعدته فى باريس، كان أرنون يقضى معظم وقته فى عقد الاجتماعات فى ملهى خاص جديد افتتحه صديقه رافى شولى فى أبريل ١٩٧٧ فى شمال تل أبيب. وسُمى المكان الجديد "الملهى" ببساطة.

وإن كان "مانديز" هو مركز مجتمع النخبة الإسرائيلى، فقد تجاوز "الملهى" ذلك بمراحل. إذ كان منعزلاً وحصرياً، وتم اختيار أعضائه بعناية من النخبة

الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، من قبل لجنة عضوية متشددة. وأضفى هذا جواً من السرية حيث كان ينتظر من الأعضاء استخدام نفوذهم للعناية ببعضهم البعض.

يوم الجمعة ١٠ ديسمبر ١٩٧٦، هبطت ثلاث طائرات إف ١٥ مقاتلة فى قاعدة تل نوف الجوية خارج روحوفوت، مما جعل إسرائيل الدولة الأولى بخلاف الولايات المتحدة التى تمتلك طائرات إف ١٥. لكن بسبب الرياح المعاكسة التى واجهتها الطائرات فى رحلتها الطويلة، بالإضافة إلى التزود بالوقود فى منتصف المسافة، فقد هبطت متأخرة فى ذلك اليوم، هبطت ويوم السبت المقدس يوشك على البداية.

ونتيجة لذلك، لم يتمكن عدد من الوزراء المتدينين من العودة لمنازلهم من

مراسم الاستقبال في موعدهم، وأجبروا على انتهاك قدسية يوم السبت. وكانت تلك هي القشة الأخيرة بالنسبة لبعض السياسيين، وترك بعض من أعضاء الكنيسيت المتدنيين الائتلاف الحاكم، بما سبب انهيار أول حكومة لرابين وتمت الدعوة إلى انتخابات جديدة.

لكن المفاجأة التى زلزلت إسرائيل عقب انتخابات الدورة التاسعة من الكنيسيت في ١٧ مايو ١٩٧٧، صدمت البلد فى عمقه السياسى، وكانت هى وصول حزب الليكود المحافظ بقيادة مناحم بيجين، إلى السلطة لأول مرة، وأقصى بذلك حزب العمل، والذى كان قد هيمن على الحياة السياسية فى البلد بشكل أو آخر منذ قيامها. وفجأة أصبح بنيامين بلومبيرغ مدير وكالة لاكام يقف على أرض غير صلبة. وغدا مدير ميلتشان ومعلمه فى خطر حقيقى من خسارة منصبه إذ سعت الإدارة الجديدة إلى تعيين رجالها فى المناصب الهامة. كان وزير الدفاع الجديد عيزر وايزمان -ابن شقيق حاييم وايزمان أول رئيس لإسرائيل- يسعى للتخلص من بلومبيرغ ليحل محله موالٍ للحزب.

لم يكن بلومبيرغ ليستسلم بسهولة، وذهب مباشرة إلى رئيس الوزراء بيجين، ودفع بأن عضويته فى لجنة الطاقة الذرية الإسرائيلية، ومسئوليته عن مجمع المفاعل فى ديمونة، وموقعه القيادى فى برنامج الأسلحة النووى، وتوليه المباشر لشبكة إسرائيلية من العملاء السريين غير الرسميين حول العالم يعنى بأنه يتلقى أوامره مباشرة من رئيس الوزراء لا من وزير الدفاع.

ولم يكن بيجين أخرق سياسياً، وبخلاف العديد من وزرائه، لم يكن ليتسرع فى التخلص من الأشخاص الموهوبين بسبب ميولهم السياسية. واقتنع بيجين بحجة بلومبيرغ، وأصدر أمراً بإلغاء إقالته. ومن الواضح أن بيجين فهم أن

برنامج إسرائيل النووى، وتطور الصواريخ الباليستية فيه، وأنشطته الاستخباراتية لم تكن دُمَى سياسية يُلعب بها.

وتأقلم ميلتشان سريعاً مع القادة السياسيين الجدد فى إسرائيل، وكان شمعون بيريز صديقه المخلص، لكنه سرعان ما كون صداقات حميمة مع آخرين، ومنهم وزير الدفاع الجديد عيزر وايزمان. كانت صداقاته وعلاقاته عميقة ومنتشرة فى كل الأطياف السياسية، بما جعله بمثابة جسر بين المؤسسة الاستخباراتية والحكومة الجديدة، وهو دور لا يزال يلعبه مذاك، فى كل حكومة إسرائيلية تقريباً.

وفى الأعوام التالية، تسلمت إسرائيل ١٢٠ طائرة إف ١٥، وبحلول عام ١٩٨٠عقب سقوط الشاه فى إيران، حلت الطائرة إف ١٦ محلها فى الترسانة الجوية الإسرائيلية. وكانت طائرات إف ١٦ تلك، مصنعة خصيصاً لأجل إيران لكن تم نقلها إلى إسرائيل بعد سقوط الشاه فى ١٩٧٩ .

فى الواقع، تزامن حدثان فى تلك الآونة حفزا على زيادة المعونة العسكرية الأمريكية إلى إسرائيل، أولهما كان الثورة الإيرانية، والتى أنهت اهتمامات ميلتشان بإيران، وثانيهما كان اتفاقية كامب ديفيد الموقعة فى ١٧ سبتمبر عام ١٩٧٨ . وبالرغم من أن سقوط الشاه كان هزيمة استراتيجية لكل من إسرائيل والولايات المتحدة، فقد عزز من مكانة إسرائيل بصفتها الحليف الوحيد الذى يمكن الاعتماد عليه فى المنطقة بأكملها، وكان جزء من اتفاقية كامب ديفيد يشترط زيادة كبيرة فى المعونة العسكرية الأمريكية مقابل موافقة إسرائيل على الانسحاب الكامل من شبه جزيرة سيناء.

ولأول مرة استفادت أنشطة ميلتشان من اتفاقية للسلام، بالرغم من أن

المحرك الرئيسى لأرباحه كان قد ظل يتمثل فى أنظمة الدفاع العسكرى المتقدمة. وكان جيش الدفاع الإسرائيلى يعرف أن لطائرتى إف ١٥ وإف ١٦ منصات صواريخ متطورة، لكنها ستحتاج لأحدث الصواريخ لبلوغ كامل إمكانياتها. وهنا أتى ميلتشان وعملاؤه بتركيبة فاعلة منحت جيش الدفاع الإسرائيلى التفوق التكنولوجى النوعى على كل خصومه فى المنطقة.

كان صاروخ إيه آى إم ٧ سبارو الجو/ جو الموجه متوسط المدى النشط جزئياً، والذى بلغت قيمة الواحد منه ١٢٥ ألف دولار بأسعار ٢٠٠٩، مناسباً لجيش الدفاع الإسرائيلى. وكان سبارو ومشتقاته هى صواريخ جو/ جو تتخطى مدى الرؤية الأساسية فى الغرب حتى السنوات المتقدمة من التسعينيات. وكان من بينها أيضاً صاروخ إيه آى إم ٩ سايدويندر الحرارى قصير المدى الجو/ جو والذى تبلغ قيمته ٨٥ ألف دولار للصاروخ الواحد. وكانت شركة ميلتشان بروس هى والشركات التابعة لها تجلب الأنظمة، التى ثبتت فاعليتها المرة تلو الأخرى، من خلال إسقاطها مرات عديدة طائرات للعدو. وفى ٢٨ أبريل ١٩٨١، أسقط صاروخ إيه آى إم ٧ مروحية إم آى ٨ السورية سوفييتة الصنع وفى ١٤ يوليو من نفس العام دمر صاروخ إيه آى إم ٧ طائرة ميج ٢١ سورية.

ضخمت عمولات ميلتشان التى كانت تقدر بملايين الدولارات من تلك المبيعات حسابات إسرائيل السرية، ووسعت بشكل هائل مجال أنشطتها السرية فى أنحاء العالم ومداها.

وقبل ذلك بشهر فى ٧ يونيو ١٩٨١، أقلعت قوة جوية ضاربة مكونة من ١٦ طائرة من قاعدة عتصيون الجوية فى شبه جزيرة سيناء، وحلقت على ارتفاع منخفض، عبر خليج العقبة، إلى جنوب الأردن، ثم عبر شمال السعودية. وأيضاً

ظلت طائرتان إف ١٥ تحلقان فوق السعودية لنقل الاتصالات والرسائل إلى إسرائيل.

ثم أكملت الطائرات الست عشرة من طراز إف ١٥ وإف ١٦ رحلتها حتى موقع مفاعل أورنراك النووى العراقى فى التويثة. وكانت كل طائرة إف ١٦ تحمل قنبلتين من طراز "مارك" ٨٤ زنة ٢٠٠٠ رطل للقنبلة. وكانت تلك القنابل غير موجهة، وتتطلب المناورة بالقرب من الهدف. ووصلت القوة الجوية الضاربة بالقرب من أوريزاك بدون أن تُرصد وهى تحلق على ارتفاعات منخفضة وحامت حول نقاط كانت قد حددت مسبقاً لتبدأ جولات القصف، بينما كانت طائرات إف ١٥ تطوف فى مسرح العملية لاعتراض المقاتلات العراقية التى قد تحتشد.

أصابت ثمانى قنابل، على الأقل، من بين القنابل الست عشرة التى ألقيت على القبة العازلة للمفاعل ودمرته بالكامل. وكان ذلك من أول الأمثلة على الهجمات الدقيقة، وكانت تلك بالتأكيد أول هجمة مسجلة لتدمير منشأة نووية لبلد آخر. وعادت كل الطائرات الإسرائيلية سالمة إلى قاعدتها.

وتقلصت طموحات العراق النووية لتصبح كومة من الحطام، ولم تتعاف قط. واستمر تقدم برنامج إسرائيل النووى بأسلوب عدوانى سريع.

عادت الكرايترون أو تلك الأنبوبة الكهربية الصغيرة بريئة المظهر التى تستخدم أيضاً كأجهزة شديدة الفاعلية لإطلاق الانفجارات النووية، عادت فى عام ١٩٧٩، مستترة فى مؤخرة قائمة طويلة من القطع الحساسة التى أرسلتها ديبورا بن إسحاق فى هيئة مشفرة إلى ريتشارد سميث فى ميلكو.

لم يكن المال هو المشكلة بالتأكيد، بما أن مفاتيح الكرايترون كان ثمنها ٧٥ دولار للواحدة، ربما كانت أصغر وأرخص قطعة تم طلبها من قبل الشركات

المرتبطة بشركة ميلتشان بروس، والتى كانت آنذاك تطلب المواد الخام والتكنولوجيا بمئات الملايين من الدولارات. لكن المشكلة الكبرى كانت فى الطبيعة الحساسة للغاية لتلك القطع الصغيرة وفي القدرة على تمريرها عبر جمارك الصادرات الأمريكية المزعجة.

ومن الواضح أن بلومبيرغ شعر أنه قد مر وقت كاف يسمح للقيام بمحاولة لتمريرها مرة أخرى. وبدلاً من طلب كمية كبيرة، حاول سميث إرسال شحنات عديدة مكونة من ٣٠ أو ٤٠ وحدة كرايترون على أمل أن تمر من تحت أنف الرادار. وقال سميث إن ميلتشان اتصل به شخصياً للتأكد من فهمه لأهميتها وضرورتها. وكان سميث يعتمد على ميلتشان بروس وكان تواقاً لإرضاء الشركة.

وبحث سميث فى كتاب لوائح صادرات وزارة التجارة ووجد أن الأنابيب الإلكترونية المعبأة بالغاز لها العديد من الأغراض التجارية. لاحظ أن اسم الفقرة الأنابيب الثنائية، الثلاثية، والخماسية وعنوانها الأنابيب المعبأة بالغاز. واستنتج أن تلك القطع، يمكن شحنها بدون ترخيص تصدير ذخائر. وكان بحوزة سميث كتالوج المصنع، والذى كان يحوى صورة مرسومة باليد للكرايترون، الذى بدا بالضبط وأن ثمة خمسة أسلاك تخرج منه، بما يجعله أنبوباً خماسياً. وقرر بعد ذلك استخدام كتاب لوائح وزارة التجارة للمفاتيح الخماسية على الغلاف، وكان اكتشاف السلطات الأمريكية لشحنات الكرايترون إلى شركة ميلتشان بدون رخصة ذخائر لابد وأن يكون مصدراً لحيرته.

وبدا الأمر وكأنه مجازفة، بالنظر لأن شركة ميلكو قد رُفض طلبها لاستصدار تراخيص تصدير الكرايترون فى الماضى. وفى حالة ظهور محاولة التصدير السابقة، ستكون حجته هى "عذراً! لقد نسيت". وكان مقرراً لشحنات الكرايترون

أن ترسل إلى شركة هيلي تريدينغ ليتد، وهي شركة تابعة لشركة ميلتشان بروس، تستخدم في الأساس لصفقات المروحيات. وسجل المستخدم النهائي مجدداً بأنه شركة روحوفوت إنسترومينتس ليتد. وتم تصميم الشحنات بحيث تتجنب الشكوك وكتب عليها أنابيب الكاثود البارد المعبأة بالغاز. ولم تذكر كلمة كرايترون. وكانت تلك الأولى من ١٣ شحنة، بإجمالي ٨١٠ مفتاح نووي على الأقل، أرسلت من شركة ميلكو كل بضعة أشهر ما بين أعوام ١٩٧٩ و١٩٨٢ .

وبالرغم من أن ميلتشان كان قد وعد في الأصل بتمرير معظم المشروعات مع كبار متعهدي معدات الدفاع العسكري الأمريكية عبر شركة ميلكو، فقد فهم سميث وتوقع أن دوره لا يتعدى عميل واجهة، إذ يُؤَمّن الأغراض الغربية التي يصعب الحصول عليها، وأن ميلتشان استخدم خيارات أخرى للعمليات المعتادة. وهكذا، وربما بدون أن يدرك، أصبح سميث عميلاً آخر في وكالة لاكام.

وتمكن سميث من شحن محتويات قوائم إسرائيل الطويلة من المنتجات الحساسة، مثل المحاكيات التدريبية لصواريخ الدفاع الجوي، وأجهزة التشويش على الصوت والليزر، وأنظمة الطيران ذات التحكم الآلي، البطاريات الحرارية، الجيروسكوب لأنظمة توجيه الصواريخ، وأي شيء آخر تقريباً قد يحتاجه بلد ليتحول إلى قوة عظمى عالية التقنية مسلح نووياً.

وبالرغم من عدم تركيزه، كان سميث عميلاً ماكراً، واسع العلاقات، له تصريح أمني متقدم مكنه من البحث عن المكونات المصيرية لإسرائيل في وضح النهار وشرائها وشحنها. وكان دءوباً في إخطار الاستخبارات الأمريكية بأنشطته وفي تقديم نفسه كرجل أمريكي وطني. لكن الشيطان كان يكمن في التفاصيل.

طالما كانت الطلبات تُسلَّم، كان حساب سميث المصرفي ينمو ومعه حساب

الشركة نفسها. وبخلاف زوجته وأبنائه، فقد انضم إلى الشركة العديد من الموظفين، وتم افتتاح مكتبين فرعيين صغيرين آخرين في منطقة واشنطن دي سي، في الأساس للمساعدة في تأمين التراخيص المتعددة للصادرات، وللحفاظ على العلاقات مع الموردين، والذين كان لدى أغلبهم مكاتب في تلك المنطقة، وتم تعيين غريتيل سيلر ابنة سميث مسئول حسابات وأمين خزانة للمؤسسة، وكانت هي الأخرى على دراية تامة بالصفقات التي تتضمن شراء الكرايترون وأغراض أخرى.

وعين ميلتشان العديد من زملائه المحترفين الموهوبين في مجلس إدارة ميلكو، مثل روبرت مينهارت وهو عالم نووي جليل، وأرثر بيهل المدير السابق لتصميم القنبلة الهيدروجينية في معمل لورانس ليفرمور الوطني، وإيفان أليكساندر غيتينغ وهو عالم فيزياء وهندسة كهرباء ينسب إليه اختراع نظام "تحديد المواقع الكوكبي" أو "جي بي إس". وعندما انضموا لمجلس الإدارة، زعموا أنهم كان لديهم انطباع بأنهم ينضمون لشركة تتعامل مع تطوير أنظمة الطيران للقوات الجوية الأمريكية ولوكالة ناسا.

كانوا يعرفون ويحترمون ريتشارد كيلي سميث من مجالس الإدارة المتعددة والمهام التي خدموا فيها معاً في البنتاجون. ومثل سميث فقد كان لديهم كلهم تصاريح أمنية بالغة السرية تمكنهم من الوصول لأحدث التكنولوجيا العسكرية الأمريكية والمتعلقة بالطيران، وكانوا مؤهلين جيداً للجلوس ضمن مجلس إدارة أي شركة فضاء جوي.

وأثناء العام ذاته، وقعت ميلكو عقداً تمدّ بمقتضاه كل أنظمة التحكم للطائرة لافي، وهي طائرة مقاتلة إسرائيلية متقدمة واعدة متعددة الأغراض، وكان الغرض

منها أن تحل محل أسطول طائرات سكايهوك العتيق لتصبح الطائرة المقاتلة الأولى، وهو مشروع تم إجهاضه لاحقاً عام ١٩٨٧ تحت ضغوط أمريكية على إسرائيل لشراء الطائرة إف ١٦ بدلاً منها. ولسداد تكلفة طائرات "لافى" باعت إسرائيل تصميماتها إلى تايوان ولاحقاً إلى الصين، والتى طورت الطائرة شينغدو جيه ١٠ المتقدمة اعتماداً على تصميمات لافى.

ولم تكن لإسرائيل علاقات دبلوماسية رسمية مع الصين حتى مطلع التسعينيات، لكن فى السبعينيات ومطلع الثمانينيات ركز ميلتشان على تايوان كسوق مفتوح طبيعى. ووفقاً لسميث، فقد كانت ٢٠٪ من إجمالى مشاريع شركة ميلكو مع تايوان. وكانت تايوان وليست الصين هى أكثر من استفاد من صفقات تكنولوجيا الدفاع العسكرى مع ميلتشان وميلكو. وكما هو الحال مع جنوب إفريقيا، فقد تعاملت إسرائيل كوكيل عن الولايات المتحدة، وكانت تمد تايوان بأنظمة الأسلحة والتكنولوجيا النووية بعد أن شعرت الولايات المتحدة بعدم الارتياح لفعل ذلك نظراً لعلاقتها بجمهورية الصين الشعبية. وكما هو الحال مع جنوب إفريقيا، فقد عمل ميلتشان كوسيط فى تلك العلاقة.

وفى النهاية اقتنع الصينيون وفتحوا علاقات ثنائية مع إسرائيل، مما أدى لانخفاض شديد فى شحنات الدفاع العسكرى الإسرائيلية إلى تايوان وزيادة المبيعات فى الصين، ولم يكن ثمة حاجة لوجود وسطاء. وبحلول عام ١٩٩٢، تحققت العلاقات الدبلوماسية الكاملة بين إسرائيل وجمهورية الصين الشعبية، وتقلصت مبيعات ميلتشان فى تايوان كلياً تقريباً.

بالإضافة لإمداد الحكومات الأجنبية باحتياجاتها، شجع ميلتشان سميث على تكوين صورة محترمة وشرعية لميلكو كشركة تخدم مصالح احتياجات الدفاع

العسكرى الأمريكية بالعمل مع وزارة الدفاع الأمريكية البنتاجون. لكن بالطبع، كانت مهمته الكبرى هى توفير الإمدادات لاحتياجات الدفاع العسكرى الإسرائيلية ووفقاً لعضوى مجلس إدارة شركة ميلكو إيڤان غيتينغ وأرثر بيهل، فقد لاحظا منذ البداية المبكرة لعملهما فى شركة ميلكو أن سميث كان يقضى معظم وقته ويبذل طاقته فى شراء مواد ومعدات مزدوجة الاستخدامات لإسرائيل، تشمل مواداً ذات طابع نووى. وكان سميث يسعى جاهداً لشراء منتج مشتق من اليورانيوم اسمه الملح الأخضر يمكن معالجته ليصبح فى جودة يورانيوم الأسلحة. وفى هذا، يقول بيهل "لم يكن لدىّ دليل على حدوث أى شىء مخالف وظننت فقط أنها طريقة غريبة لأداء العمل، وكنت أتساءل لِمَ يدفع الإسرائيليون تلك المصاريف بينما يستطيعون أن يشتروا نفس المعدات مباشرة بأموال المعونة الخارجية الأمريكية".

ظل هناك تساؤل حول لجوء إسرائيل لاستخدام وسيط تدفع له تكاليفه على الرغم من أن الولايات المتحدة لم تمانع فى تلقى إسرائيل تلك الأغراض. وعندما سأله صحفى من جريدة واشنطن بوست بعد أعوام عن سبب استخدام إسرائيل وسيطاً لجلب بعض الأغراض، أجاب يوسى غال المتحدث باسم السفارة الإسرائيلية باقتضاب لأن إسرائيل تفضل أحياناً استخدام خدمة الوسطاء، وما لم يستوعبه صحفى واشنطن بوست أن عمليات الشراء الإسرائيلية بأموال المعونة الخارجية الأمريكية كانت يوثق لها فى السجلات العامة، لكن استخدام الوسطاء صعَّب على المراقبين الخارجيين متابعة ما تشتريه إسرائيل بالضبط، بما أن المبيعات لم تكن إلى الحكومة الإسرائيلية، لكنها كانت إلى كيان آخر، وأحياناً إلى كيانات متعددة. وفى الواقع، كانت تلك من ممارسات الاستخبارات المضادة الشائعة. أما حقيقة أن العمولات كانت تستخلص من العمليات وتحول إلى حسابات سرية يتحكم فيها ميلتشان لتمويل أنشطة إسرائيل السرية فلم تدخل

فى صلب النقاشات الدائرة.

وكانت الإدارة الأمريكية على اطلاع إلى حدٍ كبير بتلك الأنشطة، واتبعت سياسة لا تسأل، ولا تخبر والموافقة المضمرة غير الرسمية. لكن لم يكن بالإمكان إرسال تلك الرسالة إلى المستويات الدنيا من المسئولين عن تطبيق القانون.

وصف روبرت مينهارت عضو مجلس إدارة ميلكو والعالِم النووى فى برنامج ٦٠ دقيقة على شبكة سى بى إس فى عام ١٩٩٠ كيف بدأ يشعر بعدم الارتياح لشركة ميلكو بعد واقعتين تتعلقان بميلتشان. حدثت الأولى عندما سأله ميلتشان عن تصميمات مفاعل نووى متقدم، والثانية حينما طلب ميلتشان عنصر الكلور السداسي، وهو عنصر أخر مفيد فى عملية تخصيب اليورانيوم. ويزعم أرثر بيهل أن ميلتشان قدمه شخصياً إلى مسئول إسرائيلى سأله عن طريقة الوصول إلى المواد النووية من دون اللجوء للحكومة. ويزعم بيهل أنه أبلغ المباحث الفدرالية إف بى آى بتلك الواقعة فى الحال واستقال من مجلس إدارة شركة ميلكو. وبحلول عام ١٩٨٢، كان الثلاثة كأعضاء فى المجلس قد استقالوا من مجلس الإدارة. وبالإمكان النظر إلى تصريحاتهم اللاحقة فى سياق أنهم رجال كانوا يسعون لحماية أنفسهم بعد الأفعال التى ارتكبوها. ويزعم ميلتشان أن حديثه مع روبرت مينهارت لم يأت به أى ذكر لمفاعل نووى، وكان بخصوص تطوير نظام جديد يترجم النوتة الموسيقية إلى اتصالات مرئية، وهو مشروع كان يعمل عليه وصديقه الممثل ريتشارد دريفوس. ولعب دريفوس دور البطولة فى فيلم "كلوس إنكاونترز ويذ ذا ثيرد كايند" من إخراج ستيفن سبيلبرغ، والذى عرض نظاماً كهذا للتواصل مع الفضائيين.

وبالرغم من الاستقالات، كانت شركة ميلكو تعمل بكامل كفاءتها. وأثناء كل

تلك الفترة، استمر سميث فى العمل فى مجلس إدارة شركة روكويل إنترناشونال. وعلى الرغم من أن منصبه لم يكن يتطلب عملاً كثيراً، فقد سمح له بالحفاظ على تصريحه الأمنى بالغ السرية.

فى تلك الأثناء، كان اهتمام ميلتشان بالأفلام يتزايد. وكان استثماره الأول والوحيد الحقيقى فى السينما الإسرائيلية فيلم إسرائيلى اسمه ديزنغوف ٩٩، من إنتاج عام ١٩٧٩ عن مجموعة من الشباب الإسرائيلى الذين -مثل ميلتشان- أضيبوا بعدوى فيروس صناعة الأفلام ويسعون لصناعة فيلم للتوعية الاجتماعية. وترك فيلم ديزنغوف ٩٩ علامته فى إسرائيل بفضل مشهد جنسى طويل وجرىء بالنسبة لتلك الحقبة، تمارس فيه البطلتان "أنات أتزمون" و"جالى أتارى" الجنس فى ذات الوقت مع بطل الفيلم غيدى غوف. وينتهى الفيلم برحيل غوف عن إسرائيل إلى الولايات المتحدة بعدما أصابه الإحباط من محدودية صناعة السينما بإسرائيل وصعوبتها.

سئل ميلتشان مرات عديدة عن سبب عدم استثماره ثانية فى صناعة السينما الإسرائيلية منذ فيلم ديزنغوف ٩٩ . يمكن التوصل للإجابة بطرق شتى فى نص الفيلم نفسه. لم يكن ميلتشان يهتم بالسوق المحلى المحدود، وكان يهدف إلى تنفيذ مشروعات كبرى. وأراد أن ينتج أفلاماً يشاهدها العالم بأكمله وعنه. ولم تكن السوق المحلية الصغيرة تناسب طموحاته الواسعة أو احتياجاته المهنية.

وفى ١٣ مايو عام ١٩٨٠، افتتح ميلتشان مسرحيته الموسيقية الثانية فى برودواى بعنوان "من اللطيف أن تكون متحضراً"، فى مسرح مارتن بيك فى نيويورك هذه المرة. واستمر العرض لـ٢٣ دورة بحشود أجهزت على تذاكره. وبعد ذلك أتى النقد اللاذع من الناقد المسرحى فى جريدة نيويورك تايمز فرانك

ريتشارد، وفى الليلة التالية بيعت ١٤ تذكرة فحسب.

كانت تلك تجربة مريرة وأنهت مؤقتاً مسيرة ميلتشان القصيرة كمنتج لمسرحيات برودواى الموسيقية. وبدلاً من ذلك وجه انتباهه لمسلسل تليفزيونى مبهر كان يفكر فيه. وسرعان ما طرح على شبكة إيه بى سى فكرة مسلسل قصير تاريخى عن الحصار الرومانى القديم لماسادا. وأعلن اقتراحه هذا عندما كانت المسلسلات التاريخية القصيرة لا تزال فى قمة نجاحها، وبدأ الأمر بمسلسل "الجذور" عام ١٩٧٧، وجزئه الثانى "الجذور: الجيل التالى" عام ١٩٧٩، وعرض كلاهما على شبكة إيه بى سى. ونافستها شبكة إن بى سى بمسلسل "شوغون" الناجح، والذى رواه أورسون ويلز وقام ببطولته ريتشارد شامبرلين.

حتى آنذاك، كانت شبكة إى بى سى مهيمنة على ذلك النوع من الأفلام حتى مسلسل "شوغون" لذا، ودّت لو استطاعت الرد على منافستها، واقترح ميلتشان ما شعروا وأنه فكرة ملائمة. وبالطبع كان من المقبول أنه أخذ على عاتقه التوقيع على عقد ضمان إكمال العمل لتمويل المشروع بأكمله، بالاشتراك مع استوديوهات يونيفرسال. وأعطيت إشارة البدء من مديرى شبكة إيه بى سى. وأتاحت تراجيديا "ماسادا" القديمة فرصة جيدة لإسرائيل لشرح معضلتها الأمنية الصعبة للجمهور الأمريكى ولتوضيح سبب احتياج إسرائيل، ذلك البلد الصغير المحاط بأعداء أقوى منه بمراحل، اتخاذ إجراءات استثنائية حتى لا تسقط "ماسادا" مجدداً أبداً.

وتمكن ميلتشان من توفير كل الدعم الذى يمكن تخيله من الحكومة الإسرائيلية، والتى سرعان ما أدركت أهمية العلاقات العامة. اقترح موشيه ديان إنشاء سلم صعود يؤدى إلى قمة الجبل التاريخى، ليحاكى السلم الذى بناه الرومان للاستيلاء على الحصن وصدّق وزير الدفاع عيزر وايزمان على الاقتراح.

صمم السلم المهندسون أنفسهم الذين صمموا الجسر الإسرائيلى عبر قناة السويس أثناء حرب يوم الغفران. واختار ميلتشان الممثل الإنجليزى الشهير بيتر أوتول بطل فيلم لورانس العرب، ليلعب دور لوشيوس فاليفيوس سيلفا، الجنرال الرومانى فى أواخر القرن الأول الميلادى، وحاكم إمارة يهودا، والذى قاد الجيش الرومانى إلى حصن قمة الجبل بعد حصار طويل. وتم اختيار بيتر شتراوس أيضاً ليلعب دور إليعازر بن يائير، قائد اليهود المحاصرين والذين انتحروا جماعياً فى النهاية. وأثناء التصوير، احتفل ميلتشان بطقس بلوغ ابنه ياريف فى قاعة طعام الموظفين فى معهد وايزمان فى روحوفوت. وكان طاقم الخدمة يرتدون أزياء موقع تصوير مسلسل "ماسادا".

كان مسلسل ماسادا أول نجاح مالى ونقدى يحققه ميلتشان فى عالم الاستعراض. احتفى به النقاد وتم ترشيحه لعدة جوائز، ورشح الممثل بيتر أوتول لجائزة إيمى لأحسن ممثل، وفاز الممثل ديفيد وارنر الذى لعب دور السيناتور بومبينوس فالكو، بجائزة إيمى لأحسن ممثل مساعد. ولاحقاً تم تنقيح المسلسل القصير فى فيلم مدته ساعتان كفيديو ولاحقاً على الدى فى دى، ومن توزيع يونيفرسال.

تعرف ميلتشان أثناء أول تعامل له مع استوديوهات يونيفرسال، على سيدنى شاينبرغ رئيس مجلس إدارة شركة إم سى إيه إنك، وهى الشركة الأم ليونيفرسال. وما لم يكن يعرف ميلتشان، أنه أثناء إنتاج مسلسل ماسادا كرهه شاينبرغ فى الحال، إذ رأى أن ميلتشان تفاوض لتحقيق مكاسب ضخمة لنفسه من إنتاج المسلسلات الصغيرة والالتزام بتكلفتها. أما فى الحقيقة، فقد أظهر ميلتشان خبرة واسعة فى المشاريع لم يتوقعها شاينبرغ من منتج مبتدئ. وبمساعدة صديق ميلتشان سيدنى بولاك منتج مسلسل ماسادا المشارك والمخرج

المخضرم الحائز على جائزة الأوسكار، اكتشف ميلتشان عديم الخبرة العديد من الأخطاء فى جدول التصوير كانت لتؤدى إلى تخطى معدل الميزانية بكثير. إذ كان الجيش الرومانى بأكمله سيتم تصويره وهو يعبر الصحراء فى نصف يوم، وكان احتراق القدس سيتم تصويره فى ليلة واحدة. وعندما بيّن بولاك استحالة ذلك، عاد ميلتشان إلى يونيفرسال وأعاد التفاوض بشأن الشروط، مما ضايق شاينبرغ.

ولم يكن شاينبرغ من الأشخاص الذين يظهرون ما يبطنون من مشاعر، لكنه توصل لاحقاً لطريقة لوضع عقبات خطيرة فى طريق ميلتشان، والتى أدت لخصومة أسطورية وشديدة العلانية فى هوليوود.

وبالرغم من تلك العداوة الهوليوودية، فقد اعترف ميلتشان أكثر من مرة بأنه من أشد المعجبين بل إنه حتى مهووس بالعديد من الممثلين. وليست مصادفة أن الكثيرين يحبون مقارنته بجاتسبى العظيم، البطل الخيالى لرواية إف سكوت فيتزجيرالد "ذا غريت جاتسبى" الثرى الغامض إذ إن مصدر ثروته لم يكن مفهوماً بشكل كلى وأحاطت به الشبهات، كما أنه يجسد بطرق شتى تشويه الحلم الأمريكى. ومثل جاتسبى فقد شعر ميلتشان بحساسية هائلة تجاه "وعود الحياة"، كما جاءت أوصافها فى رواية فيتزجيرالد. وكان ينزع إلى اجتذاب علية القوم، والناجحين، والفائزين من خلال صراحته وحس دعابته وأمواله.

كان أحد أقرب أصدقاء ميلتشان هو المخرج البولندى رومان بولانسكى، الذى أخرج أفلاماً شهيرة مثل "روزماريز بيبى" و"تشايناتاون". بولانسكى الناجى من المحارق النازية، كان متزوجاً فيما مضى من الممثلة شارون تيت، والتى قتلت بخسة فى منزلهما على يد عائلة مانسون بينما كان بولانسكى مسافراً يصور

فيلماً فى أوروبا. كانت تيت حاملاً بطفل بولانسكى آنذاك. هرب بولانسكى لاحقاً من الولايات المتحدة إلى فرنسا بعد اتهامه بممارسة الجنس مع فتاة قاصرة.

وبعد هروبه من الولايات المتحدة، واجه بولانسكى صعوبة فى جمع تمويلات لمشاريعه بسبب عدم قدرته على العمل فى هوليوود. وذات يوم فى باريس عام ١٩٧٨، قابل أحد أكبر معجبيه وهو ميلتشان. وبعد ذلك بفترة وجيزة، بدأ الاثنان يتعاونان فى مشروع فيلم جديد اسمه "بيراتس" أو القراصنة، وهى كوميديا سوداء تسخر من أفلام القراصنة الهوليوودية.

اتفقا على ٢٠ مليون دولار ميزانية للفيلم، وأقنع ميلتشان بولانكسى بإنتاج الفيلم فى إسرائيل. وعين صديقه عيزر وايزمان، والذى كان قد ترك للتو منصبه كوزير للدفاع ليكون المنتج المنفذ للفيلم، المسئول بشكل عام عن بناء سفينة قراصنة عملاقة فى حوض بناء السفن فى ميناء حيفا. وكان كل شىء يسير على ما يرام حتى أخذ بولانسكى إجازة فى مدينة بالى، حيث بدأ فى إعادة كتابة السيناريو، بما أدى إلى زيادة فى الميزانية قدرها ١٨ مليون دولار.

فى ذلك يقول ميلتشان "بإمكان بولانسكى أن يتصرف كصبى صغير أحياناً، وقد أصر بعناد على ميزانية لم أكن مستعداً لزيادتها. ومن ثم، حزم عتاده وترك المشروع. ولم نتحدث لعامين، ولحسن حظى، تمكنت من بيع سفينة القراصنة إلى شركة الكهرباء الإسرائيلية، والتى استخدمتها فى نقل الفحم إلى محطات الكهرباء".

وبعد عامين فى ١٩٨١، تلقى ميلتشان مكالمة من حيث لا يحتسب من بولانسكى بخصوص مسرحية كتبها الكاتب المسرحى الإنجليزى بيتر شافر، واسمها أماديوس. وأراد بولانسكى أن يعرض المسرحية فى مسقط رأسه فى

بولندا، في أوج نشاط حركة التضامن والاضطرابات السياسية الهائلة، كإعلان للمساندة.

وبالرغم من أن ميلتشان لم يفكر في أن الاحتمالات الربحية تستحق المجازفة من وجهة النظر العملية، إلا أنه مول المشروع كتعبير فكرى، وكتصرف تقويضى ضد النظام الشيوعي. وكان يحدوه الفضول أيضاً بالنسبة للبلد الذى هرب منه جده قبل أعوام.

ولد حاييم إليعازر ميلتشان جد أرنون والذى ترك تأثيراً بالغاً على حياة أرنون، في يوم بارد في ديسمبر عام ١٨٧٩ على حافة بحيرة اصطناعية صغيرة جميلة، وهى نتاج سد صغير بناه أسلاف أرنون على مشارف مدينة غونيادز فى منطقة باوستوك فى الركن الشمالى الغربى من بولندا الحالية.

وفى الرابعة عشرة من عمره، سافر حاييم مسافة كبيرة جنوب أوديسا على البحر الأسود، وحده، حيث استقل سفينة إلى فلسطين العثمانية ووصل إلى ساحل مدينة يافا، أقدم مدنية يعمرها السكان بأسلوب مستمر فى العالم، فى مطلع ربيع عام ١٨٩٤ .

وبعد ثمانية أعوام كعامل فى مزرعة، فى عام ١٩٠٢ اشترى فى النهاية، أرضاً فى مجتمع روحوفوت الجديد، حيث أصبح عضواً مؤسساً هاماً لهذا المجتمع وأقام أحد أكبر كرمات العنب فى المنطقة. وخلال أشهر تزوج من جدة أرنون إيستر شلانك من القدس، وأنجبا ٧ أبناء، ومنهم ابنه دوف والد أرنون.

ومن جهته فقد تمكن بولانكسى، وهو مواطن بولندى، من توفير العوامل اللوجيستية لمسرحية أماديوس، وبدأ إنتاج المسرحية فى ظل ظروف صعبة. كانت المسرحية بمثابة تعبير قوى فى بلد لم يكن قد شهد منذ أعوام إنتاجاً فنياً مثل

هذا. وكان الهدف الرئيسى منها هو رفع الروح المعنوية للبولنديين، والذين عاشوا عقوداً من الاستبداد وما يصاحبه من قيود ثقافية. وقرر أرنون أن يساهم بكل عائدات المسرحية لحركة التضامن لشراء أى شيء يحتاجونه لدعم الثورة فى أهم لحظاتها المصيرية.

وعرضت مسرحية أماديوس ثلاث عشرة مرة أمام جمهور واقف، وتجمعت صفوف طويلة خارج المسرح فى كل عرض على أمل أن تتوفر أية تذكرة. كان تاديوس لمونيكى من أهم الممثلين والمخرجين فى بولندا والذى وصف المسرحية كطفرة ثقافية قائلاً "ربما تكون أماديوس المسمار الذهبى فى نعوشنا" فى إشارة إلى النظام السياسى البغيض. ولم يتمكن أرنون من السفر إلى بولندا، لذا كان بولانسكى بمثابة عينيه وأذنيه، وقد يذهب البعض إلى وصفه بوكيله.

وخلال أشهر تم حبس قائد حركة التضامن ليخ فاونسا، ومضت ثمانية أعوام قبل أن ينهار النظام الشيوعى. وبعد ٩ أعوام وفى ديسمبر ١٩٩٠، تم انتخاب فاونسا رئيساً للبلاد، وكانت دعوة أرنون لزيارة بولندا، ليكرمه على إسهاماته من أجل حركة التضامن فى أوج الصراع، من بين أول قراراته.

سافر ميلتشان إلى وارسو يصحبه روبرت دى نيرو ورومان بولانسكى وصديقه مائير تيبير، ثم توجهوا إلى حوض سفن غدانسك حيث بدأت الثورة، وقابلوا قائد حركة التضامن سابقاً والذى أصبح الرئيس ليخ فاونسا.

شجعهما نجاحهما فى وارسو، فقرر ميلتشان وبولانسكى عرض المسرحية فى مسرح ماريغنان فى شارع الشانزليزيه فى باريس، حيث لعب بولانسكى دور موتسارت أى دور البطولة. وهناك أيضاً حقق نجاحاً ساحقاً وكان بإمكان العرض أن يستمر لسنوات. لكن بولانسكى أخبر الكاتبة لويز بارداخ فى مقابلة

مع مجلة إل إيه، "لكننى لن أستطيع تقديمها للأبد" لأنها عُرِضت لعام كامل.

ويصف بولانسكى ميلتشان بأنه رجل أعمال مخضرم يلتزم بكلمته ومنضبط. ومن المفهوم أن يظل بولانسكى مخلصاً لميلتشان، الذى وقف بجواره فى وقت بدا فيه أن مسيرته المهنية لن تتعافى، ومنذ مسرحية أماديوس ظل الاثنان صديقين مقربين.

عُرِضت على أرنون فكرة تحويل المسرحية لفيلم طويل. وفكر فى الأمر بضع دقائق قبل أن يرفض هذا العرض، "لن تترجم بشكل جيد إلى فيلم سينمائى" قالها ميلتشان بثقة وبتأكيد خاطئ؛ بل إنه حاول حتى إقناع المخرج ميلوس فورمان تجنب النسخة السينمائية، والتى جلبت لفورمان فى النهاية جائزة الأوسكار كأفضل مخرج لعام ١٩٨٤ . ولم تكن تلك المرة الأخيرة التى رفض فيها ميلتشان فكرة تحولت لاحقاً إلى فيلم ضخم يهز أطراف الأرض فى مجال الترفيه.

استمر بولانسكى فى استشارة ميلتشان فى توزيع أفلامه، ومنها فيلم مستوحى من أمر حساس يخص صديقه المقرب. فى عام ١٩٨٨، ألف بولانسكى وأخرج فيلم "فرانتيك" أو المسعور، من بطولة هاريسون فورد. ويلعب فيه فورد دور الطبيب ريتشارد ووكر، وهو جراح أمريكى يزور باريس مع زوجته لحضور مؤتمر طبى. وفى غرفتهما فى الفندق، تكتشف زوجته أنها ربما أخذت الحقيبة الخطأ من المطار.

وبينما كان ووكر يستحم، اختفت زوجته من غرفة الفندق. وافترض أنها نزلت إلى مكتب الاستقبال للتعامل مع شأن الحقيبة. وعندما لم تعد، أصابه القلق وبدأ يبحث عنها فى أرجاء الفندق. وتتصاعد الحبكة عندما يطلب مساعدة طاقم

الفندق المهذبين وغير المبالين، ولكنه لا يلقى نجاحاً. ثم بعد ذلك يهيم فى الشوارع بحثاً عنها.

يسترق السمع شخص عابر فى الشارع وهو فى المقهى ويخبر ووكر أنه رأى زوجته تساق بالقوة إلى سيارة. ويتشكك ووكر فى ذلك حتى يجد السوار الخاص بزوجته على الرصيف. ويتصل سريعاً بالسفارة الأمريكية وبشرطة باريس لكنهم يستجيبون بشكل بيروقراطى، ويتضاءل الأمل لديه فى أنهم سيبحثون عنها.

ثم يظهر أن الحقيبة، كانت تحتوى على نسخة مصغرة من تمثال الحرية، مخبأ به وحدة كرايترون، وهى ذات الآلية القادرة على تفجير الأجهزة النووية والتى عمل ميلتشان جاهداً للحصول عليها.

ينتهى الفيلم بمواجهة حيث يطلق الإرهابيون العرب سراح زوجة ووكر. لكن، تقوم معركة حامية بالرصاص بين الإرهابيين والموساد الإسرائيلى الذين كانوا يقتفون أثرهم. يلقى ووكر وهو غاضب ومستاء وحدة الكرايترون فى النهر، مما يجعلها غير ذات نفع.

ويبين الفيلم الذى أنتج عام ١٩٨٨، الإجراءات الخطيرة التى تتخذ لنقل وحدة كرايترون واحدة. أما فى الواقع، فقد اشترى ميلتشان المئات منها ونقلها. وفى الواقع أيضاً، ما كان لبولانسكى أن يعرف بأهمية الكرايترون أو بوجوده بدون صديقه أرنون.



وفى عام ١٩٨١، يقابل بنيامين بلومبيرغ أخيراً نده أرييل شارون الملقب بالبلدوزر، والذى كان قد تم تعيينه وزير الدفاع الإسرائيلى الجديد. وقرر شارون

استبدال بلومبيرغ برافى إيتان صديقه المقرب منذ سنوات كثيرة ورئيس الموساد السابق، إذ رأى أن منصب رئيس وكالة لاكام من أخطر المناصب فى منظومة الدفاع الإسرائيلية الكبيرة. واستمر التناحر الداخلى لبضعة أشهر، لكن فى النهاية اكتملت عملية الإبدال. وكان رافى إيتان ذو الأعوام الخمسة وخمسين رجلاً قصير القامة يلبس نظارات سميكة وله تاريخ طويل فى الموساد. كان إيتان شخصياً هو من قاد الفرقة التى ألقت القبض على أدولف إيخمان فى الأرجنتين. وكان يعرف ميلتشان جيداً، وعلى دراية كاملة بأنشطته التى يقوم بها نيابة عن لاكام.

وخلال أيام من رئاسته للاكام، دعا ميلتشان لمكتبه للحديث. ولم يكن هناك حاجة للشكليات. وعقب الاجتماع حان وقت العمل كالمعتاد. وكانت ديبورا مساعدة ميلتشان تعمل بشكل يومى مع رئيس لاكام الجديد. وعقب ذلك بفترة وجيزة، تلقى ريتشارد كيلى سميث الطلبية الرابعة عشرة من مفاتيح الكرايترون من شركة هيلى تريدينغ ليمتد. وبدأ يورد الطلبية بالطريقة التى صارت معتادة آنذاك، وهى تصريح التصدير المعتاد من وزارة التجارة. ووثق قسم المحاسبة فى ميلكو إجمالى ٨١٠ مفتاح كرايترون تم شراؤها بإجمالى ٦٠٧٥٠ دولار.

لكن الشحنة الرابعة عشرة من مفاتيح الكرايترون كانت مختلفة. تلك المرة عندما وصلت المفاتيح لشركة ميلكو قادمة من مصنعها إى جى آند جى فى ماستشوستس، كانت هناك جملة واضحة على الصندوق للتحذير: تصدير هذا المنتج يتطلب ترخيص تصدير ذخائر.

وكان ذلك الملصق جزءاً من حملة على نطاق أوسع فى الولايات المتحدة للتضييق على الصادرات مزدوجة الاستخدامات ذات التطبيقات النووية. وشعر

سميث بقشعريرة باردة تعبر فى جسده. وتذكر أنه واجه تلك العقبة من قبل، لكنه كان واثقاً أنه سيجد ثغرة مناسبة. وفى تلك المرة راجع الدليل السميك لتراخيص تصدير الذخائر ولم يسعد عندما رأى الكرايترون مدرجاً بين قوائمه، فى فئة تطبيقات الأسلحة النووية.

لكنه قرر مجدداً أن يتجاهل مطلب ترخيص الذخائر وأرسل شحنة الكرايترون الرابعة عشرة بالطريقة المعتادة. وتمنى أن تمر تلك الشحنة بدون أن يلحظها أحد شأنها شأن الشحنات الأخرى.

١٣

كان ياما كان فى «أمريكا»

وكأنك تُلقى بنفسك إلى ذلك المجال لكى تهان، ولكى تكون المغفل التالى فيه.

أرنون ميلتشان لمجلة لوس أنجلوس فى أبريل ٢٠٠٠

فى يوم رأس السنة عام ١٩٨٣، قبل أيام من عرض فيلمه الجديد وهو "ذا كينغ أوف كوميدى"، كان أرنون ميلتشان فى نيويورك، منشغلاً بالعرض الأول لأحد أهم الأفلام فى مسيرته.

١٣

وفى مكان بعيد آخر، وصل ريتشارد كيلى سميث وزوجته إميلى إلى مكاتب شركة ميلكو فى هنتنغتون بيتش ليعملا على بضع طلبيات. وكان المبنى الإدارى خالياً، وهادئاً،وتمنى الاثنان أن ينجزا بعض العمل المثمر. ولم يكن هذا غريباً عليهما، إذ كانا يجدان صعوبة فى التركيز بينما يحوم حولهما سبعة موظفين وأجراس الهواتف ترن بلا انقطاع.

وكانت العطلات الأسبوعية والإجازات وقتاً مناسباً لإنجاز بعض الأعمال.

وما أن وصلا المبنى، ذهب كل منهما إلى مكتبه. فى البداية ولم يلاحظا أى شىء غير معتاد، إلى أن أرادت إميلى أن تكتب شيئاً على الآلة الكاتبة. ومشت حتى منطقة الاستقبال ولاحظت أن الآلة الكاتبة غير موجودة. ثم نظرت حولها ولاحظت اختفاء بعض أجهزة الحاسوب، فصرخت تستدعى زوجها ريتشارد الذى انخلع قلبه

خوفاً وأتى مهرولاً.

وتفقدا سريعاً كل مكتب، وكل غرفة، وكل منطقة تخزين، وحتى المخزن الخلفى. اختفت الأجهزة الكهربائية وجهاز التشويش على الإشارات، وهو جهاز بالغ الحساسية. كانت وزارة الخارجية قد رفضت تصدير تلك الأجهزة جميعها إلى إسرائيل.

وكانا يعرفان أن الحواسيب المفقودة تحوى معلومات سرية.

وكان أول ما خطر ببالهما هو التجسس. وانتابهما إحساس عميق بالانتهاك، وجنون الارتياب، والخوف. وأدرك ريتشارد أن تصريحه الأمنى يلزمه بالإبلاغ بحالات الاقتحام للمباحث الفدرالية. أى مشاكل ستنجم عن هذا؟ وعلم أن أول سؤال سيطرح عليه سيكون:

مَنْ في رأيك فعل هذا؟

وتذكر آخر مكالمة هاتفية بينه وميلتشان، حيث أخبره أنه قد فُرضت عليه معايير أكثر صرامة، وأنه لن يستطيع الاستمرار في إرسال مفاتيح الكرايترون بنفس الطريقة.

"لماذا لا ترسلها كما كنت تفعل من قبل؟" سأله ميلتشان. بيَّن له سميث أنه لم يعد يستطيع فعل ذلك، وفي النهاية وضع ميلتشان السماعة في وجهه، محبطاً. وكانت تلك آخر مرة يتلقى فيها سميث مكالمة منه. بل، تبين أيضاً أنها كانت آخر محادثة مباشرة بينهما.

اتصل سميث بقسم شرطة هنتنغتون بيتش وبالمباحث الفدرالية للإبلاغ عن حادث السطو. ووصلت الشرطة في ظرف دقائق وحررت تقريراً جنائياً. وسريعاً قرروا أن اللص دخل المبنى عبر فتحة السقف وأنه أنزل نفسه بواسطة حبل. "لا يبدو كعمل احترافي" أفاد المحقق، ثم طلب من سميث أن يعطيه قائمة بكل الموظفين الحاليين والسابقين. ووفقاً لتقرير الشرطة، قرر سميث أن ثمن المعدات المسروقة يُقدر بحوالي ٥٠ ألف دولار، منها ١٢ ألف دولار من المعدات الإلكترونية التي تخص وكالة ناسا.

في اليوم التالي وصل عميل فدرالي لاستجواب سميث، في الأغلب لجمع تفاصيل عن عملية السطو، ليقرر درجة حساسية الأغراض المسروقة، وليسمع من سميث ما إن كان لديه فكرة عمن وراء الحادث.

وصف سميث آخر مكالمة له مع ميلتشان. وحينذاك كان قلقاً للغاية بشأن شحنات الكرايترون المتعددة التي أرسلها إلى إسرائيل بدون استخراج تراخيص ذخائر، وشعر أنه بدلاً من أن ينتظر اكتشاف المباحث الفدرالية لأمر الشحنات،

كانت أفضل استراتيجية له أن يذكر الشحنات ببراءة وبصراحة، ويعبر عن قلقه بشأن ارتكابه لأخطاء فى إجراءات الشحن. واستمع العميل الفدرالى فى صمت وهو يدون الملاحظات. وطلب من سميث أن يُسمِي المشتبه بهم الأكثر احتمالاً. وفى تلك القائمة كُتِب اسم أرنون ميلتشان.

كانت الأمور تتداعى بسرعة ولم يكن سميث قد استوعب بعد دلالات ما يحدث. هل سيفقد مشروعه الآن بعدما رفض طلب الرجل الذى يمده بمعظم دخله؟ كيف ستُفسر مقابلته مع المباحث الفدرالية؟ ومن منطلق الخوف، فقد كان عازماً على التصرف بصراحة، وهى غريزة لم تكن لها أن تنفعه بالضرورة.

وعقب مقابلته مع المباحث الفدرالية، اتصل سميث بميلتشان عدة مرات لكنه لم يتمكن من الوصول إلا لمساعدته. وكانت ديبورا موجهة من قبل رئيس لاكام الجديد رافى إيتان بدعم العلاقات الإيجابية مع سميث حتى تستمر إسرائيل فى تلقى التحديثات لتضع استراتيجيتها وفقاً لها، بدون الحاجة للتنصت على هاتفه. ثم طلب إيتان من ميلتشان أن يتجنب أى اتصال مستقبلى بشركة ميلكو، أو بسميث، والذى وصفه بأنه أضعف حلقة فى سلسلة علاقات ميلتشان، وقال إيتان إن سميث قد احترق!.

جوهرياً، كانت تلك نهاية دور شركة ميلكو كعملية منتجة لوكالة لاكام استمرت ثلاثة عشر عاماً. وكان الوقت قد حان لإغلاق هذا الملف وللمضى قدماً فى طريق تحديات أخرى. وأخبر إيتان ميلتشان أنهم ليس بوسعهم أن يكونوا عاطفيين فى مثل تلك الأمور.

وتحرك قسم شرطة هنتنغتون بيتش والمباحث الفدرالية بشكل سريع وغير معتاد وبإصرار فى قضية شركة ميلكو، مستخدمين كل أدوات التحقيق التى فى

حوزتهم، وبالفعل ألقوا القبض فى غضون شهرين على مشتبه به، موظف صغير، كان يعمل بشكل مؤقت فى مخزن شركة ميلكو.

وعندما أغارت الشرطة على منزل والديه، وجدوا المرآب عامراً بالسلع المسروقة، التى تشمل الأغراض المسروقة من ميلكو.

واعترف الشاب بالسرقة، بالإضافة إلى عمليات سطو أخرى فى المنطقة. والغريب أن المباحث الفدرالية وقّعت اتفاقاً مع السارق، وأطلقوا سراحه بكفالة والديه والبقاء تحت وصايتهما. وأبلغوه أنه لن يحاكم إن وافق على التعاون الكامل فى إعادة كل الأغراض المسروقة من شركة ميلكو.

وشعر سميث بقدر كبير من الارتياح، وطُلِب من إميلى الحضور إلى مخزن أحراز قسم شرطة هنتنغتون بيتش لاستعادة الأغراض المسروقة. ولدى وصول إميلى اقترب منها رجل ذو حلة داكنة وسألها هل هذه معداتك؟. وعندما أكدت أنها تلك، أخرج شارته وعرف نفسه بأنه عميل إدارة الجمارك الأمريكية، وطلب منها الحديث مع رئيس الشركة.

انتابها إحساس مفاجئ بالهلع وأخذت تفتش فى حقيبة يدها بارتباك لتعطيه الكارت الخاص بزوجها، وقالت للعميل إنه يمكنه الاتصال به مباشرة.

وفى الأسابيع التالية، زار عميل الجمارك الأمريكية شركة ميلكو عدة مرات، أحياناً بدون موعد مسبق، ليتحدث مع ريتشارد سميث.

وأحياناً أخرى كان يُلقى أسئلته عبر الهاتف، لكن لم يكن يمر يوم واحد بدون أى شكل من الاتصال من هذا العميل. فى البداية أبدى سميث تحمساً للتعاون، وكانت النقاشات استطلاعية لطيفة ومعتدلة، تشمل أسئلة بريئة عن حركة الشحن

بالشركة وإجراءات إدراج الملفات. ثم أصبحت الأسئلة الودودة ببطء وبمرور الأيام أكثر صرامة، حتى بدأت تبدو كتحقيق.

كانت الأيام والأسابيع والشهور التى تلت حادث سطو ميلكو عصيبة للغاية. إذ توقفت الطلبيات وحتى الاتصالات من إسرائيل فجأة، وكان ثمة عميل فدرالى يتقصى الأوضاع بشكل يومى. وخلال بضعة أشهر أصبح من الواضح وجود استقطاعات كبيرة فى الطلبيات. وعمل سميث يائساً لتأمين عقود من وكالة ناسا ومن حلف شمال الأطلسى، ومن البنتاجون، لكنه تمكن من توقيع بضعة عقود استشارية فحسب تقدر بعشرات الآلاف من الدولارات، وهو مبلغ لا يكاد يكفى لتشغيل شركة ميلكو بمستواها الحالى.

وانقطع تدفق الأموال. وخشى سميث من تخفيض درجة تصريحه الأمنى ومن زيادة أسئلة عميل الجمارك الذى يتربص به. وقرر تخفيض النفقات بشكل جذرى بغلق مكاتب ميلكو فى الساحل الشرقى، والإبقاء على نفسه وزوجته وأبنائه فحسب فى كشوف المرتبات كموظفين بدوام جزئى. ولكن حتى مع تلك التخفيضات، فلم تكد ميلكو تتمكن من الصمود، وكان بانتظارها ما هو أسوأ.

وفيما تراكمت متاعب شركة ميلكو تدريجياً، كان ميلتشان مشغولاً بالعرض الأول لفيلمه الجديد "ذا كينغ أوف كوميدى" أو "ملك الكوميديا"، وهو فيلم جرىء. يلعب فيه روبرت دى نيرو دوراً غير معتاد بالمرة حيث يجسد روبرت بابكين المهووس بجمع توقيعات المشاهير على أبواب المسارح والكوميديان المتطلع الذى تفوق طموحاته المهووسة بكثير أية موهبة فعلية لديه. يؤدى لقاء له بالصدفة مع جيرى لانغفورد والذى يلعب دوره جيرى لويس، وهو كوميديان ومقدم برنامج حوارى شهير، لأن يظن بابكين أن فرصته السانحة قد جاءت أخيراً. لكنه كان

مخطئاً. وفى محاولة يائسة للاشتراك فى البرنامج بأى شكل، يختطف لانغفورد ويتفاوض على ظهوره فى البرنامج، والذى يقدمه البديل الذى يلعب دوره تونى راندال. ويلْقى أداء بابكين نجاحاً غير متوقع، لكن يتم القبض عليه بعد البرنامج. المشهد الأخير يظهر فيه بابكين وهو يعتلى المسرح فيما يبدو كحلقة تليفزيونية خاصة ذات جمهور مباشر ومذيع يقدمه ويمتدحه بحماس. ومن خلال السخرية، يتهكم الفيلم على فكرة النجاح الذى يأتى كثمرة للموهبة لا الحظ.

ولم يحظ الفيلم بنجاح كبير فى شباك التذاكر، بالرغم أنه من السهل أن نتفهم سبب إعجاب ميلتشان الشديد بالنص. وبمرور الوقت، تم الاحتفاء بالفيلم لتصويره الفنى والساخر معاً لبيزنس الاستعراض الأمريكى.

أثناء تصوير فيلم "ذا كينغ أوف كوميدى" نشأت علاقة قوية بين ميلتشان ودى نيرو استمرت لعقود. وقدم ميلتشان دى نيرو لوشيه ديان وتصوره يؤدى شخصية ديان فى فيلم طويل عن حياته، لكنه لم يستطع إقناع دى نيرو، ولا يزال ميلتشان يريد إنتاج ذلك الفيلم الذى لم يتحقق بعد.

خالف ميلتشان طبيعته ليدعم علاقته بدى نيرو شديد الخجل، بما فيها استغلال خدمات مساعدته الخاصة إيتى كانر لتدبير صديقات للنجم السينمائى. وتصف لنا كانر كيف تلقت مكالمة من ميلتشان ذات يوم طلب فيها التعرف على امرأة سوداء جميلة كانت قد ظهرت على غلاف مجلة الأزياء الفرنسية إل. تقول كانر، كانت تلك عملية كوكبية. "اتصلت أولاً بمكتب المجلة فى باريس للتعرف على العارضة، فأخبرونى أنها فى جلسة تصوير فى لوس أنجلوس. فتوصلت لمكانها فى لوس أنجلوس وأقنعتها بأن تستقل أول طائرة إلى نيويورك من أجل اجتماع مع روبرت دى نيرو". وإذ تتلاعب تخيلات النجومية بعقلها، وصلت العارضة إلى

نيويورك على حساب ميلتشان، لتقضى ليلة فى المدينة مع روبرت دى نيرو.

وبعد فترة وجيزة من العرض الأول لفيلم ذا كينغ أوف كوميدى، وبينما كان المدعى العام لمدينة لوس أنجلوس يبنى أركان قضيته سراً ضد شركة ميلكو، كان أرنون مشغولاً بشأن شخصى خطير. إذ تلقى أثناء التصوير فى الولايات المتحدة، مكالمة عاجلة من ابنه المراهق ياريف.

فى ذلك المساء، خرج ياريف ولم يعد للمنزل متجاوزاً بكثير الموعد المحدد له. وعندما عاد للمنزل، صُدم عندما وجد أمه بريجيت قد حزمت حقيبته وطلبت منه الرحيل عن المنزل.

وعرف أرنون بالأمر بينما كان، فى طريقه إلى لوس أنجلوس، وكانت تلك لحظة مؤلمة ومصيرية. ووجه مساعده البرتغالى فى الحال خوزيه أوليفيرا الذى كان يتولى أمر قَصْره، لاصطحاب ياريف وإحضاره إلى حى مونتفور لامورى. وعندما استوعبت أليكساندرا وإليانور ما حدث لأخيهما، رفضتا البقاء من دونه.

وفى ظرف أيام حزمت بريجيت حقائبهما أيضاً، وطردتهما من المنزل.

ومنذ ذلك اليوم أصبح أرنون ولى الأمر الوحيد لأبنائه وأصبح القصر منزلهم مجدداً. وكانوا كلهم يرتادون مدارس إعدادية داخلية، وكانوا يقضون الإجازات مع والدهم يجوبون أنحاء العالم، ويمضون الصيف فى إسرائيل. "أبنائى هم أقرب الناس إلىّ، وأهم مصدر لفرحتى" هكذا يقول أرنون.

وفى زيارة لاحقة لإسرائيل، نزلت بريجيت فى الشقة العلوية. وعندما اكتشفت مجموعة من الصور لأرنون فى صحبة نساء عديدات، منهن أُولا وأوليريكا، مضت تدمر الشقة، ومزقت الصور، ودمرت الأثاث والقطع الفنية الثمينة. وبهذا بلغ السيل

الزبى وكانت تلك هى النهاية الأخيرة لما ظل لفترة علاقة ودودة بعد الطلاق.

كان ميلتشان من أشد المعجبين بسيرجيو ليون، الذى عرّف العالم على أفلام إيطالية الطراز على نمط أفلام الغرب الأمريكية مثل "أفيست فول أوف دولارز" أو حفنة من الدولارات، أو الطيب والشرير والقبيح، ووانس أبون أتايم فى أمريكا أو كان ياما كان فى أمريكا، ويُشهد له بفضل اكتشاف كلنيت إيستوود.

رفض ليون فرصة من شركة باراماونت بيكتشرز لإخراج فيلم "الأب الروحى"، وهو أحد أهم الأفلام قاطبة،وقضى العشرة أعوام التالية فى الإعداد لتحفته الفنية عن العصابات الإجرامية أو "وانس أبون أتايم إن أمريكا". لم يرغب أحد أن يضطلع بالموضوع، هذا بالطبع حتى قابل ليون ميلتشان بالصدفة، وجاء فى وصفه للقاء ما يلى:

"حدث هذا فى مهرجان كان السينمائى، كنت أحاول بيع فيلم آخر هناك شبيه بفيلم ذهب مع الريح. وفجأة رأيت هذا الرجل يجلس فى شرفة عملاقة فى فندق كارلتون مطلة على الشاطئ؛ شخص يشبه بودا، أو أورسون ويلز، أو سيرجيو ليون، لم أكن متأكداً. اقتربت منه ولاحظت أنه لم يكن بودا ولا أورسون ويلز، لذا لابد وأنه سيرجيو ليون. قدمت نفسى بالفرنسية وأخبرته أننى من أشد المعجبين بأفلام الغرب الأمريكى إيطالية الطراز التى يخرجها".

أخبرته إنه شرف كبير لى أن أقابله وسألته عم يعمل به حالياً، فأجابنى ليون "يوجد هذا الفيلم الذى أعمل عليه منذ عشرة أعوام،ولا أحد يريده، إنه فيلم أمريكى ضخم، أتريد أن تسمع عنه؟".

فوجئ ميلتشان وشعر بالفخر إذ جلس بجوار المخرج الأسطورى وأنصت بتركيز. وكانت الساعة الثالثة أو الرابعة عصراً عندما بدأ ليون فى وصف الفيلم،

مشهداً تلو الآخر، لقطة تلو اللقطة:

"والآن ستصعد الكاميرا، وستقترب سيارة، فتقترب منها الكاميرا"... ومضى لأكثر من أربع ساعات بهذا الأسلوب بينما بدأت الشمس تغرب ببطء فى البحر المتوسط. عندما انتهى ليون، أخبره ميلتشان أنه يريد أن ينتج هذا الفيلم. وفوجئ ليون، وسأله ما إن يمتلك القدرة المالية. فأجابه ميلتشان فى البداية بالتأكيد، ثم سأله بعدها عن الميزانية. وجاءت الإجابة أنها ٢٢ مليون دولار، فلم يحرك ميلتشان ساكناً. لكن بالطبع، لم تكن تلك نهاية الحديث.

ذات ليلة، بعد موعد الزيارات بكثير، تسلل ليون إلى غرفة ميلتشان فى نيويورك. وفجأة سمع ميلتشان صوتاً رقيقاً ذا لهجة إيطالية قوية يقول "أرنون! أرنون! أحتاج لمزيد من المال".

وإذ هو مصدوم ومُروَّع، استيقظ ميلتشان على كيان ضخم يجلس على الكرسى المجاور له.

"رباه! هل هذا أنت يا سيرجيو؟ هل جننت؟".

"أرنون لا أستطيع النوم، أحتاج لمليونى دولار أخرى، أحتاج لاستئجار أورينت إكسبريس".

وجد أرنون صعوبة فى استيعاب هذا المنطق."ولِم تحتاج لاستئجار قطار أورينت إكسبريس؟ ألا يمكننا استئجار قطار عادى وتقديمه على أنه أورينت إكسبريس؟!".

ولم يقبل ليون بهذا وأجاب لأن الجمهور سيمكنه تمييز أنه ليس أورينت إكسبريس. ورفض مغادرة الغرفة حتى ضمن له ميلتشان زيادة ميزانية الفيلم.

وفي النهاية بلغت تكلفة الفيلم ٢٨ مليون دولار ويعتبر حتي يومنا هذا من أكثر الأفلام تفرداً وغرابة في تاريخ السينما.

ويرى أغلب الناس أنه أفضل فيلم أخرجه ذلك المخرج الموهوب بإطلاقه، وهو الفيلم المفضل لميلتشان وهو في رأيه أفضل فيلم أنتجه قط. كان يحوى كل شيء آسر تميز به عالم الإجرام السرى وواقعه الكئيب اللذين قدمهما الفيلم.

"وانس أبون أتايم إن أمريكا" أو "ذات مرة في أمريكا" فيلم ملحمي، وهو قصة مسلسلة عن حياة مجموعة صغيرة من أفراد العصابات اليهود في نيويورك على مدار ٤٠ عاماً، وتُروى في أغلبها بأسلوب الارتجاع والنظر للمستقبل معاً. ويتمحور الفيلم حول المجرم البسيط ديفيد أرونسون الملقب بنودلز وشركائه في عالم الجريمة طيلة حياته وهم: ماكس وكوكي وأصدقاؤهم. ويتتبعهم الفيلم إذ ينشأون في حي "إيست سايد" اليهودي الفقير في نيويورك في العشرينيات حتى أواخر الستينيات، ويعود نودلز العجوز إلى نيويورك بعد أعوام عديدة من الاختباء ليعيد اكتشاف ماضيه.

كان ميلتشان لا يزال قليل الخبرة نسبياً، وعندما أعطاه ليون نسخة من النص، صدم عندما رأى أنه مكون من ٣١٧ صفحة، وحتى يومنا هذا، يعد أطول نص قرأه ميلتشان بإطلاقه.

وحذر ليون ميلتشان منذ البداية قائلاً: صغيرى، يجب أن تتحلى بالصبر.

وأجاب ميلتشان بأنه لم يكن يعرف أن الفيلم بهذا الطول.

أجاب ليون: لا أعنى طول الفيلم يا صديقى، أعنى فى تعاملاتنا مع الممثلين.

وإذ بدأ ليون فى اختيار الممثلين، استأجر ميلتشان شقة فى نيويورك فى

شارع ٤٨ بين شارعي ساكند وثيرد، بجوار شقة الممثلة الأسطورية كاثرين هيبورن. وفكرا في مئات الممثلين لأدوار الفيلم المتنوعة وكانت تلك عملية طويلة وصعبة في حد ذاتها. وفي مطلع عام ١٩٨١، عرض على بروك شيلدز دور "ديبورا غيلي" بعدما شاهد سيرجيو ليون فيلم "ذا بلو لاغون" أو "البحيرة الزرقاء"، بزعم أن لديها القدرة على أداء دور شخصية ناضجة. لكن إضراب الكتّاب أخر المشروع، وانسحبت شيلدز قبل بدء بروفات الأداء.

كان هناك أكثر من ٣٠٠ متقدم للعب دور شخصية البطلة،ومنهم كيم باسينغر وغلين كلوس وجيمي لي كيرتس وجينا ديفيس وكاري فيشر وداريل هانا وليزا مانيلي وميشيل فايفر وميغ رايان وسوزان سارندون وميريل ستريب وديبرا وينغر، وهن كل سيدات النخبة الأمريكيات تقريباً.

وبانتشار خبر الإعداد للبدء في الإنتاج، تلقى ليون شخصياً مكالمات عديدة من أبرز الممثلين الموهوبين، مثل وارف بيتي.

ومثلما فعل مع معظم الممثلين الآخرين، فقد رفضه ليون وقال لميلتشان:

إنه مصفف شعر، بحق الرب!

"لكنه لم يلعب دور مصفف شعر إلا في فيلم شامبو" هكذا أجاب ميلتشان آملاً في تغيير رأي ليون.

وبعد عدة أيام تلقى مكالمة من كلينت إيستوود لكنه قال: كلا، كلا! لقد اخترته بالفعل في ثلاثة أفلام، أحتاج لدم جديد.

وإن كان هناك شخص واحد كان ليون يريده أن يشترك بالفيلم، فقد كان ذلك هو روبرت دي نيرو، والذي لعب دور البطولة في الفيلم الذي أنتجه ميلتشان "ذا

كينغ أوف كوميدى".

ووفقاً لميلتشان، لم يكن من السهل إقناع دى نيرو بقراءة النص الطويل، لكن فى النهاية زعم دى نيرو أنه قرأ النص بأكمله وقال إنه يريد مقابلة ليون.

وتم تحديد موعد الاجتماع فى فندق مايفلاور فى نيويورك سيتى. ارتدى ليون الذى كان بديناً آنذاك، روباً فضفاضاً فى اجتماعهم بجناح علوى حجزه ميلتشان لذلك الغرض. وتقرر ترك ليون ودى نيرو ليتحدثا على حدة بينما انتظر ميلتشان مكالمة منهما فى غرفة مستقلة.

وعندما رن الهاتف أخيراً، كان دى نيرو يهمس على الطرف الآخر.

أرنون! أريد التحدث معك.

وهرع أرنون إلى غرفة دى نيرو وقرع الباب، فقال دى نيرو.

لا يمكننى العمل بالفيلم

ولِم لا؟ سأل ميلتشان مصدوماً.

اصطحب دى نيرو ميلتشان إلى الحمام وأشار للمرحاض، فتحير ميلتشان

ألا ترى أن ليون تبول على مقعد المرحاض الخاص بى؟ سأله بلهجة لا تصدر إلا عن روبرت دى نيرو.

وكان المقعد ملوثاً بالبول بالفعل قال أرنون "بربك يا دى نيرو! لم يفعل هذا متعمداً، إنه بدين ولم يرُ".

"مستحيل يا أرنون، لقد فعل هذا متعمداً" وأضمر دى نيرو أن تلك كانت لعبة لإظهار قوة لتحديد مناطق الهيمنة، ولتوضيح من المسيطر الحقيقى.

وهدّأه ميلتشان، وفى النهاية أُختير دى نيرو لدور البطولة كرجل العصابات اليهودى ديفيد أرونسون.

ولم يتم ملء دور بطلة الفيلم إلا قبل فترة وجيزة من بدء التصوير بعد بحث دءوب. كان ميلتشان يميل لاختيار إليزابيث مكغافيرن، والتى تدرس فى معهد جوليارد وكان قد عُرِض عليها دور فى فيلمها الأول "أناس عاديون"، وهى مازالت تدرس، فى دور صديقة مراهق مضطرب لعب دوره تيموثى هاتون وكانت ماتزال فى العشرين من عمرها. وكان ذلك هو الفيلم الأول لروبرت ريدفورد كمخرج، وفاز بأربع جوائز أوسكار. فى العام التالى تم ترشيح مكغافيرن لجائزة الأوسكار لأفضل ممثلة مساعدة لتجسيدها دور ممثلة مطلع القرن العشرين إيفيلن نيسبت فى فيلم "راجتايم"، والتى ظهرت فيه عارية فى مشهد طويل للغاية ومثير للجدل. ومن بين قائمة طويلة من نجمات سعين وراء هذا الدور، حصلت عليه إليزابيث مكغافيرن. كانت تصغر أرنون بـ١٧ عاماً وكانت عشيقته أيضاً.

قاوم روبرت دى نيرو، الذى لم يكن يعرف بعد بطبيعة علاقة ميلتشان ومكغافيرن، منحها الدور. وتصادم دى نيرو وليون حول ذلك. وكان دى نيرو يشكو باستمرار بينما كان ليون يقف صامتاً وينظر فى ساعته. وعندما انقطعت أنفاس دى نيرو سأله ليون "هل انتهيت؟" وتحير دى نيرو إذ مضى ليون قائلاً "عادة ما يستغرق الممثل ٢٠ دقيقة لكى يكف عن الشكوى، ولم تستغرق أنت سوى ١٢ دقيقة! الآن عليك أن تتذكر أنه ليس فيلمك، بل هو فيلمى أنا وأنت مجرد مشارك فيه"، قالها ليون بغضب عارم. ومجدداً تدخل ميلتشان وتحدث على انفراد مع دى نيرو، وأياً ما قاله ميلتشان، فقد جعل دى نيرو يلين.

وكما يتذكر ميلتشان:

"كان هناك مشهد في الفيلم يفترض أن يغتصب فيه دي نيرو إليزابيث مكغافيرن في المقعد الخلفي لسيارة ليموزين، بعدما تخبره أنها سترحل إلى هوليوود لتحقق حلمها. وكان مشهداً معقداً للغاية. وفجأة اقترح دي نيرو أن ألعب دور سائق السيارة الليموزين. وكانت ردة فعلي متشككة، فبعد كل شيء، أنا لست ممثلاً. وكان المشهد يشغل ٤ صفحات في النص، أي أنه لم يكن دوراً تافهاً. وعلى أية حال، راقت لي الفكرة، وأجرى سيرجيو تجربة أداء لي. وبعد هذا اختفى تشككي فجأة ووجدت نفسي وقد أردت أن أؤدي هذا الدور أكثر من أي شيء آخر في حياتي. كان أشبه باغتنام الفرصة. وأصبح من أهم طموحات حياتي. لكن سيرجيو من ناحية أخرى، لم ينبهر بأدائي ورفض مشاركتي. أنا، المنتج وممول المشروع برمته، تم رفضي! واستشطتُ غضباً. وكنت متأكداً أن الجميع سيأتونني جاثين على أيديهم وركبهم لكنني عوملت كأقل كومبارس في موقع التصوير. واستمروا في تجارب الأداء للدور أمام عيني فيما شعرتُ بالإحباط الشديد.

ثم تلقيت مكالمة "نحن مستعدون لتصوير المشهد، احضر". لكنني كنت في باريس وكان المشهد سيتم تصويره في ذات الليلة في كندا. "لا مشكلة" هكذا أخبروني على الهاتف. "التذاكر في انتظارك في المطار. هناك ثلاثة مرشحين آخرين للدور وتم استدعاؤهم أيضاً". وانزعجت للغاية لذلك، لكنني وصلت للمطار على أية حال. ولم أجد اسمي مدرجاً في كشوف الدرجة الأولى ولا في درجة رجال الأعمال. أين وضعوني؟ في مقاعد الدرجة السياحية في الخلف بجوار الحمامات.

وأخيراً وصلتُ إلى كندا وذهبت مباشرة إلى موقع التصوير. وكان وكأنه السحر. كل شيء كان مضاءً، وها هما الرب ونائبه، أو ليون ودي نيرو. صديقاي المقربان اللذان كانا يتقاضيان أجرهما مني، فتقربت منهما بود قائلاً:

"سيرجيو، روبرت، ها أنا ذا! نظرا إلىّ باستهانة وكأننى فتى توصيل الشطائر، أو ممثل غر دخيل طموح، أو طالب شهرة. وكانا شديدى التركيز على مهامهما. وكنت بانتظار التوجيهات.

قلت لليون "أنت تعرف أنه دورى الأول" لكنه تجاهلنى. والتفت دى نيرو تجاهى وقال انظر! هذا الفيلم ليس عنك وليس عن سائق الليموزين. بل عن الشخصية التى قررت ظهورها بالفيلم، تذكر هذا.

تطلب تصوير المشهد إعادته ١٣ مرة. وأوضح ليون لدى نيرو بالتفصيل كيف يغتصب إليزابيث مكغافيرن وطُلب منه أن يعيد توجيهاته جسدياً قبل بدء التصوير، ولم أستطع أن أتذكر ولو مرة واحدة كيف أفتح باب الليموزين. فى الإعادة الثانية نسيت أن أوقف السيارة الليموزين حيث يفترض لى إيقافها. وفى ذلك الوقت، كان دى نيرو يكرر اغتصاب عشيقتى فى المقعد الخلفى، ١٣ مرة! تعرفون روبرت دى نيرو، وأنه ممثل حقيقى، كل مشهد كان يصوره بقلبه! وكان يُفترض منى أن أوقف السيارة الليموزين وأسأل إليزابيث هل أنت بخير؟ فيما أخرج من السيارة وأفتح الباب وأخلع قبعتى، وهذا كل شىء.

وفى النهاية، نقّحوا المشهد حتى لم يتبق لى سوى النطق بجملة واحدة "هل أنت بخير؟"، وحتى بعد ذلك، لم يحب ليون نبرة صوتى، لذا استأجر ممثلاً آخر لينطقها بصوته. كانت تجربة مهينة للغاية، لكنها كانت مثيرة فى ذات الوقت.

من الشائق أن روبرت دى نيرو كان قد عارض اختيار مكغافيرن لدورالبطلة واقترح لاحقاً على أرنون أن يؤدى دور سائق الليموزين فى مشهد الاغتصاب. وبعد أعوام، شعر ميلتشان بتماهٍ تام مع شخصية هيو فينيمان فى فيلم "شكسبير يقع فى الحب"، أى رجل المال الذى تم التفضل عليه بدور صغير فى مسرحيته شريطة

أن يعد بحسن التصرف وعدم التدخل.

في نهاية التصوير، كان لدى ليون ما بين ٨ إلى ١٠ ساعات من اللقطات. وتمكن بمساعدة المونتير نينو باراغلي، من تقليصها لحوالى ٦ ساعات، وأراد أن يعرضها كفيلمين مستقلين، مدة كل منهما ٣ ساعات. لكن شركة وورنر براذرس رفضت، وأُجبِر ليون على تقصير فيلمه مرة أخرى، لتكون مدته فى النهاية ٢٢٩ دقيقة.

وتم عرض النسخة الأقصر فى مهرجان كان السينمائى واستُقبلت بحماس كبير. وفي نهاية العرض، وقف الجمهور ليصفقوا لمدة غير مسبوقة وهى ١٥ دقيقة.

وفى أوروبا، استُقبِل الفيلم بحماس من الجماهير والنقاد على حد سواء وحقق نجاحاً تجارياً ضخماً، يربو على ١٠٠ مليون دولار.

لكن فى الولايات المتحدة، كانت شركة وورنر براذرس لا تزال مستاءة من طول الفيلم بعدما تم تسويقه تجريبياً فى بوسطن أمام جمهور نفد صبره وأصدر صيحات استهجان منذ البداية عندما عرفوا أن الفيلم مدته تتجاوز الثلاث ساعات. ومارست الشركة حقوقها وفقاً للعقد، ونقحته ليصبح ١٣٩ دقيقة، وهى ما اعتبرته مدة مقبولة تجارياً. ونتيجة لذلك، فشل الفيلم فى الولايات المتحدة وحقق ثمانية ملايين دولار فقط.

ويمرور الأعوام، حقق الفيلم عودة قوية فى سوق الفيديو والإسطوانات الرقمية الأمريكى من خلال إصدار النسخة الأطول. وتعتبر النسخة الأطول من الفيلم متفوقة عالمياً على النسخة التى نُقحت بشكل مجحف والتى عرضت فى الأصل فى أمريكا.

يذكر جيمس وودز، والذي يعتبر فيلم "وانس أبون أتايم إن أمريكا" أفضل أعمال ليون، على الدي في دي الوثائقي الخاص بالفيلم أن أحد النقاد رأى أن الفيلم هو الأسوأ في عام ١٩٨٤، ليصفه بعد أعوام بأنه أفضل فيلم في الثمانينيات بعدما شاهد النسخة الأصلية الطويلة. ووصف روجر إيبرت النسخة الأصلية غير المنقحة من الفيلم بأنه أفضل فيلم يصف حقبة حظر الكحوليات.

في عام ٢٠٠٢، عندما سألت مجلة سايت أند ساوند عدة نقاد إنجليز عن أفلامهم المفضلة في الـ٢٥ عاماً الأخيرة، جاء فيلم "وانس أبون أتايم إن أمريكا" في المركز العاشر.

وسرعان ما رفع الفيلم مكانة ميلتشان في صفوف هوليوود ليصبح من أهم المنتجين، وليستحق صيت المجازف الجريء.

لكن للأسف، فقد كان لفيلم "وانس أبون أتايم إن أمريكا" أثره البالغ على صحة ليون، ليصبح فيلمه الأخير، وفي ٣٠ أبريل عام ١٩٨٩، مات بسكتة قلبية.

لكن قبل فترة وجيزة من موته، أعطى ليون صديقه أرنون هدية لا تزال حتى يومنا هذا تأخذ مكانها بجوار مسبحه في قصره مونتفورت لاموري، وهي تمثال بالحجم الطبيعي لرجل يجلس أمام مائدة، عليها طبق مليء بالمال. اسم التمثال "العشاء الأخير لرجل طماع". لم تكن تلك رسالة مضمرة، بل تذكرة فقط بأن الحياة قصيرة، وما نفعله بوقتنا المحدود هو ما يهم.

استمرت صداقة أرنون وروبرت دي نيرو، الذي يعيش في عزلة تامة حتى يومنا هذا. وكما في حالة ليون، فقد عبّر عنها من خلال عمل فني، حيث يوجد رمز لتلك الصداقة معلق بمكان بارز في منزل أرنون في ماليبو، وهو عبارة عن لوحة تجريدية رسمها والد روبرت دي نيرو وأعطاها له كهدية.

١٣

ومن الأصدقاء المقربين الآخرين الذين تعرف عليهم أرنون فى تلك الحقبة كان رئيس الوزراء الكندى بيير ترودو. وكان ترودو من أشد المعجبين بسيرجيو ليون، وعندما سمع أن ليون يعمل فى فيلم ضخم، دبر اجتماعاً معه فى روما فى محاولة لإقناعه بتصوير الجزء الأخير من الفيلم فى كندا.

قدّم ليون ترودو لميلتشان وسرعان ما توافقا. ولم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً لإقناع ميلتشان بالموافقة على التصوير فى كندا، واستمتع ثلاثتهم بأمسية طويلة من الأطعمة الإيطالية والنبيذ الفاخر.

وبعد أسبوع، كان أرنون ينزل فى فندق صغير فى إيست هامبتون بنيويورك، عندما تم استدعاؤه إلى الهاتف الوحيد فى الفندق.

– مرحباً، أرنون؟ أنا بيير، هل تتذكرنى؟

– بيير! بيير من؟

– بيير ترودو، لقد تقابلنا فى روما

صُدِم أرنون وتساءل:

– أجل بيير، كيف وجدتنى؟

– الاستخبارات الكندية ليست عديمة النفع كلياً. أرنون أنصت! لم لا تأتى إلى أوتوا لقضاء العطلة الأسبوعية؟ أريد الحديث معك، سأرسل طائرتى لتقلك.

– يبدو الأمر شائقاً، لكن اسمع نصيحتى ولا ترسل طائرة عامة لتقلنى. سأحضر إليك بأسلوبى.

وجد ميلتشان وترودو أنه بينهما الكثير من القواسم المشتركة. كلاهما كان

مطلقاً وأباً حاضناً وولى أمر لثلاثة أبناء، وكلاهما كان لعوباً مسرفاً. وما بين منصب ترودو الهام كرئيس للوزراء، وصعود ميلتشان كمنتج أفلام شهير، لم يمر وقت طويل حتى بدأت الأوقات الممتعة، من الحفلات الفارهة، للمشاهير، للنبيذ، للنساء، للهو.

"كان مستوى الثقة بيننا غير عادى" هكذا أكد لنا ميلتشان، بل إنه حتى قدم له النصح أثناء قمة مجموعة السبع عام ١٩٨٣ فى ويليامسبيرغ، فيرجينيا. وفى مرحلةٍ ما عُهد إليه ترودو بكومة من الوثائق السرية تصف استراتيجية كندا الكاملة بشأن مجموعة السبع. واستمرت صداقتهما المقربة حتى وفاة ترودو فى ٢٨ سبتمبر عام ٢٠٠٠ .

وإذ تركزت أنظار مصلحة الجمارك الأمريكية والمباحث الفدرالية على شركة ميلكو فى هنتغتون بيتش، كان ميلتشان ينتج فيلماً ويدير صفقة ضخمة لطائرة بى ٨٠ كوين أيرلايت للنقل الجوى الخفيف، وطائرة كينغ إير الإلكترونية لجمع الاستخبارات، وكلتاهما من شركة بيتشكرافت. وكان العمل يسير كالمعتاد.

لكن بالنسبة لميلكو، كان الأمر مختلفاً تماماً. حينما سافر ريتشارد وإميلى سميث إلى أوروبا لحضور مؤتمر لحلف الناتو، أغار عملاء الجمارك الأمريكية حاملين إذن تفتيش فدرالياً، على مكاتب شركة ميلكو فى هنتغتون بيتش فى محاولة لمصادرة كل الملفات المتعلقة بالشحنات إلى إسرائيل. وشرعوا يقلبون المكان رأساً على عقب، لكنهم رحلوا بخفى حنين. إذ إنه كان قد تم نقل الملفات. وتركوا أبناء سميث، الذين كانوا يحرسون الشركة، خائفين ومرتبكين.

ثم فى عشية الكريسماس فى عام ١٩٨٤، وفيما كان ريتشارد كيلى سميث يتفقد بريده اليومى فى شركة ميلكو. وجد خطاباً رسمياً من مكتب المدعى العام

الفدرالى لمقاطعة سنترال كاليفورنيا. وشعر سميث بأن هذا الخطاب لا يحمل خيراً. ولم يكن لديه بديل عن فتحه، وفتحه بيدين مرتعشتين ليقرأ:

عزيزى السيد ريتشارد كيلى سميث

بموجب هذا الخطاب أنت مكلف بالمثول أمام مكتب المدعى الفدرالى فى لوس أنجلوس للإجابة عن أسئلة بخصوص تصدير الكرايترون بدون ترخيص، وللمناقشة بخصوص جرائم كبرى محتملة اقترفتها...

سرت قشعريرة باردة فى جسد سميث. واتصل بشريكه المقرب وحامل الأسهم فى شركة ميلكو براين كارتر، والذى كان محامياً سابقاً فى شركة روكويل إنترناشونال. وصُدِم المحامى، وفهم فى الحال تورط صديقه القديم وقال له "ريتشارد! أنت على وشك أن تقابل أناساً من الحكومة الأمريكية مختلفين تماماً عن الأشخاص الذى تعاملت معهم حتى الآن". وشرح له أن الهدف الرئيسى لوظيفة المدعى العام الفدرالى هو وضع أكبر عدد ممكن من الأشخاص فى السجون الفدرالية، وفى الواقع، كلما زاد عدد الأشخاص الذين ينجح المدعى العام الفدرالى فى إيداعهم بالسجون الفدرالية، زادت العلاوات والحوافز التى يتقضاها.

وكانت تلك حقيقة قبيحة.

أوصى المحامى سميث بأن يُوكّل فى الحال أفضل محام يمكنه العثور عليه ورشح له أحدهم. كانت المكالمة التالية من سميث إلى ميلتشان محاولاً التحدث إليه. ومجدداً، لم يستطع تجاوز ديبورا، أو الجدار الواقى لميلتشان.

14

السقوط إلى الهاوية

في النهاية، وبسبب قصة الكرايترون متناهية الغباء، لا يمكن أن يُنتظر منك قراءة نصوص الأفلام، أو الذهاب إلى اجتماعات تسويقية، فيما يعتريك القلق بشأن كل شيء آخر.

أرنون ميلتشان لصحيفة لوس أنجلوس تايمز في ٢٨ فبراير ١٩٩٢

كان ثاني أكثر يوم مرعب في حياة ريتشارد كيلي سميث هو ذات اليوم الذي انهارت فيه إحدى أهم الشبكات الإسرائيلية في الولايات المتحدة والتي أسسها ميلتشان.

١٤

أثناء الأسبوع الأول من يناير ١٩٨٥، دخل سميث مبنى المحكمة الفدرالية فى لوس أنجلوس وفقاً لموعد تم تحديده مسبقاً مع المدعى العام الفدرالى الطموح. ولم يَسِر الاجتماع على ما يرام. حيث رأى سميث أن المدعى العام ويليام إتش فيهى كان عدوانياً لا يتورع عن توجيه الاتهامات.

ووفقاً لسميث، كان فيهى يظن كل شيء يخرج من فمه غير صادق. وأوضح أنه يعتقد أن سميث ارتكب جرائم بشعة وألح إلى أنه بحوزته كميات هائلة من المعلومات الحساسة تتجاوز بكثير قضية المفاتيح النووية. وبالنسبة لفيهى، كانت قضية الكرايترون لا تتعدى قمة جبل الجليد. وعندما لم يعترف سميث فى الحال، اتهمه برفض التعاون. وعندما أنكر سميث تهمة عدم التعاون، وضع فيهى بقوة أمامه وثيقة إسقاط التقادم على المنضدة أمامه وأصر على أن يوقعها قائلاً "حقاً؟ أثبت تعاونك".

وكانت الوثيقة تؤكد أن أى شيء قد حدث منذ أكثر من عشرة أعوام يمكن أن يستغل فى تلك القضية. وقد أراد سميث أن يبدو متعاوناً، وبموافقة محاميه، وقع عليها.

ثم مضى بعد ذلك يخبر فيهى عن مسيرته المهنية الحافلة، والإسهامات الهامة التى قدمها لمنظومة الدفاع الأمريكية. وأشار إلى المهام العلمية والتكنولوجية الهامة التى خدم فيها البنتاغون ووكالة ناسا وحلف الناتو، وعن رتبته المدنية والتى تعادل الرتبة العسكرية لجنرال يحمل ٣ نجوم. وصرح أيضاً أنه لا يعرف الغرض من استخدام الكرايترون.

فجأة قاطع فيهى سميث وهو يضع وثيقة أخرى بقوة أمامه. "هل هذا توقيعك يا سيد سميث؟" وبدا بالتأكيد أنه توقيعه، وكان التوقيع على طلب

استصدار ترخيص تصدير ذخائر من وزارة الخارجية عام ١٩٧٥ . وأكد سميث أنه توقيعه.

وأشار فيهى إلى أن الوثيقة تمثل دليلاً قاطعاً على أن سميث كان يعرف أنه يحتاج لترخيص تصدير ذخائر للكرايترون ولذلك فقد قدم طلباً لهذا الترخيص من قبل ورُفِض هذا الطلب. وبعد ذلك سأل سميث صراحة عن سبب شحن مفاتيح نووية بدون ترخيص تصدير ذخائر.

وحينها اعترى سميث الارتباك بشدة ومضى يرتعد خوفاً وأجاب "لا أتذكر الطلب".

وبلهجة مليئة بالسخرية، أشار فيهى إلى أنه مع كل الخبرات التى وصفها سميث للتو، ستجد أية هيئة محلفين صعوبة فى تصديق سميث بأنه لا يعرف الغرض من استخدام الكرايترون وأنه لا يتذكر أول شحنة حاول إرسالها فى عام ١٩٧٥ .

وبعد أن حاصر فيهى سميث وهو فى الوضع الذى أراده له بالضبط، أدار انتباهه إلى السمكة الأكبر أى أرنون ميلتشان. وسأل سميث: أخبرنا المزيد عن منتج الأفلام الإسرائيلى.

وفى تلك اللحظة الفارقة، لم يكن هناك أى مبرر لدى سميث للدفاع عن ميلتشان، لكنه صرح بأنه لا عِلم له بأى شىء مخالف للقانون ارتكبه ميلتشان، وأنه إن وقع خطأ، فقد كان خطأ بريئاً. وضغط عليه فيهى، ولمّح إلى أنه سيتساهل معه إذا تعاون.

ولم يخطر لسميث أى شىء، مما أدى إلى تزايد عدوانية فيهى وشعوره

بأن سميث يخفى أمراً ما.

وعلم سميث لاحقاً أن مكتب المدعى العام الأمريكى كان لابد وأن يواجه صعوبات جمة فى إثبات القضية ضده لولا أن المكتب تمكن من استخدام طلب ترخيص تصدير الذخائر الذى قدمه هو للطلبية الأصلية للكرايترون لأجل إسرائيل عام ١٩٧٥. وكان قانون التقادم ينطبق على طلب الترخيص ذاك. وجوهرياً، فقد اكتشف أنه قد وقع على دليل حاسم ضد نفسه، باتباعه مشورة محاميه. وكان يوماً سيئاً فى مجمله.

وأخطر فيهى سميث أنه طلب التحقيق مع ابنيه، البالغين من العمر ١٧ و٢٠ عاماً، واللذين يعملان فى شركة ميلكو. وأنه من المفترض أن يمثلا أمام هيئة محلفين كبيرة كان ينتوى جمعها ليضمن توجيه اتهام له. وكانت الفكرة هى تخويف ابنيه من أنهما قد يتهمان فى جريمة، وتخويف سميث من الرب.

كانت التحقيقات حول شركة ميلكو ما هى إلا جزء صغير من مشروع أكبر بكثير يعرف باسم "العملية إكزوداس" أو الرحيل، وهو إجراء خاص لإدارة الجمارك الأمريكية صممته إدارة ريجان وأطلقته لإجهاض عمليات التجسس وتهريب التكنولوجيا والمعدات العسكرية عامة. حيث كان الهدف منه هو القضاء على عمليات التجسس مزدوجة الاستخدامات وعلى أسواقها.

تم تمويل تلك العملية بـ٣٠ مليون دولار من ميزانية وزارة الدفاع، وتم نقلها إلى إدارة الجمارك الأمريكية عام ١٩٨١ . وبعد مرور أعوام على ذلك الإجراء، تصاعدت الضغوط وأتى بنتائج فعلية، حيث تمت مصادرة ٢٣٣٠ شحنة غير قانونية تقدر بـ١٤٨,٨ مليون دولار وتم توجيه ٢٢١ اتهام، لكن فى النهاية أدين ٢٨ شخصاً فقط كنتيجة للعملية إكزوداس.

ولم ترض الوتيرة التى سارت بها القضية الإدارة. إذ إنهم أرادوا عمليات قبض،وعناوين صحف رنانة،وأرادوا الدماء! وأن تكون الأحكام المشددة عبرة رادعة، لإثبات أن القبضة الأمنية أصبحت أكثر إحكاماً. وكانت النتيجة أن سمى عام ١٩٨٥ بعام الجواسيس.

وإن كان الحال فى ميلكو قد ساء قبل زيارة سميث لمكتب المدعى العام، فقد غدا على مشارف المصيبة المحققة بعدها. وفى إبريل زار سميث محاميه جيمس ريديت ليبلغه بأنه سيتم اتهامه بتهريب المفاتيح النووية إلى إسرائيل. ولم يكن متأكداً من طبيعة الاتهامات التى ستوجه إليه لكنه كان يعلم يقيناً بأن الاتهامات ستعلن الشهر التالى. وحذره المحامى أيضاً من احتمال وجود بعض الاهتمام الإعلامى بتلك القضية وأنه عليه أن يهيئ نفسه لذلك. وفزع سميث من ذلك الاحتمال.

أبلغ سميث محاميه أن الاتهام سيوجه له فى ذات الوقت الذى خطط هو وعائلته السفر فى إجازة طويلة إلى إسرائيل لزيارة القدس ومواقع مقدسة أخرى، مع التوقف فى أوروبا عند العودة. وامتثل المدعى العام على كُره منه بعد موافقة المحكمة على الرحلة شريطة إيداع سميث مليون دولار كضمان لعودته.

وأعاد سميث رهن منزله الشاطئى فى هنتنغتون بيتش ليحصل على مبلغ الـ ١٠٠ ألف دولار المطلوب للكفالة. ثم اشترى بعد ذلك ٩ تذاكر لعائلته ومنهم أبناؤه وأصهاره.

وفى ١٢ مايو عام ١٩٨٥ أقلعت طائرة خطوط تى دبليو إيه بعائلة سميث من لوس أنجلوس والتى كان مقرراً لها التوقف سريعاً فى باريس قبل التوجه إلى تل أبيب.

وفى مطار تشارل ديغول تم تزويد الطائرة بآخر الطبعات من صحيفة إنترناشونال هيرالد تريبيون والتى شكر سميث المضيفة لإعطائه نسخة منها. وفتح الصحيفة بشكل تلقائى وصدم عندما قرأ العنوان الذى يقول "اتهام رجل أعمال بتهريب مفاتيح نووية إلى إسرائيل". وكان اسمه مذكوراً فى أنحاء متفرقة من المقال. ولاحظ أن الراكبين الآخرين يقرأون نفس المقال وشعر بإحراج بالغ، وكأنما كانوا ينظرون إلى نشرة لمتهم مطلوب القبض عليه.

لكن ما صدم سميث بشدة أنه عرف من المقال لأول مرة، أن له أن يتوقع حكماً بالسجن لـ١٠٥ عام وغرامة ١,٥ مليون دولار.

وبكل بساطة، لم يستطع سميث تصديق عينيه، وكأنهم كانوا يتحدثون عن شخص آخر. فبعد كل شيء، كان كل ما اقترفه هو عدم ملء البيانات فى الأوراق المطلوبة لتصدير قطعة ثمنها ٧٥ دولار. كيف له أن يسجن ١٠٥ عام مقابل ذلك؟!

صدم سميث أيضاً ولكن بدرجة أقل من حقيقة أن المدعى العام قد كشف للعلن لأول مرة أن الكرايترون يستخدم لغرض تفجير القنابل النووية. ولم يكن هذا معلوماً للعامة حتى صرح المدعى العام بتلك المعلومات الحساسة فى سعيهم لعلانية القضية. وعادة، فإن التصريح بمثل تلك المعلومات يعد تعدياً يستحق التجريم، أو على أقل تقدير تصرفاً غير مسئول بالمرة.

وبعد إفشاء السر، غدا كل شخص على وجه الأرض لديه مفتاح كرايترون يعرف أن بحوزته مفتاحاً نووياً.

وصلت عائلة سميث إلى إسرائيل كسياح. ولم يتلقوا معاملة خاصة فى

المطار تلك المرة، بل وقفوا فى الصفوف الطويلة شأن أى شخص آخر. وبعد المرور من الجوازات والجمارك، استقلوا سيارات تاكسى إلى فندق هيلتون تل أبيب.

ولم يكن سميث هو الوحيد الذى أصابه الهلع من العلانية المفاجئة، حيث ظهرت مقالات متماثلة فى صحف فى أنحاء الولايات المتحدة وأوروبا وحول العالم، ولاقت الاهتمام الكامل من ميلتشان ووزارة الدفاع الإسرائيلية ووزارة الخارجية ورئيس الوزراء بيريز نفسه. وأجريت سلسلة سريعة من المكالمات الهاتفية والاجتماعات بين لاكام والموساد ووزير الدفاع إسحاق رابين وشمعون بيريز وميلتشان. ثم طلب ميلتشان من بيريز الاتصال بريجان طلباً للمساعدة.

وبعد فترة وجيزة، تشكل رد الفعل الإسرائيلى، ورن الهاتف فى السفارة الأمريكية فى تل أبيب. وخلال ساعات من نشر قضية الكرايترون وشركة ميلكو عالمياً فى ١٣ مايو ١٩٨٥، نظّم ثلاثة ممثلين مطلعين على الأمور من وزارة الدفاع الإسرائيلية ووزارة الخارجية اجتماعاً عالى المستوى مع نظرائهم الأمريكيين فى تل أبيب. وقدم الجانب الإسرائيلى للأمريكى وثيقة تفيد بأن مفاتيح الكرايترون التى استوردتها شركة هيلى تريدينغ ليتد فى الاستخدامات التالية: استُعملت معينات المدى البعيد، راصدات رادار الليزر، وأنظمة السيطرة على النيران.

وعرض الإسرائيليون إعادة الكرايترون الذى لم يتم استخدامه. وصرحوا بأنه قد تم تدمير ١٠٠ مفتاح كرايترون أثناء الاختبارات.

واستمرت المفاوضات بين البلدين لأيام. ومن المفارقات، أنه أثناء الوقت

الذى كان فيه سميث وعائلته موجودين فى إسرائيل فعلاً، ويقيمون فى فندق هيلتون تل أبيب على بعد خطوات من السفارة الأمريكية فى شارع هيركون، تمت إعادة ٧١٠ مفتاح كرايترون إلى السفارة الأمريكية وتم شحنها فى الحال إلى الولايات المتحدة فى حقائب دبلوماسية، ضمن أشياء أخرى، كأدلة ضد سميث. أما الـ ١٠٠ مفتاح كرايترون التى تم تدميرها، فقد أصدرت وزارة الدفاع الإسرائيلية بياناً رسمياً بأن إسرائيل لم تستخدمها لأية أغراض نووية، وأن أياً منها لم ينقل إلى أى بلد آخر.

من غير معلوم المستوى الذى ذكر به اسم ميلتشان فى تلك المفاوضات، أو ما إن كان قد تمت اتصالات مباشرة من بيريز إلى البيت الأبيض كما طلب ميلتشان. لكن ما نعرفه من شمعون بيريز، أنه فى ذات الوقت فى مايو ١٩٨٥، استقبل رئيس الوزراء الإسرائيلى زائراً فى سرية بالغة وهو مايكل ليدين، والذى كان فى مهمة كلفه بها روبرت مكفارلين، مستشار الأمن القومى للرئيس ريجان. وطلب ليدين مساعدة بيريز فى التوصل لطرق للتأثير على إيران فيما يخص الرهائن الأمريكيين المحتجزين فى لبنان. وكان التفاهم بين ليدين وبيريز، ضمن أشياء أخرى، بداية تورط إسرائيل فى فضيحة إيران كونترا الشهيرة.

ما تلقته إسرائيل فى المقابل لا يزال محلاً للتكهنات. يقول ليدين "كل ما أعرفه أنه عقب اجتماعى الخاص مع بيريز، اتصل بالسفير الأمريكى لدى إسرائيل سام لويس". كان مما أثار الاهتمام، وهذا أقل ما يقال، أنه عقب إعادة مفاتيح الكرايترون بفترة وجيزة، ومباحثات بيريز وليدين السرية، ومكالمة بيريز ولويس، أن صرح إدوارد جيريجيان نائب المتحدث باسم وزارة الخارجية الأمريكية والمساعد الشخصى لريجان للرأى العام أنه يمكنه فقط

أن يشير إلى أن قرار الاتهام فيما يخص قضية ميلكو لا يشمل أى مواطنين إسرائيليين. وأضاف جيريجيان أن الولايات المتحدة قد أبدت قلقها البالغ إلى الحكومة الإسرائيلية بشأن ما زُعِمَ عن انتهاكات للقانون الأمريكى وأنه قد تم التأكيد له أن إسرائيل ستتعاون فى التحقيق الأمريكى الجارى إلى أقصى مدى يسمح به القانون الإسرائيلى.

لم يسمع من قبل عن مساعدٍ لرئيس للولايات المتحدة خرج عن المألوف وأدلى بتصريح خاص للرأى العام حول "من لم يُذكر اسمه فى إجراءات اتهام جارية". وأياً كان المقابل الذى تبادله الطرفان سواء وُجد أو لم يوجد، فقد غدا ميلتشان فجأة بعيداً عن الشبهات.

فى تلك الأثناء، وبينما كانت عائلته تجوب المعالم التاريخية فى المنطقة، لم ينضم إليهم سميث. وحيث إنه لم يكن يعلم بالمفاوضات القائمة فى السفارة الأمريكية، وبالاجتماعات بالغة السرية بين ليدين وبيريز، مضى سميث يبحث عن ميلتشان بحثاً محموماً. وذهب إلى مكتب ميلتشان، واتصل بكل رقم يعرفه، وقصد المطاعم التى كانا يترددان عليها، وطلب مساعدة وكالة لاكام ومسئولين وسياسيين آخرين رفيعى المستوى تعامل معهم على مر السنين عبر ميلتشان، لكن كل الأبواب أغلقت فى وجهه. وأصر الجميع بقوة على وجود ميلتشان فى مهرجان كان السينمائى، والذى يقام سنوياً فى شهر مايو. كانت السكرتيرات لطيفات ومهذبات، لكن بدا واضحاً أنه بعد أيام من طلبه المساعدة أو حتى أذناً مصغية، بدأ سميث يدرك أنه يواجه جداراً عازلاً وأنه لن يجد حلاً لموقفه الخطير فى إسرائيل، وأنها لن تكون ملجأ سرياً، لأن إسرائيل ليس لديها نية للمخاطرة بعلاقتها الخاصة بالولايات المتحدة بسبب عميل أجنبى، على الرغم مما أبدوه من التعاطف معه. فى زياراته السابقة

كان يعامل وكأنه شخصية مرموقة، وكان يقضى وقته مع صفوة أعضاء المؤسسة الأمنية والاستخباراتية الإسرائيلية. والآن غدا لا يستطيع تجاوز سكرتيراتهم، لا على الهاتف ولا شخصياً. فجأة أصبح عديم القيمة. وبدا أن عليه أن يواجه الأمر برمته وحده.

وبعد ذلك تلقى مكالمة هاتفية من ديبورا مساعدة ميلتشان. وجلسا وتباحثا في موقفه بشكل مطول. وسئل سميث عن المعلومات التى أدلى بها للمدعى العام عن الشحنات إلى إسرائيل وعن ميلتشان تحديداً. وأصر سميث على أنه لم يقل أى شيء يجرمه أو يحرجه. ثم تحول الحديث إلى محنته هو. كان من الواضح، أنه إذا وجه المدعى العام اتهاماً ينطوى على احتمال الحكم بالحبس مدى الحياة، ثم لوح له بصفقة، فسيكون من الصعب عليه ألا يقبل بها لإنقاذ عائلته وحياته.

واقترح البعض على ميلتشان أن يؤخر زيارته إلى الولايات المتحدة، على الأقل حتى ينتهى الأمر برمته. لكن عقب التفاهم مع الولايات المتحدة، تلقى الضوء الأخضر للسفر. وكان ميلتشان فى خضم حدث مأساوى آخر متعلق بأحد أفلامه، ولم يكن ينتوى الغياب عن اجتماع محدد مسبقاً فى هوليوود. ومع اقتراب الطائرة من مطار لوس أنجلوس الدولى، لم يكن هناك مجال للجزم بما ينتظره، أو ما إن كان صغار ضباط الجمارك والجوازات الجالسين وراء مكاتبهم قد علموا بالاتفاق الذى تم.

واقترب من نضد الجوازات كما فعل مائة مرة من قبل. وتفحص ضابط الجوازات جوازه بعناية، ونظر إلى ميلتشان، وسلمه جواز السفر وقال له مرحباً بعودتك.

وفى تلك الأثناء تقريباً، عاد سميث وعائلته إلى الولايات المتحدة. ولدى وصوله لبلده، تم توجيهه فى الحال لتسليم جواز سفره، ورُفِعت عنه كفالة المليون دولار.

وتم تحديد موعد المحاكمة فى منتصف أغسطس: وإن كان البيزنس الذى يملكه قد مر بحالة مزرية من قبل، فقد أصبح بعد إعلان الاتهام المدمر شأنه والعدم سواء. ودمرت سمعته كلياً كوطنى متفان أفنى حياته فى العمل على الدفاع عن بلده. ولم يستطع النوم. وأصبحت قائمة طويلة ممن اعتبرهم أصدقاء مهنيين أو شخصيين، بل وحتى الأصدقاء القدامى يتجنبونه آنذاك وكأنه وباء أو نشاط إشعاعى.

ولم تعد الشركة تدر المال، وكان مستحقو الفواتير يطاردونه. وحاول الحفاظ على المظاهر واستمر فى الذهاب إلى مكتبه. وضبط دفاتر الحسابات، وكأنه شخص يضبط المقاعد على سطح سفينة تايتانيك! ولم يكن الحال ليستمر على هذا المنوال. كانت زوجته إميلى قوية وداعمة. وأثناء لحظات الضعف، كانت فكرة الاتصال بمحاميه وتوجيهه إلى الاستسلام وطلب رحمة المدعى العام تغريه. وكانت زوجته هى التى ترفض السماح له بفعل ذلك. وكانت حتى تخبئ الهاتف خوفاً من أن يعطى تلك التعليمات وهى غير موجودة.

لكن عقب ذلك انهارت إميلى شخصياً. وذات يوم لم تعد تتحمل. وهرعت خارجة من مكاتب ميلكو، وهى تبكى، وقادت سيارتها مباشرة إلى المنزل، وشربت سريعاً زجاجة كاملة من الفودكا. ووجدتها ابنتها مغشياً عليها على الأرض. وحاولت إفاقتها لكنها لم تفلح. وهرعوا بها إلى المستشفى حيث

تماثلت ببطء للشفاء بعد أن كادت تفقد حياتها.

وأخيراً أتى شهر أغسطس. وقبل أيام قليلة من المحاكمة، تلقى سميث مكالمة من مساعدة محاميه لتبلغه بأن رأى الشركة المهنى هو وجود احتمال قوى بأن يُسجن، وكانوا يلحون للتوصل لصفقة بين الطرفين أمام المحكمة.

كيف أدخل السجن؟ لم أرتكب أى خطأ! قالها سميث بإصرار.

وظنت مساعدة المحامى أنه يمزح وأجابت "ألا تعرف أن السجون مليئة بأشخاص لم يرتكبوا أى خطأ؟ أعرف هذا منذ أن كنت فى التاسعة من عمرى".

وصدم سميث ولم يرقه هذا الموقف غير المبالى. إن حياته هى التى كانت على المحك. وكان قد دفع للمحامى ٦٠ ألف دولار، فقط ليعرف من مساعدته أن حجة قضيتهم واهية. وفجأة فقد كل ثقة له فى محاميه وفى قدرته هو على الدفاع عن نفسه.

وفى تلك اللحظة اتخذ سميث وزوجته القرار المصيرى النهائى باتباع الخطة التى رسماها والتى كان لها أن تغير حياتيهما للأبد. وكان منذ اجتماعه الأخير فى تل أبيب، قد مضى يفكر فيها ويستعد لها. وقبل بضعة أيام من المحاكمة أخبرا أبناءهما أنهما سيتوجهان إلى جزيرة كاتالينا للراحة والاستجمام قبل أن تبدأ المحاكمة المؤرقة."لم نُرد أن يُتهموا بمساعدتنا"، يؤكد سميث.

وتركا كل عقاراتهما وممتلكاتهما العينية فى الولايات المتحدة لأبنائهما ليهتموا بها. وأخذا الخمسة عشر ألف دولار احتياطى الطوارئ النقدى

لشركة ميلكو، وصبغ ريتشارد شعره الرمادى ليصير كله أسود. وحزما حقائب خفيفة، وغادرا متوترين من المرأب. وكانا فى حالة من الخوف العميق وجنون الارتياب من أن يتعقبهما أحد. وقادا السيارة بشكل عشوائى لحوالى ٢٠ دقيقة، وهما يغيران الحارات، وينعطفان سريعاً ويغيران اتجاههما لتضليل أى متتبعين محتملين. وما أن اقتنعا بأنهما غير متتبعين، دخلا إلى طريق ٤٠٥ السريع متجهين شمالاً وخرجا منها إلى جادة سينشرى بوليفارد تجاه مطار لوس أنجلوس الدولى.

تركا سيارتهما فى مبنى الانتظار أمام صالة وصول برادلى الدولية الجديدة، وتركا المفتاح فى فتحة التشغيل، ووصلا إلى نضد التذاكر قبل حوالى ٤٠ دقيقة من إقلاع الرحلة الجوية. وحجزا تذكرتين ودفعا ثمنهما نقداً.

"كنا متوترين وأخذنا نتفحص منطقة الانتظار بحثاً عن أى شخص قد يكون يتتبعنا. وشعرنا بالارتياح عندما أُعلن عن قيام رحلتنا عبر مكبرات الصوت وهرعنا لركوب الطائرة قبل ٢٠ دقيقة من إقلاعها. حيث كنا سنطير بلا توقف حتى وجهتنا، لنصل فى الخامسة مساء. وكل ما كنا نحمله بعد ٢٤ عاماً من الزواج هو حقيبتان خفيفتان تحت مقعدينا" هكذا يتذكر سميث.

كانت الرحلة مريحة فى الدرجة السياحية، إذ كان بينهما مقعد شاغر لكنهما بالكاد تكلما طوال الرحلة. وكانا فى حالة صدمة وعدم تصديق لما فعلاه للتو وتداعياته على بقية حياتهما.

كان عدم مثول ريتشارد كيلى سميث فى محاكمته خبراً مدوياً. وانتشرت الفوضى فى قاعة المحكمة عندما طالب المدعى العام الفدرالى ويليام فيهى

بصوت عال بإصدار مذكرة قبض بحقه. وأصدرت قاضية الجلسة بِاملا آن رايمر فى الحال مذكرة قبض وأمرت بإخطار الإنتربول بأن سميث هارب من العدالة وأنه يجب القبض عليه وإعادته إلى الولايات المتحدة فى الحال.

ما لا يصدقه عقل، هو أن جيمس ريديت محامى سميث وإذ هو موجود فى قاعة المحكمة محاط بالصحفيين، أقر بأن السيد سميث قد شحن المفاتيح النووية بدون ترخيص. ودوّن المدعى العام تعليقات ريديت وتعهد باستدعائه كشاهد إثبات ضد سميث إذا تم القبض عليه ومثل أمام المحكمة، ولتذهب للجحيم ميزة السريةَ بين الموكل ومحاميه.

وفى تلك الأثناء كان ريتشارد وإميلى سميث فى أمان خارج القطر. وبمرور السنين، تكهن العديد من الصحفيين والخبراء أن الزوجين سميث هربا إلى إسرائيل وأنهما يختبئان فى ضاحية هرتسليا بيتوح الراقية شمال تل أبيب، حيث يمتلك ميلتشان منزلاً هناك.فيما رأى آخرون أنه بصفته بحار خبير، فقد هرب بقارب شراعى إلى المكسيك ومنها إلى أوروبا. وانتشرت شائعة أخرى بأن الموساد قام بتصفيته.

قد كان بالفعل قد شوهد فى هرتسليا بيتوح يبحث عن ميلتشان أثناء رحلته فى إسرائيل، بعد أن أُعلن خبر اتهامه قبل بضعة شهور فى مايو ١٩٨٥، لكنه عاد إلى الولايات المتحدة قبل محاكمته فى أغسطس. وربما كان الفرق فى التوقيت الزمنى هو مصدر الارتباك وشائعات ظهوره فى هرتسليا.

وما أن وصلا إلى فرانكفورت، ألمانيا وغادرا الطائرة، واجها بقلق أول عقبة وهم ضباط الجوازات الألمان. وفتح الضابط ببطء جواز سفر الدكتور "جون شيلر"، ونظر إلى الصورة والمعلومات المفصلة. وكان كل شيء متطابقاً

١٤

كلياً. فختم جواز السفر وقال "مرحباً بك فى ألمانيا"،وأعاده إليه. واجتاز سميث بهذا أول اختبار له من اختبارات عديدة تنتظره.

وبعد أن قضيا ليلتهما فى فرانكفورت، استأجر الزوجان سميث سيارة وبدآ رحلة طويلة بالسيارة عبر الريف الجميل إلى وجهتهما المبدئية، حيث كانا ينتويان التوارى عن الأنظار والتفكير ملياً فى الطريقة التى سيقضيان بها بقية حياتيهما.

١٥

نـــادى القتـــال

معاداة السامية هى معاداة السامية، حتى حينما يكون مصدرها شخص يهودى مندمج فى مجتمع بيفرلى هيلز.

أرنون ميلتشان فى الفيلم الوثائقى "معركة فيلم برازيل" للمخرج جاك ماثيوز

كان عام ١٩٨٥ من أسوأ الأوقات بالنسبة لميلتشان وأفضلها. ومما لا يصدقه عقل، أنه مع انهيار ميلكو من حوله وانتشار اسمه فى الصحافة العالمية مرتبطاً بفضيحة تهريب المفاتيح النووية الوحيدة التى تم تسجيلها بإطلاقه

١٥

كان ميلتشان ينتج فيلمين شهيرين أحاطتهما المشاكل الكثيرة، وفى ذات الوقت كان يخوض ما ذاعت سمعته فى هوليوود باسم "معركة فيلم برازيل"، وهو نزاع حامى الوطيس بين ميلتشان وأحد أهم مديرى هوليوود التنفيذيين والذى صنع سابقة تاريخية ودفع بميلتشان إلى مكانة أسطورية فى مجال صناعة السينما. صكّ "اسم معركة البرازيل" صحفى متقاعد اسمه جاك ماثيوز، والذى غطى المشكلة بأكملها لصحيفة لوس أنجلوس تايمز فى منتصف الثمانينيات. وفى عام ١٩٨٧ كتب كتاباً تفصيلياً يحمل نفس الاسم بالتعاون مع ميلتشان والمخرج تيرى غيليام، يستحق فى حد ذاته أن يَصنَع فيلماً.

بدأ الأمر كله عندما قابل غيليام مخرج فيلم "مونتى بايثون" الشهير ميلتشان فى مساء بارد فى مارس ١٩٨٢ فى مطعم إليزيه ماتنيون فى باريس، والذى كان يستخدمه ميلتشان كمكتب غير رسمى له. ونظم هذا الاجتماع هارى

أولفاند وكيل روبرت دى نيرو.

كان غيليام، شأن كثير من المخرجين الذين يعتبرون أنفسهم فنانين فوق العادة، لديه شك قوى فى نظام هوليوود، وكان ميلتشان يكتسب بالفعل سمعة المنتج المستقل المستعد لخوض مشاريع محفوفة بالمخاطر لم تكن هوليوود المؤسسية لتقترب منها. وسرت الشائعات أيضاً، وكان لها قدر من الجاذبية، بشأن مصدر تمويله، وعمل ذلك على تحسين حالته المتبدية كمتمرد هوليوودى ثرى. قال غيليام: كل من تحدثت معه قال لى ابتعد عن هذا الرجل، إنه تاجر سلاح يصنع أفلاماً، إنه زلق للغاية ولا يمكنه التقيد بشروط أحد. كان الأمر لا يتجاوز أنهم يغارون منه إذ كان يحرز النجاح باستمرار. وارتأيت أنه إن كان الجميع فى هوليوود يتحدثون عنه بالسوء، وإن كانوا كلهم ضده، فلابد وأنه لا بأس به.

وفى الحقيقة، كان ميلتشان منزعجاً من سمعته المتنامية كمنتج غير تقليدى لأفلام غير تقليدية. وكان يريد فى النهاية أن يشق طريقه إلى هوليوود المؤسسية، لكنه شعر أن عليه أولاً أن يبرز ويترك بصمته، وسينطوى هذا حتمياً على مشاريع محفوفة بالمخاطر تسترعى انتباه الآخرين.

ولم يأت اختيار مطعم إليزيه ماتنيون كمكتب له مصادفة، بل كان المطعم فى نفس الشارع الذى فيه شقته، وعلى بعد مسافة سير من مكان عرض مسرحيته أماديوس، بطولة بولانسكى، والذى كان ينضم إليه أحياناً على العشاء بعد العرض، ويكون عادة فى قمة حماسته. وكان العشاء غالباً ما يتحول إلى حفلات صاخبة مترعة بالنبيذ، يثمل فيها الأصدقاء والضيوف ويتجادلون فى كل شىء من الفنون المعاصرة إلى السياسة الدولية. وبعد تبادل قليل من الأحاديث وشراب ليس بالقليل، انطلقت صداقة ميلتشان وغيليام، ومضى غيليام يخبر ميلتشان بمشروع فيلم يعده اسمه "برازيل"، وأضاف أن شركة باراماونت بيكتشرز قد وقعت معه عقداً.

وانبهر ميلتشان إذ رسم غيليام بالكلمات صورة زاهية لفيلم برازيل، مشهداً بمشهد، ولقطة بلقطة، ويداه تلوحان بحماسة فى كل الاتجاهات ويصدر فمه أصواتاً غريبة. ووجد ميلتشان صعوبة فى تتبع حبكة القصة، لكن كمتعلم بصرى، فقد استطاع رؤية الصور بوضوح فى خياله وتأثر بالقواعد العاطفية للقصة المجردة السريالية.

تخيل عالماً غريباً فى مكان ما بالقرن العشرين، أو فوهة جحيم رملية حضرية تغيرت معالمها بجراحات التجميل! وقد غزت الأتمتة كل أوجه الحياة، وكل الأعمال الورقية، وأصبحت البيروقراطية، وعدم الكفاءة، والإخفاقات الميكانيكية هى قانون العصر. يبدأ فيلم برازيل بسام لورى، وهو بيروقراطى وضيع اهتماماته الرئيسية

فى الحياة تخيلات حية عن امرأة، على ألحان أغنية الفرق الشهيرة فى الأربعينيات "البرازيل"، ومن هنا أتى الاسم.

ويتورط لورى بدون قصد فى مكيدة إرهابية عندما يتبين أن فتاة أحلامه جارةُ رجل تم القبض عليه لنشاطه الإرهابى نتيجة خطأ طباعى! أما الإرهابى الحقيقى فهو تقنى تسخين خائن.

وتقابَل موجة غامضة من التفجيرات الإرهابية من قبل وزارة إعلام متزايدة النفوذ، والتى لا يعترف بلطجيتها المستبدون قط، بالقبض على الرجل الخطأ وتعذيبه. ويصل سعى لورى المتزامن للبحث عن الحقيقة وعن الفتاة إلى مستويات أعلى فى وزارة الإعلام بالرغم من إشاراتهم التحذيرية بأن سعيه سيعرضه للخطر لا محالة، وسيعرضه "لتعذيب صديق"، سيدفعه فى النهاية إلى الجنون.

وكروح مستقلة، استطاع ميلتشان التماهى مع شخصية لورى ولم يستطع منع نفسه من التفكير فى وزارة إعلام أخرى عرفها جيداً فى حياته متمثلة فى وزيرة إعلام جنوب إفريقيا إسيشيل رودى.

ومع تأثير النبيذ، شعر ميلتشان برؤية غيليام النافذة تغوص فى أعماقه. كانت قصة قوية استغرقت من غيليام حوالى ساعة ليرويها. وإذ بدأ يتعب، وصل بولانسكى بعد انتهاء مسرحيته وحينها بدأ النبيذ الفاخر يتدفق حقاً. وفى منتصف الحديث الهادئ، التفت ميلتشان إلى غيليام وذكر بشكل تلقائى أن "برازيل" من المشاريع التى يود أن ينسب اسمه إليها.

وسأله غيليام "هل أنت جاد"؟

وأجاب ميلتشان "بالتأكيد، أتمنى لو استطعت".

وفى الصباح التالى، اتصل غيليام بمحاميه فى لوس انجلوس وكلفه بإلغاء الاتفاق مع شركة باراماونت. واتصل غيليام بعد ذلك بميلتشان وأبلغه تلك الأخبار.

كان ميلتشان قد ناقش بشكل عفوى تصوره لاسمه على فيلم غيليام الخيالى الغريب بينما يحتسى بضعة كئوس من النبيذ، لكنه فجأة! وجد نفسه ملتزماً بدفع ملايين الدولارات.

لم يكن قد قرأ النص، ولم تكن لديه فكرة عن الميزانية، ولم تكن لديه فكرة عمن سيشتركون فى الفيلم، ولم تكن لديه فكرة عن أجر تيرى غيليام كمخرج.

لكن ما كان يعرفه هو أن تيرى غيليام قد راقه بشكل تلقائى وكذلك الرؤية التى قدمها له الليلة السابقة.

واتصل ميلتشان بمحاميه كينيث كلينبيرغ فى لوس أنجلوس وطلب منه تحضير الأوراق. وأشار كينيث بوضوح إلى أن ميلتشان قد فقد عقله. ومع ذلك، فقد أعطى ميلتشان إشارة البدء فى المشروع. واستخلص غيليام من ميلتشان حقوق الإدارة الإبداعية كاملة وحقوق إصدار النسخة الأخيرة.

ومر أكثر من عام، وفى مهرجان كان السينمائى عام ١٩٨٣، وعندما بدأت الأمور تأخذ منحى شائقاً فى مشروع فيلم "برازيل"، كان الجميع يتحدثون عن فيلم "وانس أبون أتايم إن أمريكا" الذى بدأ تصويره، وفيلم "ذا كينغ أوف كوميدى"، والذى عُرِض لأول مرة فى الولايات المتحدة. وصل ميلتشان إلى مهرجان كان فى صحبة حاشيته روبرت دى نيرو وجيرى لويس والمخرج مارتن سكورسيزى. ولاحظهم مسئولو الاستوديو. وجذب غيليام الأنظار أيضاً فى ذلك العام مع عرض فيلم مونتى بايثونز "مينينغ أوف لايف". وقرر ميلتشان وغيليام تخصيص جزء من وقتهما للترويج لفيلم برازيل، وقدرا ميزانيته بحوالى ١٢ مليون دولار.

نظم شون دانييل، مدير الإنتاج فى شركة يونيفرسال ومن المعجبين بسلسلة أفلام مونتى بايثون، اجتماعاً مع ميلتشان وغيليام فى فندق كارلتون، نفس الفندق الذى تعرف فيه ميلتشان منذ عام على سيرجيو ليون. وفى نفس الغرفة تواجد بوب ريم، الرئيس الجديد لشركة يونيفرسال بيكتشرز، وإيان لويس مدير الإنتاج الدولى لشركة يونيفرسال، وشون دانييل نفسه. وعرض غيليام القصة بحماسته التصويرية الفائقة المعتادة. ولسوء الحظ، وبدون النبيذ، بدا مستوى الاهتمام بها متواضعاً ولم تبد الشركة أى التزام تجاهها. فقد كانت الشهية محدودة تجاه تلك النوعية من الأفلام.

ولدى خروجه من الفندق، قابل غيليام وميلتشان جو ويزمان المدير الجديد لشركة توينتييث سينشرى فوكس. وذكر ميلتشان فى الحال الاجتماع الذى كانا قد عقداه للتو مع شركة يونيفرسال، وبالغ فى وصف مستوى حماستهم للفيلم واقترح على ويزمان أن يغتنم الفرصة بينما مازال فى استطاعته ذلك.

وذكر ويزمان أنه قد يرغب فى الحصول على الحقوق الدولية، والتى قد تصل لثلث الميزانية، شريطة أن يحصلوا على التزام من شركة يونيفرسال بالحقوق الداخلية، والتى تمثل الثلثين الآخرين من الميزانية.

وتلقى ميلتشان الاتفاق الشفهى المحدود من ويزمان وحاول استغلاله لأقصى قدر ممكن. وهرع إلى هاتف غرفة الفندق وحاول الاتصال بريم فى الجناح الذى أتيا منه للتو، لكنه لم يجب الهاتف. وبكل جرأة ذهب ميلتشان مباشرة لغرفة ريم واقتحم اجتماعاً له بشريكيه.

"المعذرة يا سادة! لا أحتاج إلا لدقيقتين" قالها ميلتشان بإصرار، فوجه ريم ميلتشان إلى الغرفة المجاورة كى يتحدثا على انفراد.

- بوب! يجب أن أعرف في الحال ما تريد أن تفعل؟ جون ويزمان ينتظر.

- كم سيكلف الفيلم؟

- ١٥ مليوناً.

- هل نحوز حقوق العرض العالمية؟

- كلا، لقد وعدت شركة فوكس بالحقوق الأجنبية للتو، يمكنك أن تنال الحقوق الداخلية بثلثي الميزانية.

- لا يمكنني القبول بذلك يا أرنون، لا يمكنني أن أدفع ١٠ ملايين. أقصى مبلغ هو ٩ ملايين

- لا بأس، ٩ ملايين إذن، سأسهم بالباقي.

وهكذا أبرمت الصفقة مع شركة يونيفرسال في أقل من لحظات قلائل. ثم هرع ميلتشان مجدداً إلى ويزمان بتأكيد من شركة يونيفرسال وجعله يلتزم بدفع ٦ مليون دولار بناء على التزام يونيفرسال. وخلال طرفة عين، رفع ميلتشان ميزانية إنتاج فيلم برازيل ٢ مليون دولار أخرى. وهرع غيليام وراء ميلتشان لاهثاً عبر أروقة الفندق، وقد أدهشته مناورات ميلتشان. وخلال أسابيع تم تحرير العقود.

لسوء الحظ، كانت أيام كل من ويزمان وريم في شركتي فوكس ويونيفرسال محدودة، وعندما أجريت حركة تنقلات للموظفين في الاستوديوهين، شك ميلتشان وغيليام أن فيلم برازيل سيتم الاستغناء عنه، خاصة في يونيفرسال، حيث انتقل فرانك برايس من شركة كولومبيا بيكتشرز ليصبح رئيس مجلس إدارة مجموعة الأفلام الطويلة.

وسارع غيليام وميلتشان بإنتاج "برازيل" ليضعا شركة يونيفرسال فى موضع حرج باهظ التكلفة إذا قررت الانسحاب من الإنتاج. صار على برايس والذى كان قد هم بالفعل فى الانسحاب من فيلم برازيل، الآن التعايش مع الفيلم.

كان النص الذى تمت الموافقة عليه فى العقد بين شركة يونيفرسال وميلتشان من ١٦١ صفحة. وكان كلا الطرفين يعرفان ما يكفى عن صناعة الأفلام بحيث يدركان أن صفحة واحدة فى النص -بشكل عام- تترجم إلى دقيقة واحدة فى الفيلم، لذا كان من الواضح أن الفيلم ستكون مدته حوالى ساعتين و٤٠ دقيقة، وكانت هذه مدته بالضبط عندما تم تقديمه إلى مسئولى شركتى فوكس ويونيفرسال.

وانصرف مسئولو الشركتين من العرض الأصلى للفيلم بوجهتى نظر مختلفتين تماماً.

كان لارى جوردون من فوكس والذى حل محل جو ويزمان، مرتاحاً لما شاهده، وكان الفيلم جاهزاً للتوزيع دولياً من جانب شركة فوكس. لكن مديرىْ شركة يونيفرسال، بالرغم من أنهما كانا مجاملين، كانا متشددين لاعتقادهما أن الفيلم كان طويلاً وكئيباً أكثر مما يجب. وكانا قلقين على إمكانية تسويق مثل هذا الفيلم السيريالى. واعتبراه فيلماً مستفزاً من الناحية الفنية، وهو تعبير مهذب فى هوليوود لوصف الأفلام التى تعتبر فاشلة تجارياً.

وعقب عرض الفيلم الأصلى، مرت الشهور بدون أن تصل أخبار لغيليام أو ميلتشان من شركة يونيفرسال بخصوص التوزيع الداخلى. ثم ذات يوم تلقى ميلتشان مكالمة من ميلفين ساتلر محامى شركة يونيفرسال يشير فيها إلى أن البند فى عقده مع شركة يونيفرسال بخصوص مدة الفيلم تُرِك خالياً من دون قصد.

وشرح أن هذا خطأ كتابى بسيط وطلب من ميلتشان وغيليام أن يوقعا على تعديلٍ لتأكيد مدة الفيلم.

ووصف ساتلر الأمر بأنه روتينى، وطلب من ميلتشان التوقيع على التعديل كخدمة شخصية، حتى ولو كان من أجل تغطية أخطاء المحامى فقط. ولم يفكر ميلتشان كثيراً فى الأمر، لكن غليام راوده الشك فى الحال وحثه على ألا يوقعه. واستشعر أن شركة يونيفرسال تعتزم استغلال قضية الحد الزمنى لإجبارهم على قبول الإدارة الإبداعية للفيلم.

وفى تلك المرحلة، كان ميلتشان أقل ارتياباً من غيليام وأكثر اهتماماً بالإبقاء على علاقة إيجابية مع شركة يونيفرسال. وفى ١٠ أكتوبر ١٩٨٣، أرسل التعديل الموقع بالفاكس، الذى نص على أن وقت العرض ليس أقل من ٩٥ دقيقة وليس أكثر من ١٢٥ دقيقة.

وآنذاك كان غيليام قد أرسل النسخة الأخيرة، واجتمع حوالى ٣٠ من كبيرى مدراء شركة يونيفرسال فى مسرح ألفريد هيتشكوك فى استوديوهات يونيفرسال فى لوس أنجلوس لتقييم المشروع. وشاهدهم غيليام وهم يخرجون من المسرح ولاحظ أن المديرين الشباب بدوا متحمسين للغاية، لكن من يرأسونهم والأكبر سناً بدوا متوترين وقلقين.

وسرعان ما اختفى فرانك برايس، فيما اعتقد ساتلر المحامى الذى طلب توقيع التعديل بشأن مدة الفيلم الذى رآه طويلاً أكثر مما يجب. وكان الرجل الأعلى منزلة فى الغرفة هو سيدنى شاينبيرغ، رئيس شركة إم سى أيه، الشركة الأم ليونيفرسال. ورأى شاينبيرغ الفيلم طويلاً للغاية وكئيباً، وفاشلاً تجارياً. وقال "سنضطر للترويج له على أنه فيلم هذا العقد"، وكانت العبارة تلطيفاً هوليوودياً لرأيه

"لا أدرى كيف سنبيع هذا الفيلم الردىء بحق السماء!".

لم يفهم ميلتشان، بإلمامه القليل بالثقافة الأمريكية، هذا التلطيف واعتبر أن شاينبيرغ يعنى أنه فيلم رائع، لكن غيليام فهم فى الحال أنهما أمام طريق وعر مع شركة يونيفرسال وأعد نفسه للمعركة. ولم يشاركه ميلتشان رؤيته.

لم يَسِر اجتماع التسويق اللاحق على ما يرام، حيث قرر مدراء يونيفرسال أنه من الأفضل معاملة فيلم برازيل كفيلم استثنائي سيعرض بشكل حذر وانتقائى فى مهرجانات الأفلام الفنية أولاً، مثل مهرجان نيويورك السينمائى فى سبتمبر. وأصر غيليام فى تلك الأثناء على أن يعرض الفيلم بشكل كامل، وتدهورت الأمور سريعاً مذاك. حاول ميلتشان المحب للسلام، تدبير مكالمة هاتفية بين غيليام وشاينبيرغ.

وكان من المفترض أن يتصل غيليام بشاينبيرغ فى وقت محدد لكن عندما اتصل به، أخبروه أن شاينبيرغ غير متاح. وشعر غيليام بالإهانة وقال لسكرتيرته أخبريه عندما يصبح متاحاً بأننى أظنه وقحاً للغاية. وشعر شاينبيرغ بالإهانة، وعندما اتصل بغيليام أخبره بذلك.

كان شاينبيرغ أحد أقوى مديرى الاستوديوهات فى هوليوود قد خاض قدراً كافياً من النزاعات وأصبح مخضرماً فى خوضها. واتصل برئيسه ليو واسرمان، الرئيس الأسطورى لمجلس إدارة شركة إم سى إيه، وطلب منه مشاهدة الفيلم كخدمة شخصية. كان واسرمان من المدرسة القديمة وكان فيلم برازيل مبهماً كلياً بالنسبة له. وكان قراره كما هو متوقع أن الفيلم لا يستحق العرض، وبذا، نال شاينبيرغ رخصته لخوض الحرب.

وعقب اختبار عرض الفيلم على طلاب جامعة كاليفورنيا، والذى أظهر أن ٥٠٪ من الجمهور أعجبهم الفيلم ولم يعجب الخمسين بالمائة الآخرين، وقابل ميلتشان

وغيليام شاينبيرغ فى مكتبه فى البرج الأسود فى استوديوهات يونيفرسال. وبعد بضعة تعليقات إيجابية عن مدى تشويق عناصر الفيلم وإبداعه، تحدثوا فى العمل، واتفقا على أن الفيلم يجب تقليل مدته، وأن توضع له نهاية مختلفة، على أنه يجب تغيير بعض المشاهد، وفيما جلس ميلتشان صامتاً كان غيليام يستشيط غضباً. ورفض كل اقتراح قدمه شاينبيرغ بزعم أن الفيلم هو الذى" اتفقنا كلنا على تصويره". لكن شاينبيرغ تمسك بموقفه وأصر على أن الفيلم لن تعرضه شركة يونيفرسال بدون تلك التعديلات. فهب غيليام من مقعده وقال بوضوح "قبل أن يحدث ذلك سأحرق النيجاتيف والبرج الأسود".

وهكذا تطورت الأمور لما هو أكثر من سوء تفاهم بسيط.

الشيء الوحيد الذى كان فى صالح شركة يونيفرسال فى العقد هو بند مدة الفيلم المعدل. وكان بمقدور غيليام أن ينتقص بضع دقائق من مدة الفيلم وحينها لم يكن ليتوفر أى مسوغ قانونى لشركة يونيفرسال. لكن غيليام رفض فعل ذلك. وآنذاك، كانت شركة يونيفرسال مدينة لميلتشان بـ٥ , ٤ مليون دولار عن فيلم برازيل، وكانت ترفض تسديدها حتى مطابقة بنود العقد تماماً، وفى تلك المرحلة كانت المشكلة الوحيدة هى مدة الفيلم. لوح شاينبيرغ بإمكانية عدم تسديد المبلغ لميلتشان، وبدأ ميلتشان يستاء من ذلك.

وبالرغم من شعوره بالغضب، كان غيليام يستمتع بما يضمره الموقف من سخرية، إذ غدت شركة يونيفرسال تمثل بالنسبة له البيروقراطية المؤسسية التى يسخر منها فيلم برازيل. كان وضع تحاكى فيه الحياة الفن. لكن غيليام كان متخوفاً من شعور ميلتشان بالتمزق بين رؤيته للفيلم والمبلغ الذى تمنعه عنه شركة يونيفرسال. لكن ميلتشان قال إنه ليس ثمة عيب فى محاولة استرداد

حوالى ٥ ملايين دولار من منظمة تستهين بك وتخدعك.

ومن باب المجاملة لميلتشان، نقح غيليام الفيلم حتى أصبحت مدته ١٢٥ دقيقة وأرسله إلى شركة يونيفرسال. وكان الوحيد الذى شاهد تلك النسخة هو سيد شاينبيرغ. ولم يسعد بها، وكلف ميلفين ساتلر محامى شركة يونيفرسال بإرسال خطاب إلى غيليام لإخطاره بأنه ينتوى البدء فى تنقيح فيلم برازيل بمعرفته، وكان هذا حقهم بموجب العقد بعد رفض المخرج للعديد من المحاولات المعقولة للتعاون معهم، وهو بند لم يفرضه من قبل أى استوديو فى تاريخ هوليوود إلا فيما ندر.

وأرسلت شركة يونيفرسال عقب ذلك طلباً رسمياً إلى غيليام بكل اللقطات ومقاطع الصوت حتى يتمكنوا من البدء فى عملية التنقيح. واستجاب غيليام بأن أرسل لهم مجموعة كاملة من القصاصات، وقليلاً من اللقطات المصورة ومقاطع الصوت وكان يعرف أنهم سيستغرقون أشهراً لمحاولة فهمها، وحينها سيكون قد جهز النسخة النهائية. فى تلك الأثناء، كان شاينبيرغ الذى كان يدفع للعاملين أجورهم بالساعة لمراجعة اللقطات المترهلة، كان يستشيط غضباً.

فى مطلع يوليو، أرسل غيليام نسخته النهائية الثانية إلى شركة يونيفرسال. ومجدداً لم تعجب شاينبيرغ، لكن فى تلك المرة لم يكن لديه خيار سوى الإفراج عن مبلغ الـ٤٫٥ مليون دولار التى يدين بها لميلتشان، حيث وفى بشروط العقد، ثم أخطر غيليام عبر ساتلر، أن شركة يونيفرسال ستتولى عملية تنقيح كاملة للفيلم بدون مشاركته وستغيره بشكل جذرى. كان ذلك إعلان حرب بالنسبة لغيليام. وتبادل كلاهما الخطابات الغاضبة، لكن بمرور الوقت تبين لكل من غيليام وميلتشان بكل وضوح أن شركة يونيفرسال ليس لديها نية لعرض فيلم برازيل كما تصوروه بداية.

وبالرغم من كل ما حدث، كان ميلتشان لا يزال يعتقد بسذاجة أنه على علاقة طيبة بشاينبيرغ وبأستوديهات يونيفرسال. لكن شاينبيرغ كان ينظر لميلتشان بأسلوب جد مختلف. وبدا من مقابلاتهما الأولى أنه ينظر لميلتشان بتعالى وكأنه تاجر سجاد شرقى وكيهودى جلف، مهووس بالمال - بخلاف شركة يونيفرسال بالطبع! - ويسعى لاكتساب الاحترام باستخدام ثروته المشبوهة لينخرط فى مجال صناعة الأفلام.

وكانت تلك رؤية مثيرة للاهتمام، إذ أخذنا فى الاعتبار العلاقات السابقة والموثقة جيداً لليو واسرمان رئيس شاينبيرغ ورئيس مجلس إدارة شركة إم سى إيه لفترة طويلة بالمافيا. ومن المرجح أن موقف شاينبيرغ كان ليتغير إذا عرف المزيد عن مغامرات ميلتشان السرية وإنجازاته.

واستغرق ميلتشان بعض الوقت ليدرك وجهة نظر شاينبيرغ، لكنه فى النهاية وجد نفسه مجبراً على الاختيار بين ما اعتبره علاقة عمل مع شركة يونيفرسال والتزامه برؤية مخرجه الفنية. وكان ذاك اليوم يقترب بسرعة.

وبحلول أواخر أغسطس ١٩٨٥، نشرت جريدة لوس أنجلوس تايمز والعديد من الإصدارات الأخرى على صفحاتها الأولى عدم مثول ريتشارد كيلى سميث لمحاكمته بتهم تهريب المفاتيح النووية، وظهر اسم ميلتشان فى كل تلك المقالات تقريباً.

وفى ذات الوقت تقريباً، ظهر اسمه أيضاً فى قسم التحقيقات الصحفية بجريدة لوس أنجلوس تايمز حيث تم تناول النزاع المتفجر الآخر الذى كان طرفاً فيه. وفى ذلك المقال وصف ميلتشان للصحفى جاك ماثيوز قصة نابضة بالحياة عن فيلم مذهل تم تسليمه فى الوقت المحدد له وبميزانية أقل من المتفق عليها لكنهم

تصيدوا أخطاءه وأبقِى على الفيلم رهينة فى مكتب مسئول الاستوديو البيروقراطى الفظ الذى لا يفهم الرؤية الفنية للفيلم ويريد أن يؤدى دور المونتيير لعمل فنى صنعه غيره. وأخبر ماثيوز أيضاً بأنه يريد أن يشاهد فيلم برازيل أكبر عدد من النقاد حتى يقرروا بأنفسهم ما إن كانت تصرفات مسئول الاستوديو مبررة وما إن كان حتى مؤهلاً لتقييمه.

بعدما أغلق ميلتشان الهاتف مع جريدة لوس أنجلوس تايمز، أدرك أنه قد بلغ نقطة اللاعودة، وأنه تجاوز الخط الأحمر وأن علاقته بشاينبيرغ وبالتالى مع استوديوهات يونيفرسال ستتدهور فى الحال. وكان أرنون يعرف أيضاً منذ نعومة أظافره كطفل فى إسرائيل أنه إن وجد نفسه فى خضم معركة، فعليه أن يقاتل لينتصر، ومنذ تلك اللحظة تأهب للقتال. وكما هو متوقع، اتصلت الصحيفة بشاينبيرغ لسماع جانبه من القصة. ولا داعى للقول إنه لم يكن سعيداً.

وخلال أيام كان العنوان المنشور فى القسم الفنى فى جريدة لوس أنجلوس تايمز هو: برازيل: فيلم لا تتحمله أمريكا. وكان المقال مدمراً بالنسبة لشاينبيرغ. وتم تصوير ميلتشان كمنتج يذود عن رؤية مخرجه المتأهب لتحدى الآلة الهوليوودية ومسئولها المتحجر ذى الحلة الفاخرة القابع فى البرج الأسود. وصيغت القضية على أنها حالة من الاضطهاد الفنى، والرقابة، والانتهاك البيروقراطى. وعرض ميلتشان حتى أن يدفع كل النفقات لأى صحفى أمريكى جاد مستعد لمشاهدته خارج الولايات المتحدة. وقال إنه سيستأجر دار عرض فى تيهوانا، المكسيك، وأنه سيُقِل نقاد الأفلام بالحافلة إلى هناك ليُبدوا رأيهم فى الفيلم وليكوّنوا آراءهم الخاصة حول حكم سيدنى شاينبيرغ فى هذا الشأن.

كان مقالاً مدمراً. وتم تصوير شاينبيرغ كرجل متعنت متعجرف وغير عقلانى.

وكان مسئولاً كبيراً فى استوديو بهوليوود، رجلاً اعتاد احترام الناس له وحتى خوفهم منه. كما كان معتاداً على تملق الناس له ليل نهار، وأنه غير مسئول أمام أحد سوى الله وليو واسرمان، وليس بذلك الترتيب بالضرورة. وفجأة، وجد شاينبرج متمردين يهينانه علانية، ويصورانه كصانع أفلام أخرق محبط مفرط الطموح، وأدرك أنها البداية فحسب، وكان محقاً فى ذلك.

وتابع ميلتشان قصة جريدة لوس أنجلوس تايمز مع التماس شاينبيرغ من خلال العديد من الخطابات لعرض فيلمه فى الوقت الذى يسمح بترشحه لجائزة الأوسكار عن عام ١٩٨٥ . وكان يضمر أن شاينبيرغ لا يدرك المادة الفيلمية التى تصلح للترشح لجائزة الأوسكار عندما يراها. وكانت تلك بداية ما وصفه غيليام بحرب الغوريلات الشرسة التى كان شاينبيرغ هدفها الثابت، ولم يكن ليأمل بأى شكل فى الفوز على صعيد العلاقات العامة.

واقترح ميلتشان عرض فيلم برازيل فى مهرجانات أفلام خارج الولايات المتحدة قائلاً "من فضلكم، تعالوا وشاهدوا ما لا يودكم مسئول الاستوديو الأمريكى أن تشاهدوه".

وبلغ أمر العروض العالمية للفيلم الصحافة الأمريكية محدثة ضجة هائلة عادة ما تدفع الاستوديوهات ملايين الدولارات مقابلها. صرحت ڤارييتى أهم مجلة تجارية بأن غيليام والمنتج ميلتشان أعلنا أنهما سيفعلان كل ما بوسعهما لإحباط نية استوديوهات يونيفرسال لإعادة مَنْتَجة فيلم الكوميديا السوداء ذى الرؤية المستقبلية "برازيل" واختصاره.

ونشر غيليام وميلتشان بعد ذلك إعلاناً على صفحة كاملة فى مجلة ڤارييتى جاء به بخط كبير صارخ "عزيزى سيد شاينبيرغ، متى ستفرج عن فيلمى برازيل؟"

وأصبح الفيلم حديث الأسبوع فى المجال السينمائى،وتبنى القضية المخرج الأسطورى أورسون ويلز علناً. وقرر غيليام عرض الفيلم فى جامعتين سينمائيتين فى منطقة جنوب كاليفورنيا ودعا الصحافة، ولم يكن الفيلم سيعرض بشكل رسمى، بل لأجل المناقشة الأكاديمية. وكانت الجامعتان اللتان اختارهما هما جامعة جنوب كاليفورنيا وجامعة كاليفورنيا للفنون. وعندما عرف شاينبيرغ بالأمر، اتصل شخصياً بروى هايديكر مدير العمليات فى جامعة جنوب كاليفورنيا، وأخبره أن شركة يونيفرسال تملك حقوق عرض الفيلم فى الولايات المتحدة وأن أى عرض للفيلم يعد انتهاكاً. ولم يطلب منه صراحة أن يحظر عرض الفيلم فى الحرم الجامعى، لكن شاينبيرغ كان رجلاً قوياً ووصلت الرسالة لهايديكر بكل وضوح. وألغى عرض الفيلم بينما كانت قاعة العرض مكتظة فوق سعتها بالطلاب الذين أملوا فى مشاهدة الفيلم الذى أثار كل تلك الجلبة. وحدثت مواجهة حادة بين غيليام ومحاميه إيريك وايزمان وهايديكر. وانتظر الطلاب بنفاد صبر بينما كان غيليام يعتلى المسرح بشكل متقطع ليخبرهم بالمستجدات، لكن هايديكر رفض السماح لاختصاصى العرض بعرض الفيلم، واتهمه غيليام بصوت عال من على المسرح بأنه أشبه بحارس معسكر نازى، يتعامى عن الأفعال الشريرة.

حاول وايزمان تخطى هايديكر واتصل براسل مكغريغور، رئيس جامعة جنوب كاليفورنيا للفنون السينمائية، لكنه لم يستطع تجاوز سكرتيرته، والتى أخبرته أنه مشغول. وعندما أعلن غيليام أن مكغريغور مشغول لحد أنه لا يستطيع تلقى مكالمته، غادر حوالى ٦ طلاب المسرح وساروا حتى مكتب مكغريغور ليطالبوه بالخروج ليتحدث إليهم. واختبأ مكغريغور فى المكتب حتى بدأ الطلاب يهتفون اخرج! اخرج!. وكان الأمر يحتمل التطور لما هو أسوأ من ذلك لكن غيليام تدخل لتهدئتهم ولتجنب مظاهرة حاشدة.

وتم تأجيل عرض الفيلم لكن وجهة النظر وصلت.

لكن، كان عَرْض الفيلم فى جامعة كاليفورنيا للفنون بعد بضع ساعات تجربة مختلفة، إذ امتلأ المسرح عن آخره حتى أصبح عرضة لخطر الحريق. وقوبل الفيلم بحماس رائع من الطلاب، والذين شعروا وكأنهم مشتركون فى نشاط هدام. عقب ذلك أرسل الطلاب خطاباً مؤثراً إلى شاينبيرغ يطالبونه فيه بالإفراج عن الفيلم.

ومضى غيليام يعرض الفيلم بشكل سرى فى المنازل الخاصة لصفوة نقاد الأفلام فى لوس أنجلوس، الأمر الذى ألهم بعض النقاد لنشر مقالات إطرائية فى الصحف والمجلات، مما جعل شاينبيرغ يبدو أكثر رعونة. فى الصحافة، بدا أن الجميع قد أعجبهم الفيلم. وبدأ شاينبيرغ يدرك أخيراً أن عليه رواية جانبه من القصة ووافق على إجراء مقابلة مع جاك ماثيوز فى جريدة لوس أنجلوس تايمز.

وجه شاينبيرغ نقداً لاذعاً لفيلم برازيل وميلتشان وغيليام بطرق لم يفعلها أى مدير تنفيذى لاستوديوهات هوليوود من قبل أو من بعد. ووصف فيلم برازيل بأنه مسروق من فيلم "١٩٨٤" مع إدخال بعض عناصر التألق لكنه فى الأصل لا يستحق العرض. ووصف غيليام بأنه مخرج غير كُفء مغرور. وعرض شاينبيرغ بعد ذلك بيع الفيلم مرة أخرى لميلتشان.

واقتنص ميلتشان تلك الفرصة وطرح النقاش فى الحال مع شركة يونايتد أرتيستس. ثم اتصل بشاينبيرغ وطلب شراء الفيلم منه بـ٤,٥ مليون دولار. وأصر شاينبيرغ على ٥ مليون دولار بالإضافة إلى نسبة ٣٠٪ من أرباح تأجير فيلم الفيديو، والعروض التليفزيونية الخاصة، والنشاط النقابى. ثم أعلن بعد ذلك عرضه على الملأ، وصرح للصحافة قائلاً:

"آرنون، لدينا فى تكساس مثل شائع يقول: ضع أموالك حيث يكون فمك، وأنا

واثق أنه له مثيل بالعبرية". وكان هذا تصريحاً مثيراً للفضول نظراً لأن ميلتشان كان يجازف بأمواله الخاصة بينما كان شاينبيرغ ينفق من أموال الشركة.

ورد ميلتشان فى عام ١٩٨٥ على ما يعتبره حتى يومنا هذا إساءة متعجرفة ومعادية للسامية وقال "معاداة السامية هى معاداة السامية، حتى عندما تصدر من يهودى مندمج فى مجتمع بيفرلى هيلز".

واستمرت المفاوضات المتوترة وغير المثمرة، لكن حدث شيء بعد ذلك لم يستطع حتى سِد شاينبيرغ التغاضى عنه، وكان ذلك شيئاً محرجاً للغاية جعله يستسلم. فى ١٨ ديسمبر ١٩٨٥، التقى اتحاد نقاد أفلام لوس أنجلوس فى نادى بيفرلى هيلز للصيد لاختيار الفائزين فى مختلف فئات الأفلام لعام ١٩٨٥ . ولم يَرِد فى اللوائح ما ينص على عدم ترشيح الأفلام التى لم تعرض بعد. وقرروا أن فيلم برازيل من ضمن الأفلام المرشحة مع "بيتزيز أونور" و"ران" و"أوت أوف أفريكا" و"ذا كالر بيربل" و"كيس أوف ذا سبادير" و"ومان" و"ماسك" و"باك تو ذا فيوتشر". وعندما تم احتساب الأصوات، فاز فيلم برازيل بجائزة أفضل نص، وأفضل مخرج، وأفضل فيلم لعام ١٩٨٥ . وبالطبع جاءت الأخبار الهامة كصدمة لشاينبيرغ. وتلقى ميلتشان المكالمة بينما كان فى فراشه فى فندق الدبلوماسيين فى ستوكهولم. وعندما أخبروه قفز من فراشه واصطدم رأسه وكاد يفقد وعيه. وانقطعت المكالمة.

وبلغت غيليام الأخبار عبر جهاز الرد الهاتفى. وانطلق يرقص فرحاً فى مطبخ منزله بينما كانت عائلته تشاهده باستمتاع. وعرف أنه، بحكم العادة، ستنشر شركة يونيفرسال إعلاناً فى مجلة ديلى ڤاريتى لتهنئة الفائزين، وعرف أن شاينبيرغ لن يجبن أكثر من ذلك وقال: ربما سنفاجأ، ويحقق الفيلم نجاحاً ساحقاً. أمل أن يحبه الجمهور وأن تبلغ أرباحه الـ ١٠٠ مليون دولار حتى أُعزِى نجاحه إلى السيد غيليام

والسيد ميلتشان.

وتم الإفراج عن الفيلم أخيراً، وثبت صحة تنبؤات شاينبيرغ التجارية المتشائمة. ولأسباب متعددة، منها فشل شركة يونيفرسال فى التسويق والتوزيع، تم عرض فيلم برازيل لفترة وجيزة محبطة لشباك التذاكر. ومع ذلك، فقد احتل مكانته فى شريحة الأفلام السينمائية الكلاسيكية، وبمرور الوقت عوّض خسائره. لكنه لا يَجتذب حالياً إلا القليلين. وفى الأساس، يذكر الناس فيلم برازيل كشرارة لأشهر المعارك فى تاريخ السينما، وأن شخصين مغمورين هزما أحد أقوى المسئولين لأحد أكبر الاستوديوهات السينمائية، ولم يهزماه فحسب بل وأهاناه أيضاً.

عندما تحدى شاينبيرغ كلاً من ميلتشان وغيليام، لم تكن لديه فكرة عما كان يقحم نفسه فيه. وظن أنه سيسحقهما كالحشرات، كأى شخص يجرؤ على تحدى نظام الاستوديو. ولاحظ الناس ذلك، وكأبعد ما يكون عن تدمير مسيرته المهنية، فقد صنع ميلتشان اسماً لنفسه على حساب شاينبيرغ. وفى حوار معه بعد بضع سنوات، زعم شاينبيرغ أنه لا يذكر من النزاع إلا بعض المشاكل المتعلقة بالعقد، ولّح بذلك إلى أنها كانت عقبة تافهة فى طريقه، نجح فى تخطيها.

لكنه لسبب ما استطاع أن يتذكر ما يكفى عن ميلتشان ليصرح بالآتى: "لم يؤكد أحد أن السيد ميلتشان لديه أية موهبة فى هذا المجال. بل إن لديه سلسلة من الأعمال الفاشلة تماماً. أعتقد أن أكبر خدمة يمكن أن يقدمها لمستقبل السينما هى أن يستأنف أنشطته فى مجالات أخرى". وبالطبع لم تكن لديه أدنى فكرة عن مشاريع ميلتشان الأخرى.

وظل سيد شاينبيرغ مديراً لشركة إم سى أيه يونيفرسال حتى عام ١٩٩٥، وعندما تم إقصاؤه من قبل المالك الجديد وهى شركة ماتسوشيتا، تم إنقاذه بصفقة

ثمينة لتأسيس استوديو إنتاج وهو فى طريقه للرحيل. وأسس شركة وأسماها "ذا بابل فاكتورى"، وأنتجت عدة أفلام فشلت فى شباك التذاكر مثل "فليبر" و"ماكهيل نيڤى". ولم تترك انطباعاً جيداً على شركة يونيفرسال التى طبقت الشرط الوقائى وأنهت العلاقة. وأصبح ميلتشان أهم منتج مستقل فى هوليوود بسلسلة من الأفلام الضخمة.

وبعد أعوام، وفقاً لميلتشان، وفى يوم مُشمس فى برود بيتش، ماليبو، كان يتمشى عندما قابل كلباً ودوداً وبدأ يلعب معه. وفى لحظات ظهر مالك الكلب فجأة وكان مستاءً وقال

"معذرة! هذا كلبى".

والتفت ميلتشان ليرى سيد شاينبيرغ وقال متفاجئاً "أعتقد أن هذا يعنى أننا صرنا جارين".

ولم يكن شاينبيرغ ودوداً وأجاب "ستنخفض قيمة العقارات هنا بسببك". ولم يتحدثا مذاك.

وعقب فيلم برازيل، تدهورت علاقة ميلتشان بتيرى غيليام بسبب نزاع مالى. إذ كان ميلتشان يمتلك نصف فيلمهما التالى "ذا أدفينشر أوف بارون مانتشوسين". وفى مقابل التخلى عن نصيبه فى الفيلم، طالب ميلتشان بتعويض: "وقعنا علاقة عمل أنا وهو. كنت أمتلك نصف الفيلم وكان علىّ التضحية به. ولا يعنى بيع نصف الفيلم مقابل ٧٥ ألف دولار أننى صعب المراس، وأخبرت محامىً أن يعقد صفقة يرأف فيها قدر الإمكان بتيرى".

وفى النهاية، ثبت أن غريزة ميلتشان فى الانفصال عن مشروع الفيلم وعن

تيرى غيليام كانت حكيمة من الناحية العملية. ما بدأ بميزانية ٢٣ مليون دولار تضخم حتى صار حوالى ٥٠ مليون دولار. وكانت إيرادات الفيلم أقل من ٦٠٠ ألف دولار فى العطلة الأسبوعية الأولى للفيلم، وإجمالى ٨ مليون دولار فى الولايات المتحدة. أى أنه كان من أسوأ كوارث شباك التذاكر فى تاريخ هوليوود. وهكذا تفادى ميلتشان أزمة أخرى. ومع ذلك، عندما طلبنا رأى ميلتشان فى أفلامه الأولى، ردد تعليقات أدلى بها لصحفيين منذ بضعة أعوام وقال:

"كانت تلك أفضل أيام حياتى. أنتجتُ عدة أفلام مذاك، وكانت الأفلام الأولى تلك الأكثر تحدياً. لم أشعر بمثل هذا الشغف قط، من الناحية المهنية، مثلما شعرت به فى تلك المشاريع الأولى". وبقدرته الاستثنائية على الفصل بين شئون حياته، نجده غير منتبه للمخاطر الهائلة، والصعوبات، والانتكاسات التى عانتها فى نفس العام مؤسسته الأخرى الأكثر سرية. وفى عام ١٩٨٥ شعر بأنه مفعم بالحياة أكثر من أى وقت آخر، بالرغم من التحديات، أو ربما بسببها.

١٦

السيد سميث وزوجته

لا أقول إنني شخص برئ، لكن في تلك الحالة تحديداً، لم أكن أعرف شيئاً.

أرنون ميلتشان في عرضٍ أول لفيلمه في يونيو ١٩٩٣

وسط زوبعة من المشاعر المتضاربة، وصل الدكتور جون شيلر وإميلي إلى موطنهما الجديد المؤقت، أي مدينة زيوريخ، وكانا قد سافرا متخفيين واكتسبا هويتين جديدتين. وكانا يعرفان أنهما سيظلان مختبئين وهاربين من العدالة بقية حياتيهما، وخَطَّطا للاستفادة القصوى من موقفهما غير المحسوم.

١٦

وكانا يعرفان أنه إن خرج الإسرائيليون سالمين من القضية، فسيكون لديهما من الموارد ما يكفل لهما نمط حياة متواضعاً لكنه مريح. وحاولا تبنى منظور إيجابى واعتبار الأمر برمته تقاعداً مبكراً.

وكانت أولى مهامهما هى العثور على مصرف يونيون بانك أوف سويتزرلاند فى وسط المدينة، حيث سيفتتحان حسابهما. وتبادلا حديثاً مطولاً مع محاسبهما التنفيذى الجديد، والذى تعرف على صوتيهما ودبر لهما استخدام المصرف عبر الهاتف. وأودعا فيه معظم مبلغ الـ١٥ ألف دولار الذى أحضراه معهما من حساب الطوارئ بشركة ميلكو، وفى الحال بدءا فى البحث عن شقة لاستئجارها.

وخلال فترة وجيزة وجدا شقة صغيرة فى الجزء الشمالى من المدينة مقابل ٤٠٠ دولار فى الشهر. واستأجرت، إميلى الشقة غير المفروشة، وذهبت لمتجر قريب

لشراء الحد الأدنى من الضروريات، من مرتبة هوائية، إلى لحاف محشو بالريش، إلى ملاءات، إلى مناشف، إلى وسائد. وكانا فى حاجة أيضاً لشراء بعض الأطباق والمقالى وأدوات المائدة. وما أن نقلا معداتهما المتواضعة الجديدة للشقة، أعادا السيارة المستأجرة واعتمدا على النقل العام الفعال فى زيوريخ فيما هما ينتظران التعليمات قلقين.

كلاهما كان زائد الوزن، وفى منتصف الخمسينيات، وكانا آنذاك بلا تأمين صحى. واتخذا قراراً حاسماً بتخفيف وزنيهما وبدءا فى الخروج فى رحلات سير طويلة كل يوم إلى جبل يوتلبيرغ القريب، واتبعا برنامجاً صارماً من التمارين الصباحية اليومية. وأصبحا أيضاً نباتيين ملتزمين. وسرعان ما بدءا ينحفان ويشعران بتحسن بالغ. وأملا أن يساعدهما مظهرهما المتغير فى تجنب التعرف عليهما بسهولة، بالإضافة لجعلهما فى حالة جسدية جيدة تزيد من فرص هروبهما

على الأقدام إن دعت الضرورة لذلك.

وسُرًا عندما علما أن بزيوريخ شركة أوبرا كلاسيكية من الطراز الأول تقدم عروضاً بدار الأوبرا القديمة كل ليلة تقريباً، وبدءا يستغلان ذلك سريعاً كإلهاء مرغوب فيه عن خوفهما الماثل ورهاب الارتياب. وكانت رحلات السير الطويلة بمحاذاة بحيرة زيوريخ وعبر حرم جامعة زيوريخ مصدر إلهاء مفيد أيضاً. وكان التواصل مع السكان المحليين في متناولهما أيضاً، وكان سميث قد تعلم الألمانية كجزء من المتطلبات اللغوية في رسالة الدكتوراه الخاصة به، وكانا يتعلمان كلمات جديدة كل يوم.

وكل أسبوع كان ريتشارد أو إميلي يزوران فرع مصرف يونيون بانك للاستعلام عن التمويلات التي ينتظرانها كي يبدءا المزيد من ترتيبات الإقامة الدائمة. وإلى جانب مخاوفهما من القبض عليهما من قبل المباحث الفدرالية أو الاستخبارات الأمريكية، فقد كانا قلقين من فكرة أن يفشل الإسرائيليون في تحويل الأموال، وفي تلك الحالة ستتدهور حالتهما المالية سريعاً.

لكن مع كل الخوف والرضوض، فقد أحب ريتشارد وإميلي مدينة زيوريخ سريعاً وشقتهما قليلة الفرش، والتي كانت تتناقض تماماً مع نمط حياتهما في منزلهما الشاطئي الراقي ذي الخمس غرف نوم والذي كانا يتمتعان به لعدة سنوات في هنتنغتون بيتش. والآن، وجدا أنهما قد حُرِما من نوادي اليخوت، وحفلات الكوكتيل. لكنهما أعادا اكتشاف البهجة في أشياء بسيطة وأعادا اكتشاف بعضهما البعض.

وبحلول مطلع أكتوبر أرسلا أول رسالة مشفرة إلى العائلة ليخبراهم بأنهما على قيد الحياة وبحال جيدة. ووصلت أول رسالة مجهولة لصديق جين مانز والدة

إميلي، والتي كانت تعيش منعزلة في لاغونا هيلز، كاليفورنيا. وكانت الرسالة قصيرة وبسيطة تقول "أخبروا أمي أنني في أمان". وعقب ذلك بفترة وجيزة، أعلما أولادهما بمكانهما، وبانضباط رائع، كتمت العائلة السر عن السلطات الأمريكية. ومن آن للآخر كان عميل فدرالي يأتي ليستجوب أفراد العائلة بشأن أي اتصال قد يكون قد حدث معهم، لكنهم لم يفصحوا عن أي شيء، ولم يتم تبادل الخطابات المباشرة خوفاً من أن تكون السلطات تراقب البريد، وبمرور الوقت تم استخدام وسائل اتصال معقدة.

ذهب ابنهما الأصغر إلى زيوريخ حاملاً بعضاً من أغراضهما الشخصية. وأحضر معه أيضاً نسخة من مجلة لوس أنجلوس تايمز التي وصفت المشهد الفوضوي في قاعة المحكمة في اليوم الذي تغيب فيه سميث عن الجلسة: القاضي الغاضب، ومطالب المدعي العام المدوية بقرارات فورية، وتعليق محاميه الذي اعترف بجرم موكله، وحقيقة أن القاضي قضى بإخطار الإنتربول في لندن في الحال. وعزز هذا من حاجتهما لاتخاذ كل الاحتياطات وتجنب ممارسة أي من هواياتهما القديمة والتي قد تُرصد وتكشِف عن مكانهما. في أوروبا، كان استئجار السيارات، والإقامة في الفنادق، والعديد من الأنشطة الأساسية الأخرى تتطلب تقديم بطاقة الهوية، وبالنسبة للأجانب، تتطلب تقديم جواز السفر. ولذلك كانت هويتاهما الجديدتان حاسمتين لمتطلبات الحياة الأساسية.

ثم كان هناك ارتيابهما المرضي اليومي وخوفهما من أن يتم القبض عليهما، وكانت تتخلل ليالي الأرق كوابيس مفزعة بالقبض عليهما وأفكار بخصوص الأقمار الاصطناعية الأمريكية التي تراقب العالم والتي تستطيع قراءة اللوحات المعدنية للسيارات! وكانا يتساءلان ما إن كانت ثمة توجيهات بالبحث عنهما. كان قلقاً سخيفاً إذا فكرنا فيه الآن، لكن الأفكار العقلانية صعبة المنال في مثل تلك الظروف.

ويصف سميث في روايات لاحقة له كيف خرجت إميلى ذات يوم للتسوق وعادت مبكراً عن ميعادها، ودقت جرس باب الشقة. ولم تكن هناك عين سحرية في الباب وخاف سميث أن يفتح الباب أو حتى أن يجيب شفهياً. إذ راودته رؤى فظيعة بالقبض عليه وجره للسجن، ثم ترحيله إلى متعقبيه المتربصين به مجدداً بينما لا تعرف إميلى ما حل به. ونتج عن ذلك إصابته بنوبة هلع ولم يستطع أن يحمل نفسه على فتح الباب. وبعد بضع دقائق محمومة بدت أبدية، بدأت إميلى تسير حول المبنى على أمل أن يراها ريتشارد خارج النافذة ليدرك أنها هى الطارقة.

لكن ريتشارد الرجل الناضج واسع المعرفة، كان يجلس القرفصاء في حوض الاستحمام وراء ستائر الحمام، خائفاً لحد يمنعه من اختلاس النظر عبر النافذة. وفى النهاية، عادت إميلى إلى الباب الأمامي وفعلت ما كانت تأمل أن تتجنبه. فتخلت عن السرية وصاحت بأعلى صوتها بينما هى تدعو ألا يسمعها الجيران ويبلغوا بوجود شيء مريب، وسمع ريتشارد نداءاتها، وبارتياح عظيم قفز من وراء الستائر وأدخلها أخيراً. وكان قلبه يخفق بشدة.

وفى هوليوود، ووسط نزاع فيلم برازيل، بلغت ميلتشان أخبار هروب سميث بنجاح.

وبينما كان كل من ميلتشان وتيرى غيليام يُحسّنان من سمعتيهما فى كاليفورنيا، كان عميل ميلتشان السابق هارباً من العدالة ويعيش فى المنفى، بعيداً عن عائلته، وعن وطنه، وقد فقد سمعته التى كان يتمتع بها يوماً، وبعيداً عن الحياة الوحيدة التى كان قد عرفها. وكما قال أحد أفراد العائلة فى شهادته إن ذلك كان بمثابة موت لفردين من العائلة.

وبحلول أول نوفمبر ١٩٨٥، كان التوتر قد أصاب الزوجين سميث، إذ لم يصل

الإيداع الأول، وبدأ الطقس يصبح بارداً وكئيباً، وكانت مواردهما المالية تتضاءل سريعاً. وأصبحت زياراتهما للمصرف لتفقد الإيداعات التى يتم تحويلها أكثر تكراراً ويأساً. بالإضافة للخوف وجنون الارتياب من أن يُكتشفا ويتم ترحيلهما، سيطرت عليهما فكرة أن الإسرائيليين قد خانوهما.

ثم ذات صباح فى ٢٣ من نوفمبر عام ١٩٨٥، تفاقمت مخاوفهما للأسوأ. إذ اشترى سميث نسخة من جريدة إنترناشونال هيرالد تريبيون وقرأ أخبار القبض على محلل استخباراتى بحرى يدعى جوناثان جاى بولارد وزوجته آن، للاشتباه فيهما بالتجسس بعد محاولة الهرب من فريق مراقبة المباحث الفدرالية إف بى آى. ولم يستطيعا ألا يلاحظا أن موقفهما الشخصى كان مشابهاً بشدة، فهمَا زوجان هربا نجاة بحياتيهما وكان الزوج يواجه حكماً محتملاً بالحبس مدى الحياة. وعرفا أيضاً بعد ذلك، أنهما مثل الزوجين بولارد، كانا عميلين فى منظمة سرية اسمها لاكام!

فى صباح ٢١ من نوفمبر عام ١٩٨٥، حزم جوناثان وآن بولارد أمتعتهما، وأخذا ألبوم صور زفافهما، وقطتهما داستى، وشهادتى ميلادهما، ورخصة الزواج، وأوراق التطعيم. تماماً كما فعل الزوجان سميث منذ بضعة أشهر. كانا يخططان بشكل هستيرى للرحيل عن الولايات المتحدة للأبد، إذ استقلا سيارتهما الموستانغ الخضراء، وكما فعل الزوجان سميث، بدءا يقودانها فى دوائر، ويغيران الحارات، وينعطفان سريعاً ويغيران اتجاههما، فى سعى يائس لتضليل أى متتبعين. ومثل الزوجين سميث، كانا خائفين ومرتابين. فى النهاية، وفى الساعة الـ١٠:٢٠ صباحاً وصلا إلى بوابة السفارة الإسرائيلية رقم ٣٥١٤ فى الطريق الدولى فى واشنطن دى سى. ولم يلاحظا أن المباحث الفدرالية كانت تتبعهما بأكثر من سيارة غير مميزة.

١٦

ومن خلال الاتصالات اللاسلكية المحكمة، عندما كانت ثمة سيارة تتوقف، وكانت سيارة أخرى تحل محلها، ولم ير بولارد سيارة واحدة تتبعه. كان ريتشارد وإميلى سميث قد هربا بنجاح منذ بضعة أشهر فى ظروف مثيلة ولم تكن المباحث الفدرالية لتسمح بحدوث ذلك مجدداً. وفى تلك المرة زرعوا جهاز إشارات إلكترونية فى مصد سيارة بولارد الموستانغ، حيث كانت الإشارة الإلكترونية ستحدد موقع السيارة حتى إذا استطاع التخلص من متتبعيه.

ووفقاً لبولارد، فقد كان قد نسق مع أمن السفارة مسبقاً، وكان من المفترض أن تفتح له البوابة فى تمام الساعة الـ١٠:٢٠، ووصل بولارد فى موعده بالضبط. ودخل مجمع مبانى السفارة بالسيارة مباشرة وأغلقت البوابة من خلفه. "مرحباً بك فى منزلك" تذكر بولارد أن أحد الحراس قال له هذا فشعر بارتياح بالغ. أخيراً، كان فى أمان. لكن فى ظرف دقيقة، كانت السفارة محاطة بالمباحث الفدرالية، ودستة من السيارات، وشاحنات أحدثت جلبة هائلة فى الشارع بالخارج.

وأخذ عملاء المباحث الفدرالية يتوافدون من السيارات ويأخذون مواقعهم حول السفارة حاملين المناظير المتطورة ويتبادلون الإشارات اللاسلكية. وأدرك أفراد الأمن فى السفارة ما يحدث وتجمعوا سريعاً. وإذ هم مرتبكون ولا يعرفون كيف يتصرفون، تحدثوا على الهاتف مع ضابط كبير داخل السفارة.

وعندما عادوا لبولارد، كان موقفهم قد تغير كلياً حيث قال العميل بإصرار:

– عليك أن تغادر السفارة.

* ماذا؟

– لقد سمعتنى، عليك أن تغادر.

* هل تعرف من أكون؟

- عليك أن تخرج.

ولم يصدق بولارد أذنيه وبدأ يصيح بصوت عال إنه يهودى يقف على أرض إسرائيلية ويطالب بحقوقه فى المواطنة وفقاً لقانون العودة. ولم يُجد هذا نفعاً. إذ أعاده العملاء الإسرائيليون بالقوة إلى سيارته، وفتحوا البوابة، وطلبوا منه التراجع بالسيارة والخروج بينما وقف جيش من عملاء المباحث الفدرالية يراقبون ما يحدث فى ذهول من خارج البوابة.

اخرج بالسيارة الآن! هكذا أمروا بولارد بصوت عال. ولم يكن لديه بديل آخر، وبدأت زوجته تبكى بشكل هستيرى فى المقعد المجاور له.

وبتردد، خرج بولارد من البوابة، وفى الحال ألقى العملاء الفدراليون القبض عليه هو وزوجته المنتحبة ووضعوا الأصفاد حول أيديهما.

كان بولارد الأخير من ٨ عملاء سيئى السمعة تم كشفهم فى عام ١٩٨٥، والذى عرف إعلامياً باسم عام الجواسيس. والثمانية هم جون أنتونى ووكر وشارون دبليو سكارانج و لارى و تاى تشين و روناالد ويليام بيلتون و راندى مايلز جيفريز وجوناثان جاى بولارد وريتشارد كيلى سميث.

كانت ضربة صادمة، لكن التخلى عن بولارد للعملاء الفدراليين الذين كانوا يلاحقونه فى وضح النهار هو ما أقلق الزوجين سميث عندما قرآ عنه. وإن كان قد تم التخلى عن بولارد بمثل تلك الطريقة أمام العالم أجمع، إذن فما يمنع الإسرائيليين من التخلى عنهما أيضاً؟

ولحسن حظ الزوجين سميث أنهم أساءا تقدير الموقف، إذ لم يكن فى وسع

إسرائيل فى تلك اللحظة أن تتحمل فضيحة أخرى فى الولايات المتحدة. وهكذا كان لابد أن يظل ريتشارد وإميلى سميث مختبئين ومحميين جيداً لخدمة المصالح الإسرائيلية الوطنية. وإن كانت ثمة معضلات داخلية فى تل أبيب قبل فضيحة بولارد بشأن كيفية تولى قضيتهما، فقد حسمت تلك المعضلات سريعاً من خلال تلك الظروف الجديدة.

وخلال أيام من القبض على بولارد، تم تحويل إيداع ضخم لحساب عائلة "شيلر". غمرهما شعور بالفرح والارتياح: فلم يكونا وحدهما، حيث نجح الإسرائيليون أيضاً. ولم يتوقف الأمر عند المال فحسب، فقد تلقيا رسالة مفادها أنه يتم إعداد وضع أكثر استقراراً لهما.

وفى أعقاب القبض على جوناثان بولارد، والتحقيق معه عقب ذلك، أدركت الولايات المتحدة لأول مرة وجود منظمة اسمها لاكام. واتخذت إسرائيل موقفاً رسمياً مفاده أن المنظمة تدير عملية مارقة. وفى المفاوضات مع الولايات المتحدة، وافقت إسرائيل على حل منظمة لاكام كلياً كجزء من اتفاق أوسع يعيد تأكيد التفاهم القائم بين البلدين بالامتناع عن جمع الاستخبارات بشكل سرى من أحدهما الآخر. أُجبِر رافى إيتان خليفة بلومبيرغ، على الاستقالة، وحُظر عليه السفر إلى الولايات المتحدة حتى يومنا هذا. لكن لاكام مازالت مستمرة فى العمل خارج الولايات المتحدة ببنية واسم مختلفين.

وبرغم سخط الولايات المتحدة من تجسس إسرائيل عليها، فقد استمرت هى فى التجسس على إسرائيل. وعادة، عندما يتم اكتشاف وقائع التجسس الأمريكى على إسرائيل يتم التعاطى معها بهدوء بين الحليفتين. لكن كما تبين وثائق ويكيليكس فى عام ٢٠١٠ بوضوح، فالتجسس الأمريكى على إسرائيل مكثف،

ويبحث عن تفاصيل بالغة السرية عن أي شيء بخصوص القيادة الإسرائيلية، والإدارة، وأنظمة الاتصالات والتكنولوجيا التي تستخدمها الحكومة والأفراد العسكريون، بما فيها شبكات الهاتف المحمول، وهواتف الأقمار الاصطناعية، ومحطات الأقمار الاصطناعية المزدوجة، والإشارات المزدوجة والمتحركة، وأجهزة الاستدعاء، وبطاقات الاتصال المدفوعة مسبقاً، وأنظمة الحماية، والتشفير، والاتصال الدولي، واستخدامات تبادل البيانات الإلكترونية، وشبكات الكابلات والألياف.

وإذ هما غافلان عن الجانب السياسي للموقف، ومؤمّنان مالياً، ولديهما هويتان جديدتان، ولديهما حس جديد بالثقة، بدأ ريتشارد وإميلي الاستعداد لرحلة طويلة بالسيارة إلى وجهتهما الأخيرة، مكان تقاعدهما ومخبئهما الأخير، والذي سيقضيان فيه بقية حياتيهما. وكان موسم الشتاء يقترب ببرده القارس ولم يكونا ينتويان تحمل الشتاء السويسري، إذ كانا قد اعتادا على مر العقود على طقس كاليفورنيا المعتدل وذكرا أنهما يفضلان موقعاً ذا طقس مشابه إن كان الاختباء في المنفى هو خيارهما الوحيد.

وفي نهاية نوفمبر عام ١٩٨٥، وفيما تصاعد النزاع حول فيلم برازيل حزم الدكتور جون وإميلي شيلر ممتلكاتهما القليلة وانطلقا في الصباح الباكر في سيارة مستأجرة من زيوريخ إلى وجهتهما الجديدة. وبعد يوم كامل من قيادة السيارة بلغا برشلونة، إسبانيا، قبل أن يستأنفا رحلتهما في اليوم التالي بمحاذاة الساحل إلى مالاقا في مدينة كوستا ديل سول، مسقط رأس بابلو بيكاسو وأنتونيو بانديراس. وكانت سمعة مالاقا هي أنها تعد ملاذاً للهاربين، ومكاناً للتقاعد أيضاً. حيث كانت القوانين متراخية وكانوا يتغاضون غالباً عن وضع الهجرة لأي شخص لا يتسبب في المتاعب تحت شمس المتوسط.

سلما سيارتهما "أفيس" المستأجرة ويعربون قيمته ألف دولار، فيما كانت تنتظرهما سيارة فيات سيت باندا صغيرة للاستئجار من تاجر سيارات مستقل، وبدون ترخيص سيارة يتطلب تسجيل اسميهما، وأصبحت تلك السيارة هي سيارتهما الدائمة في المنفى.

ثم قادا السيارة إلى منزلهما الجديد الذي تم تدبيره لهما في ٦ شارع ماركوس دي أبريغون، الشقة سي ٢، وسُرًا لما وجداه. إذ كانت الشقة تقع في منطقة راقية مشجرة أقصى غرب ميناء مالاقا، على بعد نصف مربع سكني فحسب من شاطئ متوسطي جميل ومتنزه مصفوف بالمطاعم والمتاجر ممتد بطول الشاطئ، ومثالي لرحلات سيرهما اليومية.

عندما سألتهما مالكة المنزل، التي كانت تنتظرهما، عن مدة إقامتهما المنتظرة في الشقة، سُرت السيدة العجوز عندما سمعت كلمة للأبد. ثم فتحا حساباً مصرفياً في الفرع القريب لمصرف بانكو بيلباو باسم "شيلر" وتمكنا من خلاله تحويل الأموال من وإلى حسابهما المصرفي في مصرف يونيون بانك في سويسرا.

وسرعان ما تأقلم الزوجان شيلر –سميث سابقاً– مع محيطهما الجديد المريح، وبتحول الأيام لأسابيع، أصبحت الأسابيع شهوراً، وبدأ الخوف الرهيب الذي كان متملكاً منهما يتبدد تدريجياً. وبدأ الشعور بالأمن والاستقرار يعود إليهما. وأدركا أنهما لا يتعقبهما أحد وأن أقمار التجسس في الفضاء لا يعاد توجيهها من مسارها المعتاد فوق الاتحاد السوفييتي. كانا هاربيْن مُهمين، لكن ليسا بهذا القدر من الأهمية. في الواقع، كان من الملائم للولايات المتحدة أن تغض الطرف عنهما، طالما التزما السرية، وتجنّبا تخصيص موارد حقيقية لتعقبهما.

ووصف سميث لاحقاً كيف تطورت حياتهما في مالاقا إلى عالم أحلام

متوسطى مبهج، إذ فرشا الشقة بكل شىء كانا يحتاجانه، ومنها مائدة لـ١٢ فرداً، وسجاجيد رائعة، ولوحات زيتية كبيرة فى كل مكان. كانت هناك أشجار كاملة النمو فى المنطقة توفر كثيراً من الظل ونسيماً متوسطياً رقيقاً يلطف الجو من حولهما. ولمزيد من الصحبة اشتريا قطتين سياميتين وأسمياهما مالاقا وموبيتاه.

وفى النهاية، بدءا يكونان صداقات جديدة، واكتشفا أن مالاقا بها مجتمع كبير يتحدث الإنجليزية ونادٍ يتقابل أعضاؤه كل ليلة اثنين فى مطعم شاطئى على بعد حوالى ميل من شقتهما. وبعد حضورهما اجتماعه الأول واستمتاعهما بالأشخاص الذين تعرفا عليهم، انضما إلى النادى وبمرور الوقت أصبحا عضوين نشطين فيه.

أصبحت إميلى سكرتيرة النادى ومسئولة عن إصدار النشرة الإخبارية الشهرية وأصبح جون شيلر نائب مدير النادى. وكان كل من جون وإميلى مُلمين نسبياً بالإسبانية لكن خلال أشهر أصبحا يتحدثانها بطلاقة. وفى النهاية أصبحا نشطين اجتماعياً وذائعى الصيت فى مجتمع المنفى الكبير فى المدينة.

اكتشفا المشهد الموسيقى فى مالاقا، وكانت الجامعة الموسيقية تقدم حفلات موسيقية فردية كل عام للطلاب الخريجين، وكانت أوركسترا الجامعة تقدم حفلات موسيقية مجانية كل شهر. وكان لمدينة مالاقا أوركسترا مكوَّن من ١٠٠ عضو، يتألف من موسيقيين موهوبين حقاً من كل أنحاء أوروبا سعداء للغاية بالعيش فى ظلال شمس المتوسطى مقابل أجر زهيد وكانت تذاكر الحفلات رخيصة للغاية، أقل من ١٠٠ دولار للتذاكر التى تستمر طوال الموسم.

وبمرور الوقت، كادا ينسيان أنهما هاربان مشهوران، ومطلوبان فى قضية شائنة ومعروفة دولياً. واشتركا حتى فى التعداد السكانى لمدينة مالاقا وكانا يصوتان فى انتخابات البلدية.

ووفقاً للزوجين سميث، فقد كانت دبورا بن إسحاق مساعدة ميلتشان على اتصال دائم بهما عبر الهاتف وآلة الفاكس التي اشتروها لمكتبهما المنزلي. وفي النهاية، وبحلول عهد الإنترنت، اشترى الزوجان سميث حاسوباً وبدءا يتواصلان عبر البريد الإلكتروني من عنوان jonsch@vnet.co.es.

وظلت علاقتهما بدبورا قوية ودافئة وكانوا يطلعون بعضهم على المستجدات الخاصة بأنشطتهم.

وتابع الزوجان سميث أخبار ثروة ميلتشان وشهرته المتزايدة من منفاهما المتواضع نسبياً، وبدءا يتساءلان أيضاً لِم لا يشاركهما ميلتشان بجزء ولو ضئيلاً من ثروته. فبعد كل شيء، ما الذي يعنيه مليون دولار أو مليونان بالنسبة لشخص سرعان ما أصبحت ثروته تقدر بالمليارات؟!

وكان التمويل الذي يتلقاه الزوجان سميث من إسرائيل كافياً لكل احتياجاتهما الأساسية، لكن ليس أكثر من ذلك. وكان ذلك هو السبيل للتأكد من التزام الهاربين بالسرية وتجنبهما إثارة أي نوع من الشكوك التي قد تصاحب الحياة المرفهة. لكن الزوجين سميث كانا معتادين على مستوى حياتي أعلى من ذلك، وسعيا بنشاط لتحقيقه. وسيكون هذا سبب سقوطهما.

١٧

امــرأة جميلــة

لا شك فى ذلك، فلولا وجود أرنون، لصنعت أفلام أقل.

المخرج سيدنى بولاك لجريدة لوس أنجلوس تايمز فى ٢٨ فبراير ١٩٩٢

بينما كان ريتشارد كيلى سميث مختبئاً فى أمان فى إسبانيا، وبعيداً عن منال المدّعين الفدراليين، كان ميلتشان حراً يسعى وراء أحلامه الهوليوودية الضخمة.

وكانت مشاريعه فى إيران قد توقفت فجأة بعد الثورة الإسلامية، وتدهورت حرب المعلومات جنوب الإفريقية لتصبح فضيحة دولية، وتم حل منظمة لاكام، على الأقل بشكل رسمي، بل إن تايوان كانت قد بدأت تضمُر تدريجياً فأقامت إسرائيل علاقة عمل مع الصين، والتى أدت لعلاقات دبلوماسية كاملة بين البلدين عام ١٩٩٢ . كان كل ما تبقى له هو حسابه المصرفى المتضخم، وشركته للأسمدة الكيماوية، وصفقات الدفاع العسكرى المعتادة بين الحكومة الإسرائيلية وقليل من نخبة متعهدى الدفاع العسكرى الأمريكيين. وكانت تلك مشاريع مربحة بلا شك، لكن بالكاد تكفى لإثارة حماس شخص مثل أرنون.

كانت أوليريكا قد رحلت، وحلّت محلها امرأة جميلة جديدة، أسى ثاستروم، فى القصر فى مونفورت لامورى. والشىء العجيب أن "أسى" كانت من مدينة غوتنبيرغ بالسويد، وكانت من الحى نفسه الذى كانت تقطنه رفيقتا أرنون السابقتان أولا

وأولريكا، وصاحبت أسى أرنون فى العديد من المناسبات العملية والاجتماعية. وأكدت قائلة لى: إنه شخص رائع، وليس لدى تجاهه إلا أبلغ مشاعر التقدير.

كان الوقت قد حان لتفحص الذات الجاد، ووفقاً لميلتشان الذى قال: "كان من الممكن أن أقضى بقية حياتى أبحر بيختي، لكن تلك ليست شخصيتى". ولذا بدأ هجمته على هوليوود.

وبالرغم من رغبته العميقة فى أن يصبح جزءاً من نخبة هوليوود المسيطرة، كان لديه طريق طويل يقطعه. وبالرغم من أنه أحب العمل مع كبار المخرجين المصابين بجنون العظمة، فقد كان سعيداً للغاية بسمعته كمنتج للأفلام الفنية. وقد اكتسب احتراماً كبيراً من المجتمع الفنى، لكنه شعر أن الوقت قد حان لتنحية أنواقه الشخصية وانجذابه للمشاريع النخبوية والمعقدة، والتركيز على النجاح التجارى، ونوعية الأفلام

التى تتوق لها الاستوديوهات الكبرى.

يأتى الناس طوال الوقت إلى هوليوود ليعيدوا اختراع أنفسهم، إنها أرض الفرص التى تحتضن لاعبيها الجدد وتنسى ماضيهم سريعاً. ولم تضر خلفية ميلتشان الغامضة بفرصه، وعمل خلافه مع سيدنى شاينبيرغ مدير شركة يونيفرسال على تعزيز صورته. فهوليوود تحب الفتى "الشقى" سيئ السمعة.

ساعدت شائعات صفقات الأسلحة، والإشارة لاسمه فى قضية تهريب نووية، على توسيع هالة الغموض والمؤامرات المحيطة به. وبمعايير هوليوود، لا يهم كثيراً نوع العلانية الذى تحظى به، لكن ما يهم هو أن ينطقوا اسمك بشكل صحيح! وكان من المؤكد أن يتحول تاجر السلاح صانع الأفلام لمصدر جذب فى حفلات الكوكتيل حتى وإن لم يكن ميلتشان تاجر سلاح بالمعنى التقليدى. لكن فى هوليوود لم يكن الناس يعرفون الفرق، وللشائعات أسلوبها فى فرض نفسها.

عندما وصل ميلتشان للمشهد كان شخصية غير معتادة منذ البداية، وكما شرح لنا:

"سرعان ما اعتبرونى كائناً مختلفاً. ولم أتأقلم بسهولة، وعملت خارج الممارسات العادية لتلك الحقبة. كان معظم الإسرائيليين الذين قابلهم أناس هوليوود أشخاصاً مثل مناحم غولان ويورام غلوباس، فى أفضل الأحوال، أو الأغلب، سائقى التاكسى، والبائعين المتجولين. وفجأة قابلوا شخصاً لا يفهم الجوانب المالية للمجال فحسب، بل ويريد المشاركة بالجانب الفنى. وكان من الصعب عليهم استيعاب ذلك. فى هوليوود، هناك مساران متوازيان، الجانب العملى، والجانب الفنى، ولن يلتقى المساران أبداً. كان الناس متشككين، وكان لسان حالهم يقول: ماذا تفهم عن الفن؟ التزم بالجانب المالى وإن أردت أن تكون فناناً، فلتنظم حفلاً لجمع الأموال لصالح الفن بدلاً من ممارسته

فـعلياً. وكـانوا يحطون من شـأن الخلط بين المال والفن. وأدى هذا للشك فى أفـلامى. وكانوا يسألون لِم دخل المجال؟ الشهرة؟ النسـاء؟ المال؟ وظلوا يبحثون عن أجندة خفية لم تكن موجودة. أردت أنا فقط الجمع بين المجالين".

وكـان المنتج المتواضع ظاهرياً، غيـر المدعى، الثرى، يحضـر اجتـمـاعـات هامـة بالسروال الجينز والأقمصة القطنية الخفيفة، حاملاً حقيبة عرَّفها بأنها مكتبه. وشق طريقـه عبـر النظام بسحـره وعرف كيـف يُبهر الأشـخـاص المهمين بمزيج فعـال من الحمـاس والخجل، والمظهر المتواضع، واستخدم حتى وضعه كأجنبى لاستغلال غرائز الآخرين الطبيعية لمساعدته.

وأثارت طبـيعـتـه غيـر المحبـة للظهـور الجدل، إذ لم يكن يـحضـر العـروض الأولى للأفلام، ولا حتـى أفلامـه. وأدرك أن هوليـوود تلقى بـالمال لأولئك الذين يملكون المال، لذا كـان يتـبـاهى بما يملكه من أمـوال من آن للآخـر، من أجل غرض اسـتـراتيـجى أكبـر. وبشكل مـجازى، كانت الحيلة هى استغلال المليون دولار فى المصرف للتسويق لصـورة شـخص يملك ٣٠ مليون دولار! وكان ذلك منهجه منذ اليوم الأول. فسر آلان هيرشفيلد الرئيس السابق لشركة توينتييث سنيشرى فوكس، السبب الرئيسى لنجاح ميلتشان فى هوليوود بثلاثة عوامل: لديه أموال طائلة وهو مستعد للمخاطرة بها. كلمته هى ميثاقه. وهو من أذكى الأشخاص الذين قابلتهم قط

كـانت قـدرته على التـركيـز الشديد على التـفـاصـيل وذاكـرته الأسطورية عـاملين مساعدين أيضاً.

يفسر آخرون مثل المخرج سيرجيو ليون، السر فى نجاح ميلتشان بشكل أبسط:

أمـا ميلتـشـان فلديه تفـسـيره الخـاص: سـحـره الشـخـصى والمتعة التى يجـدها الإنسان إلى جواره.

"يرى الناس فيّ سمات، لا أراها في نفسي. لست مهذباً،ولا متواضعاً، ولا ذكياً كما يظنني الآخرون لسبب غريب لا أدركه. معظم نجاحي بُني على أخطاء. وبالنظر للوراء، ليس لدى فكرة كيف نجحت. أنا لا أخاف وأحب المخاطرة، ربما هذا هو السر. لم تكن لدى خطة قط لحياتي، لا خطة في عملي ولا خطة شخصية. أنا فطرى جداً، وأُلقي بنفسي في المواقف المورّطة ثم أسأل نفسي كيف بحق السماء سأخرج نفسي منها؟ أو كيف سأمضي قدماً؟، أُحِبُ شيئاً ثم أستثمر فيه كل طاقتي لكي ينجح".

هناك العديد من التعليقات الملائمة تعكس في مجملها تركيبة ميلتشان، أحدها قاله وودى ألان، في فيلم "بلاى إت أجين سام" أي: ٨٠٪ من الحياة هي مجرد تواجد.

وكان ميلتشان ذا تواجد.

وبعد بضعة أفلام متوسطة الأداء، حقق ميلتشان نجاحاً متواضعاً بفيلم "ذا وور أوف ذا روزيس"، أشهر فيلم عن الطلاق، من بطولة مايكل دوغلاس وكاتلين تيرنر وداني ديفيتو. وكان شمعون بيريز هو من أوصى برواية ورين أدلر لميلتشان،الذى أخذ بنصيحته. لكن في العام التالي أي ١٩٩٠، حدث أكبر نجاح لميلتشان بفيلم حقق أرباحاً هائلة، أي "امرأة جميلة"،ولا يزال الفيلم مرتبطاً باسمه حتى يومنا هذا.

"امرأة جميلة" فيلم كوميدي رومانسي يتمحور حول عاهرة سيئة الحظ وهي فيفيان وورد، يستأجرها لمدة أسبوع رجل الأعمال وقاهر الشركات إدوارد لويس، لتكون رفيقته في عدة فعاليات بزنس في المجتمع الراقي في لوس أنجلوس. وتركز القصة على تطور علاقتهما، والتي تجسد نسخة عصرية من قصة سندريلا.

ظل نص سيناريو الفيلم الذى كتبه جيه إف لاوتون، يتجول في أنحاء هوليوود لأعوام تحت اسم ثري ثاوزاند، وكان ذلك هو المبلغ الذي يدفعه لويس لوورد مقابل خدماتها كمرافقة. وكان السيناريو ملكاً لشركة إنتاج اسمها فيسترون أعلنت إفلاسها.

وكان ميلتشان قد أرسل وكيلاً ليفتش فى مكتبة الشركة ليرى ما إن كان هناك أى نص متميز فى كومة نصوص الشركة المعروضة للبيع. واتصل الوكيل بميلتشان من مكتبة شركة فيسترون ليخطره أنه وجد قصة صغيرة شائقة عن عاهرة ورجل أعمال. وبشكل فطرى، كلف ميلتشان وكيله ألا يدفع فيها أكثر من ٣ آلاف دولار، نفس المبلغ الذى عُرِض على العاهرة. وفى النهاية اشترى حقوق النص كاملة بمبلغ ٢٥٠٠ دولار فقط.

قرأ ميلتشان النص ولم تعجبه نهايته الحزينة، إذ يعيد إدوارد فيفيان بالسيارة إلى هوليوود بوليفارد، ويعطيها معطفاً من فراء المنك،ويتركها فى ذات البقعة التى اصطحبها منها قبل أسبوع. فى اليوم التالى، تستقل فيفيان حافلة إلى ملاهى ديزنى لاند لتحقيق حلم عمرها البائس. وكانت تلك هى النهاية.

تصور ميلتشان نهاية أسعد بكثير حيث يعود إدوارد فى ذات اليوم بعد أن يوصلها سائق الفندق، على حصان أبيض -فى الواقع سيارة ليموزين بيضاء- ليطلب يدها، إن لم يكن للزواج، فعلى الأقل لعلاقة حصرية. وعندما وصف ميلتشان رؤيته للنهاية، فى غرفة المؤتمرات الخاصة به، تحير طاقم عمله. وقال كبير موظفيه ستيف روثر بتهكم "يبدو كفيلم من أفلام ديزنى".

وكان رد فعل ميلتشان بالغ الحماس حيث قال: أوتعلم؟ تلك فكرة رائعة، اتصل لى بجيفرى كاتزينبرغ. وكان كاتزينبرغ يرأس استوديوهات ديزنى آنذاك. وفى غضون دقائق معدودة كان وميلتشان منهمكين فى حديث عميق.

- بين يدى الآن فيلم رائع من نوعية أفلام ديزنى، ونهايته سعيدة رائعة.

- عمّ يدور؟ سأل كاتزينبرغ.

- قال ميلتشان: سأعطيك النسخة الأصلية، إنه عن عاهرة ورجل أعمال.

- اعترضه كاتزينبرغ: لن ننتج فيلماً مثل هذا ولو بعد مليون عام.

لكن بطريقة ما أقنعه ميلتشان بقراءة النص على الأقل. وقرر في الحال أنه إن قبلته شركة ديزني فسينتجه، وإن لم يقبلوه، فسيرفض النص كلياً.

وبعد عدة أيام، تلقى ميلتشان مكالمة من كاتزينبرغ. وأخبر ميلتشان أن لديه مخرجاً اسمه غاري مارشال، كان قد أخرج لتوه فيلم "بيتشز" لشركة ديزني، ولديه التزام بإخرج فيلم آخر. ولم يكن لدى شركة ديزني عمل يناسبه، واقترح كاتزينبرغ أن مارشال سيكون المرشح المثالي لإخراج الفيلم.

وعبّر كاتزينبرغ عن موافقته أيضاً على فكرة النهاية السعيدة التي اقترحها ميلتشان، وقدّم قائمة طويلة من التغييرات الإضافية المقترحة لجعل الفيلم أكثر ملاءمة لاسم شركة ديزني، ومن بينها أن تكون فيفيان جديدة على عالم البغاء، حيث لم يمر عليها سوى أسبوع في تلك الممارسة لتتمكن من تسديد مصاريف تعليمها الجامعي. في النص الأصلي، كانت وورد مدمنة للكوكايين. وكانت تلك فكرة غير مقبولة من جانب ديزني وسرعان ما تم رفضها. وبالإضافة إلى ذلك، أصرت شركة ديزني أن تكون فتاة نظيفة، وتم إضافة العديد من المشاهد التي تصور نظافتها الشخصية، منها حمامات الفقاعات وتنظيف الأسنان بالخيط.

اقترح كاتزينبرغ شون كونري وميشيل فايفر لأدوار البطولة، وأحب ميلتشان ذلك المزيج.

ظهرت أول عقبة عندما تلقى خطاباً من شون كونري يرفض فيه الدور لأنه شعر أنه عجوز عليه. وعندما أخطر ميلتشان كاتزينبرغ، اقترح أل باتشينو بديلاً له.

وقبل ٣ أسابيع من بدء التصوير، وقعت الكارثة. أولاً، تلقى مكالمة من أل باتشينو

يخبره فيها:

"لا أعرف كيف ألعب دور رجل الأعمال، لم أكن رجل أعمال يوماً. حقاً يا أرنون، هذا الدور ليس لى، لا أستطيع أداءه".

وعندما أدركت ميشيل فايفر أن كلاً من كونرى وباتشينو انسحبا من الدور، أخبرت ميلتشان أنها ستنسحب من الدور أيضاً. وأجاب ميلتشان على هذا بكلمة يديشية واحدة فاركاكتا وتعنى تباً!

وعلى مر عدة أيام، أقيمت تجارب أداء طارئة. وكان من بين الأسماء المقترحة كيم باسينغر، شارون ستون، مادونا، بريجيت فوندا لكنهن فشلن فى تفهم جوهر الدور، على حين بدت "اينونا رايدر"، و"درو باريمو" أصغر من أن يؤديا الدور، فيما اعتبرت داريل هانا ومولى رينغوالد، الدور مهيناً للنساء وانسحبتا.

وفى ذلك المساء عاد ميلتشان لمنزله مكتئباً وقرر مشاهدة فيلم ليلهيه عن كل ذلك. وكان الفيلم الذى اختاره هو الفيلم الكوميدى الرومانسى "ميستيك بيتزا" من إنتاج عام ١٩٨٨.

أثناء الفيلم، لاحظ ممثلة شابة فى دور مساعد، وشعر بشكل غريزى أن لديها القبول والمظهر اللذين أرادهما لشخصية فيفيان وورد. لم يكن يعرفها إذ لم تكن مشهورة آنذاك. وانتظر ظهور قائمة الأسماء الأخيرة ليعرف اسمها.

فى الصباح التالى، اتصل بوكيلته وطلب منها تحديد تجربة أداء طارئة. واجتازت الممثلة الاختبار بنجاح ساحق، وتميزت بقدرتها على البكاء وإظهار المشاعر العميقة بكل سهولة. وكان اسمها جوليا روبرتس.

وعندما علم كاتزينبرغ بقرار ميلتشان ومارشال، أعرب عن عدم ارتياحه:

– لكن هل تستطيع روبرتس أداء دور العاهرة يا أرنون؟

– جِفري! ما خطبك؟ أى امرأة تستطيع أداء دورالعاهرة، إن كانت تستطيع البكاء، وأن تبدى مشاعرها بقوة، لست قلقاً بشأن قدرتها على لعب ذلك الدور.

ووافق كاتزينبرغ بعد تردد.

والآن كان ميلتشان يحتاج لمثل يؤدى دور رجل الأعمال. تم وضع جون ترافولتا، ألبرت بروكس، سيلفستر ستالون، وآخرين فى الاعتبار، وكلهم رفضوا.

ثم من حيث لا يحتسب، تلقى ميلتشان مكالمة من ريتشارد جير، والذى كان قد منى بفشل كثير من الأدوار التى أداها آنذاك فى أفلام مثل "كينغ ديفيد" و"باور".

تم تخفيض ميزانية الفيلم لتصبح مجرد ١٧ مليون دولار، شاملة إجمالى التوقعات. ووجه ميلتشان كبير موظفيه ستيف روثر بألا يضيع أى وقت فى الذهاب لمواقع التصوير قائلاً: هذا الفيلم لن يحقق أى أرباح تُذكر. لنركز على الفرص الأكثر ربحية.

عندما كان الفيلم فى المراحل الأولى للمونتاج، كان إيهود ألومرت عمدة القدس آنذاك يزور لوس أنجلوس. ودعاه ميلتشان لحضور عرض فيلم "ثرى ثاوزاند" فى استوديوهات وورنر براذرس. جلس ميلتشان وأولمرت ومعهما مايكل آيزنر رئيس شركة ديزنى، وجِفرى كاتزينبرغ والمخرج غارى مارشال فى دار عرض صغيرة.

أثناء عرض الفيلم، تمت تجربة العديد من الأغنيات لتكون أغنية الفيلم. كانت إحداها أغنية "بريتى ومان" للمغنى روى أوربسون. التفت أولمرت تجاه ميلتشان واقترح بحماسة أن يكون اسم الفيلم "بريتى وومان". وأجاب ميلتشان ماذا تعرف بحق السماء؟ كيف لك أن تسمى فيلماً "امرأة جميلة" أو "Pretty Woman"؟!

ووافق الجميع ميلتشان، لكن أولمرت مضى بإصرار يقول: أسدِ لى صنيعاً وجربه.

مضى ميلتشان يتنابذ مع ضيفه قالاً "ماذا تعرف عن عناوين الأفلام؟".

وعلى أية حال، تم وضع اقتراح أولمرت فى الاعتبار مع قائمة طويلة من الأسماء المحتملة للفيلم، ليتم اختباره من قبل جماعة الفحص. وعندما عادت النتائج، فوجئ ميلتشان والجميع أن اسم "بريتى وومان" حصل على أعلى الأصوات. واشترى ميلتشان حقوق الأغنية، وتم تغيير اسم "ثرى ثاوزاند" إلى "بريتى وومان أو امرأة جميلة".

وعُرِض الفيلم لأول مرة فى الولايات المتحدة محققاً أرباحاً متواضعة قيمتها ١٢ مليون دولار فى شباك التذاكر فى أول عطلة أسبوعية له. لكن شهرته تحققت مذاك واستمرت فى التزايد فى الأسابيع التالية. وبانتهاء عرضه فى دور العرض، كانت أرباحه فى شباك التذاكر قد بلغت ١٨٠ مليون دولار داخلياً و٣٠٠ مليون دولار دولياً. وهذا ليس سيئاً بالنسبة لفيلم كانت تكلفة إنتاجه ١٧ مليون دولار فحسب، فى وقت كان متوسط ثمن تذكرة السينما ٤,٢٢ دولار.

ولا يزال ميلتشان يجنى ثمن حقوق الملكية الفنية لفيلم "بريتى وومان" حتى يومنا هذا. فيما ظل إيهود أولمرت راضٍ بمساهمته الفنية المتواضعة فى تسمية الفيلم.، بينما صرح ياسر عرفات رئيس دولة فلسطين ذات مرة أنه كان فيلمه المفضل، واحتفظ بنسخة منه فى غرفة نومه، وشاهده ٢٠ مرة، وفقاً لميلتشان.

لكن الشخص الذى استفاد أقل بكثير مما ينبغى له كان كاتب السيناريو جيه إف لاوتون، والذى كتب سيناريو فيلم بريتى وومان وهو فى العشرينيات من عمره. لاوتون، ابن الروائى هارى لاوتون تغلب على مرض خلل القراءة الحاد وقصور الانتباه وفرط الحركة ليصبح كاتباً متميزاً. وكان ميلتشان حساساً تجاه الغبن الذى وقع عليه ووعد

بشراء سيناريو لاوتون التالى مقابل مليون دولار.

ومن منفاهما البعيد، تابع ريتشارد وإميلى سميث مسيرة ميلتشان العملية فى هوليوود وكانا يترددان باستمرار على دار العرض المحلية فى مالاقا وشاهدا أفلاماً مثل "مان أون فاير" و"وور أوف ذا روزيس" و"بريتى وومان".

وبقدر ما بدا وضعهما مريحاً، لم يستطيعا أن يمنعا نفسيهما من الشعور بمزيج من الذهول وقدر من الاستياء إذ يقرآن اسم ميلتشان على رأس قائمة القائمين على الأفلام ليراه العالم أجمع، بينما هما مجبران على الاختباء... بالمعنى الحرفى.

وفى عام ١٩٩٤، وعلى بعد رحلة جوية قصيرة من ريتشارد وإميلى سميث، فوق شبه الجزيرة الأيبيرية، وفى فندق دى كارلتون فى باريس، نظمت أسى ثاستروم حبيبة أرنون السويدية حفلة مفاجئة مسرفة للاحتفال بعيد ميلاده الخمسين.

وسافر من كل أنحاء العالم ٦٠ من نجوم هوليوود، والأصدقاء والعائلة لحضور المناسبة الهامة، وكان من بين الحضور روبرت دى نيرو، وأوليفر ستون، ورومان بولانسكى، كريستوفر لامبرت، وترى سيميل من شركة وورنر برازرس، وروب فريدمان من شركة باراماونت، بين آخرين. وكانت والدة أرنون وأخته وأبناؤه كلهم حاضرين.

وتدفقت الشمبانيا مترعة، وكما يتذكر ميلتشان كان الجمع أشبه بالأمم المتحدة لمجال السينما.

تم توثيق أهم أحداث تلك الأمسية فى فيلم مدته ٢٠ دقيقة أنتجته ثاستروم كإشادة بحبيبها، وأسمته ناتشورال بورن سيديوسر Natural Born Seducer أو المُغوى بالسليقة.

١٨

الفخ

لابد وأن تكتبوا أشياء سلبية عنى، فقد كنت غبياً.

ريتشارد كيلى سميث للمؤلفين فى ٢٠ أغسطس ٢٠٠٩

شعر الزوجان سميث بارتياح كاف جعلهم يجوبون أوروبا، ويقابلون بشكل متكرر أفراد عائلتهم فى مواقع حدّدوها مسبقاً. وفى إحدى المناسبات سافرا إلى مدينة يورو ديزنى الجديدة على مشارف باريس لقضاء الوقت مع أحفادهما. وفى مناسبة أخرى سافرا إلى جنوب فرنسا ليشهدا ابنهما الأكبر راندى وهو يشارك فى سباق القوارب الشراعية.

كان راندى سميث بحاراً مشهوراً، يظهر على أغلفة العديد من أهم مجلات الإبحار فى العالم، ولعب دور القبطان أمام كيفين كوستنر فى فيلم "ووترووررلد" أو عالم الماء، وبيرس بروسنان فى فيلم ذا "توماس كراون أفير" أو "علاقة توماس كراون الغرامية". وقاد القارب الشراعى الضخم إلى خارج مانهاتن بينما رينيه روسو تنظر إليه فى إجلال. وفاز أيضاً بميداليتين أوليمبيتين بكأس أمريكا عام ١٩٨٨ .

بعد ٩ أعوام من الإقامة فى إسبانيا، بلغ الزوجان سميث سن الخامسة والستين. وفى مخاطرة متهورة محيرة، قرر سميث التقدم لطلب فوائد الضمان الاجتماعى الأمريكى، مراهناً على عدم تمكن أى موظف متدنى المستوى فى نظام الضمان الاجتماعى الأمريكى من التعرف عليه. واتصل بالسفارة الأمريكية فى مدريد، وأعطاهم اسمه الحقيقى ورقم الضمان الاجتماعى الخاص به، وقدم طلباً بإرسال دفعاته الشهرية إلى حسابهما فى مصرف بانكو بيلباو فى مالاقا.

ومن الواضح أن رهان سميث كان فى محله، حيث لم يستطع موظفو المستوى الأدنى فى الحكومة الأمريكية التعرف على المتهم الهارب، وبدأوا يرسلون مبلغ ١٦٠٠ دولار شهرياً إلى ذلك الحساب. كانت مخاطرة وقحة طائشة، وبدا أنها آتت ثمارها. وبعد عام، أكملت إميلى عامها الـ٦٥ وكان يحق لها مبلغ إعانة الزوجة وقيمته ٤٠٠ دولار شهرياً. وقُبِل طلبها لهذا المبلغ أيضاً. ووفرت إيداعات الضمان الاجتماعى المنتظمة دخلاً شهرياً إضافياً رفع من مستوى حياة الزوجين سميث والتى كانت إميلى تصفه بالرعوى.

وبمرور الأعوام، تخليا عن حذرهما كلياً. واحتفلا بحريتهما مجدداً فى منتصف ليلة ١٣ ديسمبر عام ١٩٩٩، بمشاهدة الألعاب النارية فوق مالاقا مع بدء الألفية الجديدة. ولمدة ١٥ عاماً، تمكن الزوجان سميث من تفادى السلطات بينما يعيشان فى جنتهما الصغيرة.

في يونيو ٢٠٠١، طلب مدير مصرف بانكو بيلباو من "جون شيلر" أن يمر على المصرف لعقد اجتماع قصير. اعتذر مدير المصرف وأخبر سميث أنه لكي يتمكن من الاستمرار في استخدام هذا الحساب، فعليه الحصول على ترخيص مواطن غير مقيم، وسلم سميث نسخة من الاستمارة التي عليه ملؤها ليأخذها لاحقاً إلى قسم شرطة مالاقا ليختموها له. ووصف الأمر بأنه لا يتعدى كونه إجراءً بيروقراطياً روتينياً. واشتكى سميث بأنه استطاع استخدام هذا الحساب طوال سنوات بدون مشاكل، إذن لِمَ الجلبة الآن؟! هز مدير المصرف كتفيه وكأنه يعبر عن استيائه من هذا الأمر السخيف أيضاً، لكنه عليه أن يتبع الإجراءات.

ومن المصرف، قاد الزوجان سميث السيارة إلى قسم شرطة مالاقا وركناها، وبرشاقة صعدا السلم وصولاً للضابط الجالس في المدخل وراء أحد المكاتب. وأرياه الاستمارة التي ملآها وأخبراه أنهما يريدان أن يختماها. فأخذ الضابط الاستمارة ونظر إليها بتمعن، وأعطاهما كعباً بموعد العودة وهو يشرح لهما بأن عليهما العودة في ٩ يوليو لاستلام ترخيصهما. اعتادت الأمور أن تسير ببطء في مالاقا.

وكما تم توجيههما عاد الزوجان سميث في ٩ يوليو ٢٠٠١، وهما ينتظران ألا يستغرق الأمر أكثر من ٥ دقائق. وما أن وصلا لقسم الشرطة، تم توجيههما للذهاب لمنطقة المكتب الخلفي والانتظار. وبعدما مرت حوالي ١٥ دقيقة ولم يأت أحد، التفت سميث إلى إميلي وسألها:

"لِمَ يستغرقون كل هذا الوقت؟ سنتأخر عن رحلة السير على الشاطئ". وبعد ٥ دقائق دخل الغرفة ضابط طويل أزرق العينين يرتدي زياً أسود، وسار حتى جهاز الفاكس في الركن، وأخرج ورقة كانت قد وصلت لتوها. ثم سار تجاههما، وسلم سميث الفاكس بدون أن ينطق بكلمة واحدة، وانتظر ليشاهد ردة فعله. ونظر سميث

إلى الورقة وصدم عندما رأى صورة أبيض وأسود له يبدو فيها أصغر بعشرين عاماً عن عمره البالغ آنذاك ٧٢ عاماً.

ولاحظ كلمة إنتربول أعلى الورقة. وطغى عليه إحساس مفاجئ بالفزع وتقلصت معدته قلقاً. فبعد ١٦ عاماً كان قد نسي تقريباً وضعه كهارب. وبطلبه فوائد الضمان الاجتماعي، فقد أشار مباشرة إلى موقعه. وبطلبه رخصة المواطن غير المقيم وقع في الشرك المعد له بحنكة، ودخل قسم الشرطة، وسلم نفسه. وبالنسبة لشخص بالغ الذكاء، كان هذا غباء يفوق التصور.

وبعد لحظة لابد وأنها بدت كدهر، سأله الضابط "هل هذا أنت؟".

كان سميث مصدوماً لكنه أكد أن الصورة تبدو له. فالتفت الضابط إلى إميلي وقال:

حسناً، يمكنك الانصراف الآن، سألقى القبض على هذا الرجل.

لم تجد إميلي ما تقوله وفي الحال اعتراها الشحوب فيما بدأ الضابط يقيد زوجها بالأصفاد. بيّن سميث أنه يحتاج لأن يعطي زوجته مفاتيح السيارة لتذهب بها إلى المنزل. ومد يديه بمفاتيح السيارة فقبضت عليهما إميلي بقوة. نزع الضابط يديه، ولفهما بقوة وراء ظهره ووضع الأصفاد حول معصميه. لا أحضان ولا قبلات. وقفت إميلي في وسط الغرفة وهي في حالة صدمة هائلة بينما كان زوجها منذ حوالي ٥٠ عاماً يُصطحب حتى غاب عن الأنظار. لم يدركا الأمر في تلك اللحظة، لكن كانت تلك هي المرة الأخيرة التي يراها فيها سميث كرجل حر ولأعوام تالية.

وحُشِر سميث في زنزانة خرسانية بلا نوافذ بها منطقة إسمنتية مرتفعة تستخدم كفراش، وعليها بطانيتان قذرتان. وكان المرحاض في آخر الرواق عبارة عن ثقب

بسـيط فى الأرضـيـة. ولم يكن هناك ورق تواليت. وكـان الطعـام يقـدم فى أوعـيـة بلاستيكية صغيرة. ولم يكن هناك حراس فى الليل، لذا عندما كان السـجين ذو الثانية وسبعين سنة يحتاج للتبول بسبب البروستاتا المتضخمة، كان يتبول على أرضية زنزانته.

كانت الليلة الأولى بشعة. ومضى يستعيد العملية التى أدت للقبض عليه مراراً وتكراراً ويبدأ يدرك كم كان أحمق، إذ فاتته كل الإشارات الواضحة المتجلية أمام عينيه. وأدرك أنه كان لديه العديد من الفرص منذ بداية الأحداث لتجنب ذلك المصير. إذ كان بإمكانه تجنب طلب الضمان الاجتماعى، وتجنب الذهاب إلى قسم الشرطة... مرتين. وكان بإمكانه الخروج من القسم ما إن وصله. وكان بإمكانه إنكار أنه هو ذاته الرجل الذى فى الصورة.

وشرد عقله إلى ما قبل ١٨ عاماً، حيث كان بإمكانه الامتناع عن إخبار العميل الفدرالى عن شحنة الكرايترون الخاطئة بعد حادث اقتحام شركته، وكان بإمكانه الامتناع عن التوقيع على وثيقة إسقاط التقادم، وكان بإمكانه الامتناع عن إرسال شحنة الكرايترون الأخيرة بعدما قرأ التحذير، وكان بإمكانه البقاء فى شركة روكويل وتجنب الأمر برمته، برغم أن ذلك كان يعنى حرمانه من نوادى اليخوت والعقارات الشاطئية. وكانت قائمة التفاصيل التى تدور بخلده طويلة طويلة.

عادت إميلى إلى شقتهما مذهولة ومرتبكة. فخلال لحظة واحدة انهار عالمهما بأكمله للمرة الثانية. وعندما علم المسئولون فى واشنطن بواقعة القبض عليه، لم يسعدوا بذلك، إذ كان من الأفضل تناسى الماضى الفاسد. لكن الزوجين سميث بتصرفاتهما، بدا وكأنهما كانا يتوسلان القبض عليهما ولم يكن لدى الإنتربول خيار سوى اتباع أدنى حد من الإجراءات.

وعندما سمع ميلتشان أخبار القبض على سميث، عرف مثل أى أحد أخر قرأ الجريدة فى ذلك اليوم، أنه سيكون خطباً جللاً، وسيُذكر اسمه مجدداً فيما يتعلق بما أسماه قصة الكرايترون متناهية الغباء. واجتاحته عاصفة من المشاعر المتضاربة.

فمن ناحية كان يستشيط غضباً من الإهمال الرهيب الذى ساد الموقف برمته، ومن ناحية أخرى، كان يشعر بالأسى لأجلهما. إذ لم يكن سميث فى النهاية سوى واحد من الكثيرين الذين يجندهم ميلتشان، ولم يكن أكثرهم أهمية. بل كان بالأحرى أكثرهم مشاكل. فى اليوم التالى، مثل سميث أمام قاض أمر أن يحبس فى سجن ألهورين دى لا تور، على بعد حوالى ٢٥ دقيقة بالسيارة من مالاقا. وذكر القاضى أنه قد يُنقل لاحقاً إلى ريال مدريد ليمثل أمام المحكمة الدولية لتسليم المتهمين.

وكان سجن ألهورين دى لا تور كابوساً. وجد سميث، الرقيق المتعلم المثقف، نفسه فجأة فى حضرة كل مجرم يمكن تصوره.

كان بكل زنزانة مرحاض معدنى بدائى بلا غطاء وحوض غسيل معدنى صغير ليغسل فيه ملابسه الداخلية المتسخة، وجواربه، وأدوات الأكل، وصينية الطعام. أسوأ شىء كان عدم وجود ماء لدفق المرحاض مرتين فى اليوم. وكان عليه ملأ دلو الاستحمام ثم صبه فى المرحاض للتخلص من الرائحة البشعة الكريهة. وكان هناك الكثير من السجناء المصابين بالإيدز، لحد منع مغسلة السجن من قبول الملابس الداخلية أو الجوارب. وتلك كان يجب غسلها باليد فى حوض الغسيل المعدنى الصغير. ولم تكن هناك صابونة غسيل. وكان الجميع يدخنون تقريباً وكان من المستحيل الهروب من الدخان حتى فى زنزانات النوم (جاء ذلك فى وصف شيلر لنظام السجون).

واستحالت الأيام لأسابيع.

كان مسموحاً لإميلى بالزيارة مرة أسبوعياً. وكانا يتحدثان عبر حاجز زجاجى سميك به مكبر صوت صغير، على طراز فيلم "ميدنايت إكسبريس". وكما قال سميث:

"كانت الزيارات الزوجية أحد الجوانب اللطيفة لنظام السجون الإسبانى. ملأتُ استمارة سجناء أطلب فيها زيارة خاصة فى غرفة نوم مجهزة بفراش مزدوج، وملاءات نظيفة، وحمام به دش. كانت العلاقات الخاصة مسموحاً بها مرتين شهرياً فى زيارات مدة كل منها ساعة".

"كنت فى سعادة غامرة عندما أبلغونى أننى مُنحت تصريحاً بزيارة خاصة من زوجتى التى كان زواجى بها قد استمر لخمسين عاماً بعد ٢٠ يوماً طوالاً مضنية من الابتعاد عنها. وكنا نشعر بالاسترخاء التام أثناء تلك الزيارات الحميمية، ذلك التقليد الرحيم من جانب السجون الإسبانية".

أثناء إحدى الزيارات الزوجية، احتفل ريتشارد وإميلى بذكرى زواجهما الخمسين.

وألقت ظروف السجن الصعبة بحملها الثقيل على كاهل سميث، وفى مخيلته بدأ يقارن بين موقفه وموقف صديقه القديم ميلتشان. وأصبح أسير فكرة "آه لو لم أقابل ميلتشان يوماً! لتغير كل شيء". تمنى لو أنه بقى فى شركة روكويل ونسى أوهام النجاح وامتلاك شركته الخاصة. وذات يوم فى يأسه، كتب خطاباً أعطاه لإميلى يطلب منها إرساله بالفاكس إلى ميلتشان، جاء به التالى:

التاريخ: ٢٢ أغسطس ٢٠٠١ .

المرسل إليه: أرنون ميلتشان منتج الأفلام الشهير.

المرسل: ريتشارد كيلى سميث. نزيل سجن ألهورين دى لا تور فى مالاقا،

إسبانيا.

ويرَسلَ أيضاً إلى: ديبورا بن إسحاق.

عزيزى أرنون،

أتمنى حقاً لو عرفت كيف هو الحال فى السجن. يمكننى أن أخبرك، أن الوضع ليس مبهجاً. أسوأ شيء أننى كنت بعيداً عن زوجتى، فى ذكرى زواجنا الخمسين، والتى كانت فى ١ أغسطس ٢٠٠١ .

أدرك أنك تظن أنك لم ترتكب أى خطأ، لكنك فى الواقع، قد فعلت. أنت السبب فى وجودى فى السجن، لأننى أرسلت إلى شركتك ميلتشان بروس فى تل أبيب، بعض الأنابيب الإلكترونية المسماة بالكرايترون. أتتذكر؟ أظن أنك تذكرها.

استخدمت تراخيص وزارة التجارة بدلاً من تراخيص الذخائر لذا ارتأت الحكومة الأمريكية أننى يجب أن أدخل السجن لمدة ١٠٥ عام. قرأت فى الصحف أنك بعت أفلاماً بـ٤٥٠ مليون دولار إلى قناة تشانل بلاس، القناة التليفزيونية الخاصة بالأفلام المشفرة. آمل أن تكون قد أودعت معظم تلك الأموال فى حسابك السرى فى يونيون بانك فى زيوريخ مثل نسبة الـ٦٠٪ أرباح من كل شيء، ومنها الكرايتون الذى كنت أشحنه إلى شركة هيلى تريدينغ. وأتوقع ألا يكون أحد فى الحكومة الإسرائيلية مهتماً بحقيقة أنك كنت تغتصب نسبة ٦٠٪ كأرباح على كل شيء أرسلته شركة "ميلكو إنترناشونال" إلى شركة ميلتشان بروس. فبعد كل شيء كان نتنياهو رئيس الوزراء الإسرائيلى قبل شارون، يعمل لصالح شركة ميلتشان بروس! هل من الممكن أن جزءاً من نسبة الـ٦٠٪ أرباح التى كنت تغتصبها كانت تذهب لمسئولين فى الحكومة الإسرائيلية؟!

"شاهدت أيضاً فيلم بريتي وومان الذى أنتجته، تهانيّ! كان فيلماً رائعاً.

"ما شعورك وأنت تملك كل هذا المال؟ لطالما تساءلت كيف سيكون شعورى إن امتلكت المليار ونصف المليار دولار التى تشتهر أنت بامتلاكها. ما كنت لأستطيع أن آكل أكثر مما آكل، ولا أن تكون سيارتى أكثر سرعة على الطريق السريع، ولا فراشى أكثر راحة، ولا أن تطارحنى الغرام امرأة سوى زوجتى منذ ٥٠ عاماً، ولا أن يكون حاسوبي أسرع مما هو. ماذا تفعل بهذا المال؟ هل هو رضا الشعور بالقوة؟ لستَ على درجة تعليم تعادلنى، أحمل شهادة الدكتوراه. لذا أنا أفوقك عقلياً. أعتقد أن قوة العقل أهم من قوة المال. لكن لكل منهما قوته الخاصة.

"أرنون! دعنى أخبرك القليل عن الحال فى السجن: أولاً، لا تعليمك ولا مالك يعنيان أى شىء لحراس السجن، فما أنت إلا سجين آخر، مثل مدمن المخدرات، مثل اللصوص المسلحين، مثل القتلة، والأشخاص الذين ارتكبوا جرائم نصب ضد البنوك والحكومات. وعليك أن تأكل ما يقدمه السجن في أوقات الوجبات، بلا اختيار. وعليك اتباع روتين السجن: تأوى إلى الفراش عندما يأمرونك، وتذهب لمناطق التريض عندما يصرح لك. ما رأيك أن تستبدل أسلوب حياتك الحالى بأسلوب حياة السجن؟ يمكننى أن أخبرك من الآن أن هذا الأمر لن يعجبك!!

"لذا يا أرنون، أشكرك على العمل الذى أديته لشركة ميلتشان بروس. والآن أتعلم كيف هى حياة السجن. لم أظن يوماً أن هذا قد يحدث لى. ربما قد تكفل لك المليار ونصف المليار دولار التى تمتلكها إيجاد مخرج آمن من أى موقف أياً كان الجرم الذى ارتكبته.

"أرنون! إن تم تسليمى للولايات المتحدة ومثلت للمحاكمة بتهمة شحن الكرايترون إلى شركتك ميلتشان بروس، سيعرف العالم أجمع بالصفقات المشبوهة التى كنت أنت

طرفاً فيها، أنا واثق من ذلك.

لا أقدر لك أنك لم ترفع إصبعاً واحداً لمساعدتى بعد إدانتى أو بعدما فررت إلى إسبانيا. أعرف أنك كنت تعلم مكانى فى إسبانيا. كانت ديبورا ستزورنى لكنك ألغيت زيارتها. هل نصحك نتنياهو بعدم مساعدتى؟ أم أنها كانت فكرتك؟ أفترض أنك أمرت ديبورا ألا تزورنى ما أن أبلغتك بمكانى فى إسبانيا. لا أزال أشعر بالرهبة من المليار ونصف المليار دولار التى تمتلكها، لكنك تشعرنى بالغثيان.

صديقك السابق

ريتشارد كيلى سميث

عندما قرأت إميلى ذلك الخطاب أدركت فى الحال أن زوجها قد تخلى عن فطنته. ولم ترسله قط، ولم يره ميلتشان حتى اليوم الذى سلمناه إياه. حيث قال:

"الخطاب يعكس درجة كبيرة من سوء الإدراك من جانب سميث، والذى لم يعرف يوماً أن نسبتى المفترضة من الأرباح لم تؤل إلىّ قط. قلة المعرفة أدت بسميث إلى أن يكيل الاتهامات الرعناء فى وقت محنته.

ومضى قائلاً "لم أعرف، نتنياهو ولم تكن لى علاقة به حتى التسعينيات، بعد إدانة سميث عام ١٩٨٥ . ولم أعرف بمكان سميث حتى تم القبض عليه فى مالاقا بسبب طلب لاكام والموساد منى أن أنأى بنفسى كلياً عن تلك القضية وأتركهما يتوليانها".

ثبت أن تهديد سميث حيث قال "إن تم ترحيلى... سيعرف العالم أجمع بالصفقات المشبوهة التى كنت طرفاً فيها، بمرور الوقت" كان تهديداً خاوياً، ولم توجه أى اتهامات لميلتشان.

كانت الولايات المتحدة تعرف بوضع سميث فى سجن مالاقا لأنهم أرسلوا ممثلاً

من السفارة ليزوره، لكنهم استغرقوا وقتاً طويلاً فى الحديث عن عملية تسليمه. كانوا يعرفون أنه محاط بحثالة المجتمع، من القتلة، إلى المدمنين المصابين بالإيدز، إلى تجار المخدرات، إلى لصوص السطو المسلح. كانت المشاجرات تندلع باستمرار من حوله. وشعر بأن حياته فى خطر وعاش فى حالة خوف مستمرة. وفكر جدياً فى الانتحار، لكن التفكير فى التأثير المعنوى المحتمل لموته على إميلى وأبنائه حال دون قيامه بذلك. كان كل يوم كالكابوس. وفى أحلك لحظاته الشخصية فى مستشفى السجن شاهد الطائرة الثانية تصطدم بالبرجين المزدوجين أو مركز التجارة العالمى فى نيويورك، وأخرى تصطدم بالبنتاغون. وتذكر سيره فى أروقة وزارة الدفاع البنتاغون كعضو مبجل فى المجلس الاستشارى العلمى، ولم يتمالك نفسه من مقارنة تلك الأيام المجيدة بورطته الحالية.

بحلول أواخر سبتمبر ٢٠٠١، كان قد قرر التخلى عن فكرة مقاومة تسليمه أو إنقاذ حياته الرعوية فى مالاقا، واستعدت إميلى لشحن أكثر متعلقاتهم قيمة إلى الولايات المتحدة.

وأخيراً فى ١٥ نوفمبر ٢٠٠١، بعد أكثر من ١٦ عاماً من هروبه المحموم على رحلة لوفتهانزا إلى فرانكفورت، ألمانيا، تم إعادة ريتشارد كيلى سميث إلى الولايات المتحدة. اقتيد إلى خارج السجن بدون أصفاد إلى السيارة الفولفو السوداء، يصحبه مسئولان من وزارة العدل الإسبانية فى رحلة الخمس ساعات بالسيارة من مالاقا إلى مدريد، حيث قضى ليلته الأخيرة فى إسبانيا فى زنزانة مريحة نسبياً. فى اليوم التالى فى الواحدة ظهراً، غادر سجن مدريد وتقابل مع مارشالين أمريكيين بارزين.

فى يوم الجمعة الموافق ١٦ نوفمبر ٢٠٠١، غادر على رحلة لشركة دلتا إلى لوس أنجلوس مروراً بأتلانتا، ولم يعد إلى إسبانيا مجدداً أبدا. وصل إلى مطار لوس

أنجلوس الدولى فى الـ٨:٤٥ مساء وتم اصطحابه فى الحال إلى مركز الاحتجاز الفدرالى فى وسط لوس أنجلوس، حيث تم إيداعه بزنزانة لشخصين. كانت مقارنة بسجن مالاقا فارهة للغاية، بالرغم أنها كانت بلا زيارات زوجية. وخلال أيام، قامت المباحث الفدرالية باستجوابه بشكل متكرر.

وبعد أكثر من شهر من عودة سميث إلى الولايات المتحدة، كان مكتب المدعى العام الأمريكى يعيد التفكير فى قضيته. وأنذاك، لم يَعُد الكرايترون يتطلب ترخيص تصدير نخائر على الإطلاق. وأعيد معظم الكرايترون الذى شحنه سميث لشركة هيلى تريدينغ إلى الولايات المتحدة وفقاً لاتفاقية بين الحكومتين.

وفى ظل تلك المستجدات الأخيرة، بدأت فكرة قضاء رجل عجوز، وجَدّ متزوج، ١٠٥ عام فى السجن بسبب ما كان فى الأساس خطأً إدارياً أثناء شحن أحد الأغراض لمن كان بعد كل شيء، حليفاً رئيسياً للولايات المتحدة فى الشرق الأوسط، تبدو أكثر فأكثر كردة فعل هستيرية تصاعدت إلى عقاب قاس واستثنائى، خاصة بالنظر إلى ما تكشف بالفعل. فالافتراضات القوية التى سادت فى عام ١٩٨٥ والتى ذهبت إلى أن الكرايترون لا يمثل سوى قمة جبل الجليد فى أنشطة شركة ميلكو، مع احتمال صوابها آنذاك، لم يعد لها نفس القدر من الأهمية بعد مرور ١٦ عاماً ونصف العام. ثم كان هناك تخوف ألا تقبل أى هيئة محلفين بإرسال رجل عجوز ليقضى بقية حياته فى السجن، بينما تجلس زوجته وأبناؤه وأحفاده فى قاعة المحكمة يتعذبون.

وفى ٢٠ ديسمبر ٢٠٠١، لان جانب الحكومة الأمريكية، إذ عرضت صفقة استئناف مخففة بشدة، وبعد بضعة أيام من المفاوضات، تم الاتفاق بأن يدفع سميث بأنه مذنب بتهمة واحدة وهى انتهاك القانون النظامى لتصدير الأسلحة الأمريكية، وبتهمة الكذب بشأن محتويات شحنات الكرايترون. وتم تحديد جلسة النطق بالحكم

فى ٢٩ أبريل ٢٠٠٢، على أن يبقى سميث فى السجن طيلة تلك الفترة على الأقل.

وللاستعداد للنطق بالحكم، طلبت إميلى من كل شخص أمكنها التوصل إليه كتابة شهادات لصالح شخصية زوجها. وكان هذا أصدق اختبار لأصدقائه المخلصين، أولئك المستعدون للمجابهة ولارتباط أسمائهم بما يواجهه شخص آخر من متاعب قانونية، فى وقت كان أسهل الخيارات فيه هو التزام الصمت.

وعلى الرغم من أن كثيراً ممن كان المأمول منهم أن يهبّوا ويبادروا بالمساعدة تجاهلوا الطلب، فقد تقدم عدد لا بأس به، بعضهم لم يكن متوقعاً، بالمساعدة، من بينهم أصدقاء الدراسة القدامى، وحبيبة سابقة من أيام الجامعة، وعدد من أصدقائه فى العمل، والعديد من أفراد العائلة، وبضعة من أصدقاء اليخوت، وكثير من أصدقاء نادى المتحدثين بالإنجليزية والنادى الأمريكى فى مالاقا، ثم كان هناك خطاب من مدير شركة ميلتشان بروس لميتد جاء فيه ما يلى:

إلى من يهمه الأمر:

أنا شريك عمل سابق للدكتور ريتشارد كيلى سميث. تم تعيينى من قبَل شركة هيلى تريدينغ لميتد، وهى شركة تابعة لشركة ميلتشان بروس لميتد ومن قبل شركة ميلتشان بروس لميتد، منذ عام ١٩٦٦ وتقاعدت فى عام ٢٠٠٠ . وباسم شركتى كانت لى علاقات عمل مقربة للغاية من الدكتور ريتشارد كيلى سميث منذ عام ١٩٧٣ وحتى القبض عليه.

"وبالإضافة لعلاقات العمل التى جمعتنا، أصبح الدكتور سميث وزوجته وأبناؤه، أصدقاء مقربين للغاية لى ولزوجى. تقابلنا عدة مرات فى إسرائيل وأيضاً فى لوس أنجلوس عندما زرناها لحضور زفاف ابنته. ومن خلال سنوات عديدة من العلاقات الحميمة، أشعر أننى أعرف الدكتور سميث جيداً. إنه شخص رائع، صادق، مخلص،

رجل عائلة فخور وأمريكي فخور. ليس لدى أدنى شك أنه مواطن يمتثل للقانون ولم يكن ليفعل أى شيء متعمداً خرق القانون. لطالما أرشدني ووجهني في الإجراءات القانونية الأمريكية وفيما يجب اتباعه أو تجنبه.

"أنا مقتنعة كلياً: أنه إذا كان قد ارتكب أى خطأ، فقد فعل ذلك بحسن نية وبدون أدنى سوء يضمره. وأنا مقتنعة أنه إن كان له أن يستأنف حياته العملية، فسيكون بالغ الحذر في المستقبل ولن يتكرر سلوكه في انتهاك القانون.

"الدكتور سميث ليس شاباً. وعلى حد علمي فهو يبلغ من العمر ٧٢ عاماً ولا يتمتع بصحة جيدة. ولقد دفع بالفعل ثمناً باهظاً مقابل الخطأ الذى ارتكبه. ولسنوات عدة، تنازل عن اتصاله اليومي بعائلته التي يعزها بل ويعشقها، وعاش بعيداً عن بلده، وخسر كل ما عمل لأجله طيلة حياته. أتمنى أن تضعوا في اعتباركم كل تلك العوامل لتجدوا مكاناً في قلوبكم للرحمة والعطف عندما تنطقون بالحكم".

ديبورا بن إسحاق

في ٢٩ أبريل عام ٢٠٠٢، دخل ريتشارد كيلي سميث قاعة المحكمة ومعنوياته مرتفعة على الرغم من أنه كان في الثانية والسبعين من عمره وأُجبر على ارتداء زى السجن البرتقالي وكان مكبل الكاحلين بالأصفاد، والأغلال تحيط بوسطه ومتصلة بأصفاد يديه، على طراز معتقلي غوانتانامو باى. أوصى ضباط المراقبة بأن يُطلق سراح الرجل العجوز ويُكتفى بالمدة التي قضاها في الحبس، والتي بلغت عشرة أشهر منذ القبض عليه في مالاقا. وطمأنه محاموه وكذلك زملاؤه من السجناء أن القضاة عادة ما يمتثلون لتوصيات ضباط المراقبة. وامتلأت قاعة المحكمة بأفراد العائلة وبالأصدقاء الداعمين، وبأبنائه وزوجته وبزملائه منذ كان طالباً في الجامعة، وأصدقائه في شركة روكويل، وعدد من الصحفيين. وأخيراً، حانت لحظة الحقيقة.

كانت القاضية باملا آن رايمر، وهى نفس القاضية التى كانت فى قاعة المحكمة عندما تغيب سميث عن جلسة محاكمته فى أغسطس ١٩٨٥، قد تم ترقيتها مذاك لترأس محكمة الاستئناف الفدرالية. واتخذت خطوة غير معهودة إذ تنحت عن موضعها لكى تحاكم الرجل الذى شعرت أنه أهانها هى والنظام القضائى منذ حوالى ١٧ عاماً. ومن منطلق الخبرة، شعرت بأن قاعة المحكمة ستكون مكتظة بالمراسلين الصحفيين.

وإذ تبوأت مقعدها على منصة القضاء، بدأت الجلسة بخطاب افتتاحى، صرحت فيه بأن سميث قضى الستة عشر عاماً فى موقع خلاب فى إسبانيا. وقالت إنها لا تصدق أنه نسى طلب عام ١٩٧٥ لاستصدار ترخيص تصدير ذخائر لطلبية الكرايترون التى تم إلغاؤها.

لم تذكر له إسهاماته العديدة فى مجال الدفاع العسكرى عن الولايات المتحدة على مدار سنين عدة فى ذروة الحرب الباردة. ولم تثن عليه لمحنته الطويلة، ومنها حبسه فى السجن، فى إسبانيا. ولم تُلق بالاً للملحوظة أن معظم الكرايترون قد تمت استعادته ولا أن التراخيص لم تعد مطلوبة لتصدير الكرايترون. وتجاهلت حقيقة أن كل الشحنات المعنية كانت إلى أحد أقرب حلفاء الولايات المتحدة فى العالم، وليس لدولة عدوة.

ثم حكمت القاضية رايمر عليه بالسجن لمدة أربعين شهراً وبوضعه تحت المراقبة لعامين وبغرامة ٢٠ ألف دولار. صُدِم لذلك أفراد العائلة والأصدقاء فى قاعة المحكمة، وشعروا بالتقزز والانزعاج. وجلس سميث فى قاعة المحكمة عاجزاً عن الحركة أو التفكير. كان المشهد وكأنه مشهد من أحد أفلام ميلتشان، على الرغم من أنه كان حقيقياً.

تم اقتياده مكبلاً بالأصفاد خارج قاعة المحكمة وعودة إلى زنزانته بينما كانت أسرته تنظر فى فزع. ثم تم نقله لاحقاً إلى مجمع سجون فدرالى فى لومبوك شمال سانتا باربرا، حيث تم احتجازه حتى نُقل إلى معكسر سجون فى تافت، كاليفورنيا فى أبريل ٢٠٠٤ .

وفى سبتمبر ٢٠٠٤ تم نقله إلى منزل وسيط فى تافت. وفى يناير ٢٠٠٥ أطلق سراحه أخيراً ووضع تحت المراقبة وتم السماح له بالإقامة فى مقطورة متنقلة متواضعة فى لومبوك، كاليفورنيا . والتأم شمله أخيراً بزوجته الحبيبة إميلى، والتى وقفت صامدة بجواره بشجاعة طوال تلك المحنة التى استمرت لعقود.

وفى ١٥ ديسمبر عام ٢٠٠٥، وهو فى الخامسة والسبعين من عمره، تم استدعاء سميث لاستجوابه فى مكاتب المباحث الفدرالية فى ويلشاير بوليفارد فى لوس أنجلوس. وأثناء التحقيق الذى استمر ثلاث ساعات والذى أمطروه فيه بالأسئلة السريعة، طُلب منه سرد التفاصيل الكاملة لعلاقته بميلتشان منذ أن التقاه فى أواخر الستينيات، حتى آخر اتصال به عام ١٩٨٣ .

وفى مايو ٢٠٠٦، أنهى سميث فترة المراقبة، ولأول مرة منذ عام ١٩٨٥ لم يكن سجين النظام ولا هارباً منه. وبإطلاق سراحه، انتهت قصة ميلكو للأبد، والتى تفادى ميلتشان التورط فيها مجدداً.

عقب تلك الأزمة، جلس الزوجان سميث لتوثيق قصتهما فى كتيب واقعى بعنوان "الاتهام غير المنطقى والسجن، أو تصدير الكرايترون إلى إسرائيل". ومجدداً استخدم ريتشارد اسمه الحركى الذى كان قد استخدمه لفترة طويلة أى الدكتور جون شيلر وأعطى كل الشخصيات المعنية أسماء مستعارة. وأسمى شخصيته الدكتور إرنست كيلى. وأسمى زوجته إميلى آنى وأسمى ميلتشان دانى روتو.

وفى رسالة إلكترونية إلينا، أكد سميث أن كل المعلومات التى نحتاجها نستطيع أن نجدها فى كتاباته. ويمكننا أن نقول بكل ثقة إن القليلين هم الذين استطاعوا الربط بين الدكتور جون شيلر والهارب الشهير من الثمانينيات حتى الآن. وأنهما الشخص ذاته فى واقع الأمر.

ونظراً لكل ما حدث، وجد سميث أنه من المستحيل له التوافق مع واقع ميلتشان وواقعه، إذ إنه يعيش فى منزل متنقل بجوار قضبان السكة الحديد، ويتخيل صديقه السابق يتنقل بطائرته الخاصة بين دول العالم، كانت تلك حقيقة مريرة بالنسبة لرجل كان يوماً يعمل فى أهم شركة لرواد مهندسى الفضاء فى الولايات المتحدة.

وبالتأكيد، يرى ميلتشان الأمر من منظور مختلف كلياً. ليس من المبالغة القول إن ميلتشان يرى أن إسرائيل أنقذت سميث فى الواقع من مصير أسوأ بكثير، وأنه يعتقد أن سميث نفسه -والذى تصرف تصرفات خرقاء فى مناسبات عدة- مسئول شخصياً عن أزمته. وأن تصرفاته عرضت ميلتشان للخطر وأحرجت إسرائيل بل وحتى الولايات المتحدة بكل طريقة ممكنة.

هناك أكثر من طريقة لرؤية الأمر، لكن الواضح تماماً أنه أثناء التسعينيات، وبينما كان كل ذلك يحدث، حقق ميلتشان أحد أنجح الإنجازات فى تاريخ هوليوود، وحققها معتمداً على نفسه.

وما بين صيفى ١٩٨٥ و٢٠٠١، أنتج ميلتشان ما مجمله ٦٦ فيلماً، وأثر فى ثقافتنا الشعبية بأضخم أفلام العصر.

١٩

المفـــاوض

رأيت فى أرنون شخصاً بالغ الذكاء ذا موهبة فريدة فى المجال. لم يكن لدىّ أى علم بعالمه خارج نطاق هوليوود، ومازلت أجهل ذلك.

ترى سيميل رئيس مجلس الإدارة الأسبق لشركة وورنر برانرس فى تصريح له للمؤلفيْن

عقب فيلم "بريتى وومان"، سرعان ما أصبح ميلتشان من أشهر الشخصيات فى هوليوود، وبحلول عام ١٩٩١ أبرم التزاماً، فى شراكة مع وورنر برانرس، لتسويق وتوزيع ٤٠ فيلماً طويلاً. لكن علاقته بالاستوديو بدأت متعثرة.

يقول تيرى سيميل رئيس مجلس الإدارة الأسبق لشركة وورنر بروس، والذى أصبح صديقاً شخصياً لأرنون، "كنت من بادر بالاتصال بأرنون بشأن الاشتراك مع شركة وورنر فى إنتاج العديد من الأفلام، بدلاً من إنتاج كل فيلم على حدة".

وكان أول مشروع لهما معاً فيلم "أندر سيج" أو "تحت الحصار"، وهو فيلم حركة وإثارة، بطولة ستيفن سيغال. وتنطوى قصته على سرقة السفينة الحربية يو إس إس ميزورى من قبل مجموعة ساخطة من القوات الخاصة سابقاً يقودها تومى لى جونز فى دور باد بيلى. ويلعب سيغال دور طاهى السفينة، وهو من قوات البحرية الخاصة سابقاً، وينجح بواسطة مكيدة ماكرة فى الاستيلاء على السفينة. كتب سيناريو الفيلم جيه إف لاوتون.

تلقى لاوتون، الذى كتب سيناريو فيلم بريتى وومان، مبلغ مليون دولار مقابل

السيناريو اللاحق كما وعده ميلتشان. وعندما سمع ترى سيميل رئيس مجلس إدارة شركة وورنر براذرس بملبغ المليون دولار الذى دفعه ميلتشان للاوتون لم يسعد بذلك.

كانت لدى شركة وورنر براذرس قناعة بأن عقدها مع ميلتشان هو عقد معيارى شأن أى منتج مستقل آخر، ويشترط أن الاستوديو له القول الفصل بخصوص أى قرار هام يتعلق بالميزانية. لكن ميلتشان فهم الأمر بشكل مختلف. إذ أراد أن تقوم شركة وورنر براذرس بتوزيع الأفلام التى يقرر إنتاجها، والتى يملك هو السلطة المطلقة فى الموافقة عليها، بما فيها كل الجوانب المتعلقة بالميزانية. وعندما أدرك ميلتشان وجود سوء تفاهم اتصل بترى سيميل من باريس وطلب منه فسخ العقد. صدم سيميل لذلك وقال متعجباً "لكننا وقعنا العقد منذ أسبوعين فحسب".

سـأله ميلتشان ما إن كان قد قـرأ العقد، فاعترف سيميل بأنه لم يقرأه إذ افترض أنه عقد معياري. قال ميلتشان: كل ما أطلبه هو الحق في إنفاق أموالي على المشاريع التي أومن بها، وكان في الواقع يطلب الحرية المطلقة في التصرف.

لم يكن الاتفاق الذي يسيطر فيه الفرد على المؤسسة من نوعية العقود التي تبرمها شركة وورنر براذرس مع المنتجين المستقلين. وكان لدى سيميل الحق المطلق في فسخ العقد ونسيان أمر ميلتشان كلياً. لكن ميلتشان كان مطلوباً جماهيرياً، وكان سيميل معجباً به. وكان مصراً على الإبقاء على ميلتشان لدرجة أنه استقل طائرة خاصة إلى باريس ليشرح له شخصياً كيف تسير الأمور في هوليوود.

وما أن دخل غرفته في فندق ريتز، رفع سيميل الهاتف ليكمل حواره مع ميلتشان.

"لكن ماذا إن استيقظت صباح الغد وقررت التوقف عن إنتاج الأفلام بالإنجليزية؟ أتتوقع مني أن أوزع تلك الأفلام؟ أنا أمثل شركة عامة يا ميلتشان" قال سيميل محذراً.

وأجاب ميلتشان "لن أعمل إلا بهذه الشروط".

ثم توصل سيميل لفكرة تمنح ميلتشان الفرصة للنزول من برجه العاجي الذي يتفاوض منه. وشرح له أنه إذا أراد الحرية كاملة، فسيكون عليه بدء شراكة منفصلة مدعومة بمليار دولار، حتى يتعرض الاستوديو لأقل المخاطر، وقال سيميل في نفسه "لنرى كيف سيستجيب لذلك!".

- فاجأه ميلتشان قائلاً: حسناً! بكم أنتم مستعدون للمساهمة؟

- "يمكننا المشاركة بـ٣٠٠ مليون دولار" أجاب سيميل مفترضاً في قرارة

نفسه أنه من المستحيل على ميلتشان تحمّل مبلغ الـ ٧٠٠ مليون دولار المتبقية. وأنه على أسوأ تقدير، إن استطاع ميلتشان فعل المستحيل، فستمتلك شركة وورنر ثلث الشركة تقريباً.

– إن استطعت تدبير مبلغ الـ ٧٠٠ مليون دولار الباقية، هل يمكنك أن تؤكد لى أنه سيكون لى مطلق الحرية؟ استفسر ميلتشان.

– أجل، همهم سيميل بخبث.

– وستأخذ الشركة مصاريف التوزيع؟.

– حسناً، إذن سأتصل بك فى غرفتك فى السابعة مساء لأخبرك بجوابى.

أنهى سيميل المكالمة، وهو غير متأكد من تفسيرها، لكنه كان لا يزال واثقاً من أنه يستطيع إقناع ميلتشان بالنزول من برجه العاجى.

فوجئ مسئول كبير فى كانال بلاس، أكبر شركة قنوات تليفزيونية خاصة فى فرنسا، عندما اتصل به ميلتشان ليبلغه أن استوديو أمريكياً ضخماً ينوى استثمار ٣٠٠ مليون دولار فى شركة الإنتاج المستقلة الخاصة به، فوعدوا ميلتشان، بأنهم سيستثمرون معه دولاراً مقابل كل دولار، ليضاهوا استثمار الاستوديو.

كانت تلك فرصة فريدة للشراكة مع استوديو أمريكى ضخم بالنسبة لشركة كانال بلاس. وكانت بالفعل تدفع مبالغ طائلة مقابل حقوق التوزيع فى البلاد المتحدثة بالفرنسية. وكانت تلك فرصتهم للحصول على عائد جزئى على الأقل من تكاليفهم الداخلية.

فى السابعة مساء بالضبط، دق جرس الهاتف فى جناح ترى سيميل وطلب منه ميلتشان الانضمام إليه فى حانة الفندق بالدور السفلى.

عندما وصل سيميل، كان هناك ٣ أشخاص بانتظاره، ميلتشان ومسئولان من شركة كانال بلاس. وبدون تأخير، تطرق ميلتشان للحديث فى العمل.

– ترى! هل قلت إنك ستشارك بـ ٣٠٠ مليون دولار؟

– أجل... قلت ذلك.

فالتفت ميلتشان إلى مسئولى كانال بلاس وسألهما بالفرنسية.

– هل قلتما إنكما مستعدان للمساهمة بـ ٣٠٠ مليون دولار إن اتفقت مع الاستوديو؟

فأكد مسئولا كانال بلاس ذلك.

– حسناً، سأشارك بـ ٣٠٠ مليون دولار. إذن لدينا ٩٠٠ مليون دولار لتمويل الأفلام التى أقرر إنتاجها.

فى الأيام التالية، سافرت تلك الحاشية إلى نيويورك وتقابلت مع ستيف روس رئيس شركة تايم وورنر ومحامى الشركة لصياغة العقود. واستمر الاجتماع لما بعد الثانية صباحاً.

وعندما سأل المحامون عن اسم الكيان الجديد، سألهم ميلتشان فى المقابل: "ما اسم هذا الفندق؟" وعندما أخبروه أن اسمه ريجينسى، طلب من المحامى تسمية الشركة نيو ريجينسى. وفى الحال أصبح هذا الاسم مألوفاً لجميع محبى الأفلام فى العالم.

جمع ميلتشان المائة مليون دولار الإضافية التى تطلبها سيميل، جمعها من التليفزيون الألمانى ومن استوديو أفلام سكريبا آند ديهيل، ومن صديقه سيلفيو

بيرلسكونى، وهو من أباطرة الإعلام الإيطالى والذى أصبح رئيساً فيما بعد. هكذا رسخ ميلتشان نفسه فى قلب هوليوود تحت اسم شركة "نيو ريجينسى فيلمز".

تكلف إنتـاج فـيلم "أندر سيج" لكاتبـه لاوتون والذى أشـعل الموقف برمتـه من البـداية، ٣٥ مليـون دولار وحـقق ١٥٧ مليـون دولار أربـاح فى شـبـابيك التـذاكـر العالمية. فى الأعوام التالية، شارك أباطرة إعلام آخرون شركة نيو ريجينسى، ومنهم "ليو كيرتش" وشركة سامسونغ عملاق الإلكترونيات من كوريا الجنوبية.

آنذاك أسس ميلتشـان أكبـر شراكة إعـلاميـة دولية. ومـذاك تمت الكثيـر من الصـفقات على تلك الشاكلة، الكبيرة منها والصغيرة، لكن شراكة ميلتشان كانت الأولى من نوعـها. وكـانت أيضـاً صـفـقـة أحدثت نظامـاً جديداً فى هـوليوود اسـمـه "استـأجر استوديو" أو "استوديو داخل استوديو"، بما يعنى أن المنتجين يمكنهم أن يدفعوا للاستوديو مقابل توزيع منتجاتهم بدون أن يسيطر الاستوديو على محتوى أعمالهم.

كانت إحدى آخر صفقات أنظمة الدفاع العسكرى المعروفة التى تعاقد عليها ميلتشـان هى شراء ١٦ طائرة حربية إلكترونية من شركة بيتش كرافت، من طراز كينغ إير آر سى ١٢ ودى وآر سى – ١٢ كيـه، فى صـفـقـة بـ٨٠ مليـون دولار مع إسرائيل فى منتصف التسعينيات.

فى يناير ١٩٩١، اندلعت حـرب الخليج الأولى، وهدد صـدام حـسـين بإطلاق صواريخ سكود على قلب إسرائيل إذا تجرأت الولايات المتحدة على مهاجمته. وكان الحل الوحيد لمجابهة تلك الصواريخ هو نظام صواريخ باتريوت الجديدة من صناعة شركة رايثيون.

وكـانت أكبـر مـخـاوف إسـرائيل هى أن تطلق العـراق صـواريخ ذات رءوس

كيماوية أو بيولوجية على المراكز الحافلة بالسكان. ارتدى ميلتشان قبعة تاجر السلاح بفخر مجدداً! وتعاقد على شراء عدة بطاريات من صواريخ باتريوت وأرسلت إلى إسرائيل وتم تشغيلها فى البداية بقوات أمريكية حتى صارت الفرق الإسرائيلية مدربة بشكل كاف على أنظمة الصواريخ تلك.

ومجدداً، صارت إسرائيل ميدان تجارب لأنظمة سلاح أمريكية متقدمة. وهذه المرة، اكتشفوا أن صواريخ باتريوت ليست مؤهلة لإسقاط الصواريخ المعادية، وانتهى بها الحال أن أحدثت أضراراً فى الميدان أكثر من صواريخ سكود العراقية نفسها. وبالرغم من هذا، قررت إسرائيل شراء نظام صواريخ باتريوت مقابل ١٧٠ مليون دولار للبطارية الواحدة، ثم تم تحديث النظام بشكل كبير، وأصبح مكملاً لاستراتيجية الصواريخ المضادة الإسرائيلية حتى الآن.

فى هوليوود، تعملت شركة وورنر برانرس أن تستغل ميل ميلتشان للمخاطر لصالحها، وعرضت على مشاريعه الجديدة فى شركة نيو ريجينسى بعضاً من أكثر موادها خطورة. ومن بينها مشروع انتهى به الحال على مكتبه وكان ملحمة مؤامرة مثيرة للجدل، تتفحص الأحداث التى أدت إلى اغتيال جون إف كيندى وما تلاها من طمس الحقيقة المزعومة وفقاً لرؤية جيم جاريسون المحامى العام الأسبق لولاية نيوأولينز.

نظرت شركة وورنر برانرس إلى السيناريو على أنه يسبب القلق. إذ كان موضوعه مثيراً للجدل سياسياً ومن الأفضل تجنبه، ومخرجه أوليفر ستون مغرور لا يتنازل عن رأيه، وكان السيناريو طويلاً للغاية. مرّروه إلى ميلتشان لأخذ رأيه. يقول ميلتشان واصفاً موقفه من السيناريو: قرأته ونظرت إلى كل نظريات المؤامرة، لكن كان هناك شيء وحيد جذب انتباهى. أحدهم أطلق الرصاص على رئيس

الولايات المتحدة، وبعد يومين أطلق جاك روبى الرصاص على القاتل، وحتى يومنا هذا لا نستطيع فتح ملفات لى هارفى أوزوالد، وذلك لأسباب متعلقة بالأمن القومى. سألت نفسى وأنا أحك رأسى فى حيرة، ما الأمر المتعلق بالأمن القومى والذى يمنعهم من فتح الملفات؟. كان السيناريو جيداً بما يكفى لأقتنع بنظريات المؤامرة، أو ربما لعدم الاقتناع بها، لكن كان هناك شيء واحد حقيقى، وهو أن هذا سيلهم الناس المطالبة بفتح الملفات.

وبالرغم من الجدل المحيط بنظريات المؤامرة فى الفيلم،، كان فيلم جيه إف كيه من بطولة كيفين كوستنر، ناجحاً تجارياً ونقدياً. أنتجه ميلتشان بـ٥٢ مليون دولار وجنى أكثر من ٢٠٠ مليون دولار من شباك التذاكر. وتم ترشيح الفيلم لثمانى جوائز أوسكار والعديد من التكريمات الأخرى، وارتقى بسمعة ميلتشان كرجل ذى حدس قوى للأعمال الناجحة.

واستمر ميلتشان فى صداقته مع أوليفر ستون المثير للجدل، وأنتج فيلمين آخرين معه، "هڤين آند إيرث" أو السماء والأرض عام ١٩٩٣ و"ناتشورال بورن كيلرز" أو قتله بالفطرة عام ١٩٩٤ . وعمل ستون على استمرار العلاقة بشخصية سياسية أخرى مثيرة للجدل وهو نيكسون، لكن ميلتشان اعترض. وأدى هذا لأحد أكثر النزاعات فى هوليوود شهرة، وكما يفسرها ميلتشان:

فى البداية أراد أوليفر إنتاج الفيلم بـ١٨ مليون دولار ليلعب دور البطولة توم هانكس، ووافقنا على هذا. ثم غير أوليفر رأيه وأراد أن يقوم بالبطولة تومى لى جونز، وكان أكثر تكلفة. ثم أراد داستن هوفمان، ثم أراد وارين بيتى، واستمرت ميزانية الفيلم فى التزايد. ثم فى عيد الميلاد المجيد غير رأيه مجدداً. أراد أن يلعب دور البطولة روبين ويليامز، روبين ويليامز يلعب دور نيكسون؟! بدأت أفقد

أعصابي. ثم اختار أنطوني هوبكنز. واستمرت الميزانية في التزايد، أكثر فأكثر. في النهاية رفضت ذلك أنا وترى سيميل. واستاء ترى للغاية، وانتهى بنا الحال أن وصلت الميزانية إلى ٦٥ مليون دولار، فانفصلنا.

ولم يتقبل أوليفر ستون هذا بصدر رحب. وكان لديه عقد لفيلم آخر مع ميلتشان. ولفترة وجيزة فكر في تنفيذ فيلم فاضح من سيناريو كانوا يتناقلونه في هوليوود كمزحة أكثر من أي شيء آخر. وكان اسمه المبدئي "عوزي فلافل"، ويحكي قصة تاجر سلاح إسرائيلي بغيض جني أموالاً طائلة وكان يغسلها في مهنة جديدة وهي إنتاج الأفلام.

لم يجد ميلتشان الأمر مسلياً. ووجد أوليفر ستون الذي كان يشعر بالمرارة فرصاً أخرى يهاجم بها صديقه السابق. حيث قال في حوار صحفي: حذرني مسئول كبير في هوليوود ذات مرة بالابتعاد عن ميلتشان. وأخبرني أن ميلتشان كان تاجر سجاد من الشرق الأوسط، وكان من الواجب عليّ الاستماع له، فقد كان محقاً. إن أرنون في غاية البخل. وهو مريض بالمال، ولديه هوس مرضي من فقدانه. تعلمت درساً قاسياً للغاية، وكلفني الكثير من أموالي الشخصية. لا أريد الدخول في خلاف شخصي قذر، لكن أرنون يمكن أن يكون شريراً للغاية.

ملحوظة من المترجم: المخرج القدير أوليفر ستون لمن لا يعرف يهودي الديانة، أي لا يمكن حمل رأيه هذا على أنه معاد للسامية بأية حال، وشيء آخر، علينا ألا ننسى نزاعه الأول مع المنتج اليهودي المخضرم سيدني شاينبيرغ والذي كان رأيه في ميلتشان مماثلاً لرأي ستون.

واستجاب ميلتشان بالشكل التقليدي قائلاً أوليفر يروقني، أنا متيم به، حقاً!. ولا يزال ميلتشان يدعو ستون للعديد من المناسبات التي تقام في منزله. التي،

يحضرها ستون أحياناً. وهكذا الحال في هوليوود، التقلب ما بين الحب والكراهية.

وبينما كانت أسى ثاستروم عشيقة ميلتشان تقيم في قصره في فرنسا، اتجه أرنون لحب جديد في الناحية الأخرى من العالم، أي مساعدته الشخصية الجديدة شونا بيل، والتي انتقلت من شركة تريستار بيكتشرز للانضمام إلى ميلتشان في شركته نيو ريجينسي. وتبع ذلك حياة مزدوجة أخرى، بالرغم من أنها في تلك المرة لم تشمل شهادة زواج.

لم يقنع ميلتشان بإنتاج الأفلام فقط وعمل بدأب لتوسيع إمبراطوريته. واشترى شركة تسجيلات ريستليس ريكوردز، وبدأ في توزيع الأغاني عبر ذلك المنفذ، مدعوماً بأكبر شركة توزيع موسيقى في العالم آنذاك بي إم جي. ولم يُخف طموحاته في الانضمام في النهاية للاستوديوهات الستة الكبرى كندٍ لها حيث قال: "لم أحب يوماً كلمة صغير، إما أن تكون فاعلاً أو لا تكون".

طبّق ذلك المبدأ في اللهو كما في العمل. إذ استحدث ميلتشان تقليداً خاصاً بالإجازات الشتوية اشترك فيه أبرز المواهب في هوليوود، مثل كريستوفر لامبرت وجون بيشي وروبرت دي نيرو، وكانوا يبحرون في يخت إلى نيكر، وهي جزيرة حصرية صغيرة يمتلكها السير ريتشارد برانسون في جزر فيرجين الإنجليزية، حيث كانوا يستجمون بدون أن يقلقوا بشأن المصورين المرتزقة.

وبينما كان ميلتشان ينظم تلك الرحلات، كانت شركة نيو ريجينسي تعمل بكفاءة بطاقم عمل صغير نسبياً عدده حوالي ٣٠ موظفاً، من المبنيين الصغيرين المتصلين في استوديو وورنر برادرس في بربانك. كان ميلتشان سعيداً بالعمل في مكتب صغير. وحدها اللوحة الفنية الغالية على الحائط هي التي كانت تشير لمكانة الشركة، بالإضافة لذوقه المكلف.

وعلى عكس مكاتبها الجديدة المتواضعة، فقد تعاملت شركة نيو ريجينسى مع أفضل مواهب هوليوود وأبرزها فى المجال السينمائى، ومضت تنتج الفيلم تلو الآخر فى تعاقب سريع، وأحياناً بشكل متزامن، بداية بفيلم الإثارة "كيو آند إيه"، من بطولة نيك نولتى وتيموثى هاتون ومن إخراج سيدنى لوميت، وسرعان ما قدمت مجموعة انتقائية من فئات أفلام الاستوديو داخل الاستوديو، مثل الفيلم الدرامى عن حقبة مكارثى "غيلتى باى ساسبيشن" أو مذنب بالاشتباه، من بطولة روبرت دى نيرو وأنيت بينينغ فى عام ١٩٩٢، والفيلم الرومانسى الكوميدى "ميموارز أوف آن إنفزيابل مان" أو مذكرات رجل غير مرئى من بطولة تشيفى تشيس وداريل هانا، وفيلم الأكشن "أندر سيج ٢" أو تحت الحصار الجزء الثانى.

ومن بين العديد من المشاريع الأخرى، اشترت شركة نيو ريجينسى حقوق ملكية روايات جون غريشام الأعلى مبيعاً، وأنتجت فيلم "ذا كلاينت" أو العميل، و"أتايم تو كيل" أو وقت للقتل فى ١٩٩٦ . وركز ميلتشان أيضاً على الأفلام العائلية مثل سلسلة أفلام "فرى ويلى" أو ويلى الحر، وأفلام الرسائل مثل "ست درجات من الانفصال"، وأفلام الرعب مثل المُقلّد، وأفلام التسلية للمراهقين مثل كاربول من بطولة توم أرنولد.

ولمجاراة الطلب المستمر، وفى وجود العديد من المشاريع فى طور الإنتاج، أُجبِر ميلتشان أحياناً على التنازل ويقول فى هذا: هناك بعض الأفلام – ولا أريد الحط من شأن شركتى – لكن أحياناً كنت أقول، يا رفاق! هذا غباء فادح! وكانوا يجيبون، أرنون! يوجد جمهور عريض لهذا. وكنت أقول حسناً، فلنفتتح قسماً للغباء وننتج تلك الأفلام الغبية... وأرجوكم! لا تخبرونى بقصتها، لذا أنتجنا العديد من الأفلام الساخرة التافهة مثل فيلم "إيبيك موفى" أو الفيلم الملحمى و"ديت موفى" أو فيلم الموعد الغرامى، و"ميت ذا سبارتانز" أو تعرف على "الإسبرطيين". وعلى الرغم

من أنها كانت مربحة، لكن ميلتشان ليس فخوراً بها.

بيّن روبرت دى نيرو الذى لعب دور البطولة فى خمسة من أفلام ميلتشان، منها هيت أو الخطر عام ١٩٩٥، السبب فى أن العديد من المواهب البارزة ترغب فى العمل مع ميلتشان قائلاً "مقارنة ببعض المنتجين، الذين لا يمتلكون شيئاً سوى البذلات الغالية، فإن أرنون رجل أصيل. وعانى فى حياته، ولديه ذوق جيد، ويعمل بكد وهو ملتزم للغاية، وقد أبعد نفسه عن أولئك المنتجين الآخرين".

وبمرور الوقت، صنع ميلتشان فلسفته وتركيبته الخاصة للنجاح فى مجال صناعة الأفلام، وهى وجهة نظر أكثر تعقيداً من نظرته فى سنواته الأولى عندما كان يعمل وفقاً لما تمليه عليه غريزته وعاطفته. يقول ميلتشان "دعونى أشبه الأمر بشخص يشيد بناية، المنتج هو خبير العقارات الذى يبحث باستمرار عن موقع جيد. وفى حالتنا، أفضل موقع هو السيناريو. فالسيناريو بالنسبة للفيلم كما الموقع الجيد بالنسبة للعقار. الموقع ثم الموقع فالموقع".

فى الواقع، كتاب السيناريو الذين يعملون مع ميلتشان يقولون إنه كثير المطالب للغاية.

يقول ميلتشان فى مقابلة صحفية معه فى مجلة سيغار أفيسينادو فى أكتوبر ٢٠٠٨:

"إن لم يكن لدى قصة رائعة لأرويها، فلم عساى أختار طاقماً رائعاً من الممثلين ليروى قصة غبية؟! فالنص الرائع يمكن أن يرويه عدد قليل من الممثلين، وهناك أكثر من طاقم من الممثلين الذين يمكنهم رواية قصة رائعة.

ومن ناحية الأهمية، بعد السيناريو يأتى المخرج. يُشبِّه أرنون المخرج بمهندس

معماري في مشروع عقاري:

"إن أردت التحكم فيه، فلن تحصل على أفضل مُنتَج. عليك أن تكون قادراً على أن تقول: حسناً! لنتفق على هذا مقدماً، إليك بالمفاتيح، ولتقم أنت بتنفيذ رؤيتنا المشتركة. وغالباً ما يكون لدينا فكرة عن نجم أو ممثل يلعب دور البطولة، أو ربما يكون لدينا قائمة من ٣ أسماء، إذن يمكن أن يكون الممثل كيفين كوستنر أو براد بيت أو دانى ديفيتو. ثم نتحدث بشأن النجمات اللاتى تتوافق معهن جنيفر أنيستون أم كاميرون دياز أو أياً من كانت. ونتناقش كثيراً بشأن التركيبة والتوافق".

ولنأخذ مثلاً فيلم سامرزبى، الذى أنتجه ميلتشان عام ١٩٩٣، الفيلم درامى رومانسي مقبتس من سيناريو لرواية فرنسية اسمها لو ريتور دو مارتن غور أو عودة مارتن غور، يروى قصة امرأة شابة متزوجة فى المنطقة الجنوبية بعد الحرب الأهلية تستطيع بالكاد الحفاظ على مرزعتها بدون زوجها، الذى فقدته فى الحرب الأهلية. وفجأة، يعود زوجها بعد ٧ أعوام من الغياب، رجلاً متغيراً تماماً وللأفضل. وبمرور الوقت، تراودها الشكوك هى والآخرون فى أنه ليس زوجها الحقيقى لكنه نصاب.

أراد ميلتشان أن يقوم ريتشارد جير بدور الزوج العائد، واقترح آخرون جوليا روبرتس فى دور الزوجة، كتكرار لفريق عمل فيلم "بريتى وومان". أصر ميلتشان على جودى فوستر بدلاً منها. وقال إنه إن حدث وترك رجل شخصية مثل جوليا روبرتس، فمن المؤكد أنها ستكون قد عثرت على رجل آخر أثناء السنوات السبع. أما شخصية فوستر، فتشع مبادئ الإخلاص. وستظل وفية، وعندما يعود زوجها لطيفاً ووسيماً، ستأخذ القرار بالعيش معه، بالرغم من أنها فى قرارة قلبها تشك فى أنها كذبة. وحصلت فوستر على الدور.

وبعد اختيار السيناريو والمخرج وطاقم العمل، يقرر ميلتشان بعد ذلك الميزانية. وتقوم تركيبته على تقسيم الجمهور المستهدف إلى أربع فئات: الذكور أكبر أو أصغر من ٢٥ عاماً، والإناث أكبر أو أصغر من ٢٥ عاماً. إذا كان الفيلم فيلم إثارة كوميدياً مثل مستر أند مسيز سميث، وهو فيلم يصلح للذكور والإناث فوق ٢٥ عاماً، ووافق على الاشتراك فيه نجوم كبار مثل براد بيت وأنجلينا جولى، فسيزيد ميلتشان ميزانيته حتى تصل إلى ١١٠ مليون دولار. وإن كان الفيلم من نوعية الدراما الثقيلة مثل فيلم "بى سيزون" أو موسم النحل، وهو فيلم أنتج أيضاً عام ٢٠٠٥، وجمهوره المستهدف من الإناث فقط فوق ٢٥ عاماً، فلن يستثمر فيه ميلتشان أكثر من ١٤ مليون دولار، حتى وإن كان من بطولة ريتشارد جير وجولييت بينوش.

وبعد الاستقرار على كل تلك العناصر -من السيناريو إلى المخرج إلى طاقم الممثلين إلى الميزانية-، يعين ميلتشان المنتج التنفيذى. وبمصطلحات العقارات فالمنتج التنفيذى هو المقاول العام. وككثير من متعهدى العقارات، يعرض ميلتشان على منتجه التنفيذى أجراً أساسياً، بالإضافة إلى نسبة ربح وعلاوة إضافية إن انتهى من إنتاج الفيلم بأقل من الميزانية المحددة. وإن كان الفيلم مربحاً، يتلقى المزيد من العلاوات، وكثير من محفزات الأداء يتم وضعها فى العقد.

عندما انضمت شركة نيو ريجينسى لشركات النخبة فى هوليوود، بدأت تتلقى فيضاً منتظماً من النصوص من دون أن تطلبها، والتى شكلت فى النهاية عدداً لا حصر له. من قبل، كان ميلتشان يبحث باستمرار وحذر عن القصة الرائعة، والآن غدت السيناريوهات تتدفق على مكتبه بمعدل يتجاوز ٢٥٠٠ سيناريو فى العام الواحد. وتحت تلك الظروف، غدا فريق العمل المتكامل ضرورياً لتصفية تلك المواد، ومن آلاف السيناريوهات التى كانت ترد على المكتب، كان ينتج منها ٨ أو ١٠

سيناريوهات على أكثر تقدير.

وإحصائياً، كان يأمل أن ينجح منها فيلمان أو ٣ لتدعم الشركة مادياً. وإن حالفه الحظ لن تحقق ثلاثة أو أربعة أفلام ربحاً، أو ستحقق ربحاً قليلاً، وسيخسر فيلمان على الأرجح، وسيكون فيلمان كارثة محققة. إنه مجال فظيع هكذا يقول ميلتشان.

ومن المشاكل التى يقابلها اللاعب الرئيسى الذى تغمره المواد الفيلمية، أنه أحياناً، يدرك متأخراً، ولمرة واحدة فى حياته، أنه تجاهل فيلماً كان سيحقق نجاحاً ساحقاً. كان ميلتشان المنتج الأول الذى عرضت عليه الحقوق الحصرية لأول كتاب عن هارى بوتر، ولكل السلسلة التالية من الكتب التى لم تكتب بعد. عرضت عليه تلك الحقوق بمبلغ شديد الزهد لدرجة السخافة وهو ٣٥ ألف دولار. لكنه وجد صعوبة فى التواصل مع القصة ورفضها، معتقداً أنها لن تنجح على الأرجح.

وبعد النجاح الواسع الذى حققه فيلم هارى بوتر الأول، قال ميلتشان إنه لا يعرف ماذا يفعل أولاً، يتقيأ أم ينتحر!

ولم تكن تلك المرة الأخيرة، إذ كان ميلتشان يمتلك حصة ٥٠٪ من السلسلة التى تحولت إلى رسوم متحركة بلغ ربحها المليار دولار وهى سلسلة أفلام آيس إيدج أو العصر الجليدى. عندما تجاوزت ميزانية آيس إيدج الـ٥٧ مليون دولار بقليل لتصبح ٦١ مليون دولار، تراجع عنها، ورفض أن يصدق أن فيلم رسوم متحركة لن يحقق خسائر.

ومن ناحية أخرى، إن آمن ميلتشان بشىء حقاً، نجده قادراً على إنتاجه مرتين إن لم يخرج الإنتاج الأول بالشكل المتوقع. كان هذا الحال مع فيلم "مان أون فاير" أو رجل يحترق من بطولة سكون غلين، والذى أنتجه عام ١٩٨٧ . آمن ميلتشان

بالسيناريو بشدة لكن الفيلم حقق خيبة أمل كبيرة فى شباك التذاكر. وفى ٢٠٠٤، قرر إعادة محاولة إنتاجه، وغيّر موقع التصوير، وتخلى عن أسلوب أفلام الجريمة، واختار دينزل واشنطن في دور البطولة لعميل استخباراتى سابق وقاتل محترف تحول إلى حارس شخصى ينتقم من عصابة مكسيكية اختطفت الطفلة التى تم تعيينه لحمايتها فى مكسيكو سيتى.

قبل ذلك بسبعة عشر عاماً، خسر مبلغاً هائلاً بسبب الفيلم، لكن ميلتشان ضاعف الميزانية واستثمر ٧٠ مليون دولار أخرى فى الإنتاج الثانى للفيلم، ولذا حقق أكثر من ١٣٠ مليون دولار، وهو ربح أكثر من كاف لتغطية الخسائر السابقة فى كارثة عام ١٩٨٧ .

تتجلى حقيقة أن المبدأ مهم بالنسبة لميلتشان أيضاً فى واقعة أخرى حيث كان مستعداً أن يتقبل خسارة ١٧ مليون دولار على أن يستسلم لشىء شعر أنه غير عادل. فى ١٩٩٣، فى عشية العرض الأول لفيلم "ذا ناتكراكر" أو كسارة الجوز، من بطولة ماكولاى كالكين، والذى كان فى الحادية عشرة من عمره آنذاك، قدم والده، وهو رجل معروف عنه الجشع وكان مدير أعمال ابنه، قدم لميلتشان قائمة طويلة من المطالب تتضمن تغييرات جذرية فى الطبعة النهائية من الفيلم. وكانت مطالبه مصحوبة بتهديدات مفادها أنه فى حال لم يحقق ميلتشان المطالب، فسيمنع ابنه للترويج للفيلم.

ذهل ميلتشان من ذلك التجرؤ، لكنه ابتلع كبرياءه وجاراه. ثم مضى الوالد يصدر المزيد من الإنذارات. فى تلك المرحلة أخبره ميلتشان أن يذهب للجحيم. منع كالكين الأب ولده من الترويج للفيلم حتى بعد تقاضيه أجره الذى بلغ ٨ مليون دولار. وخسر ميلتشان ١٨ مليون دولار، لكنها كانت كارثة بالنسبة لكالكين

وسمعته، بالرغم من أن ذلك لم يكن خطأه.

بالرغم من أن ميلتشان يبدو كمتخذ قرارات صعب المراس يُعنى بكل تفصيلات شركة نيو ريجينسي، نجده يقضى معظم وقته بعيداً عن هوليوود حيث يتنقل باستمرار بين قواعد عملياته حول العالم. سمعته تلك هى نتاج اتصالاته المكثفة من مواقعه البعيدة بمديريه فى بيربانك. وليس غريباً عليه أن يتصل ١٠ مرات يومياً ليطلعوه على المستجدات وليعطى توجيهاته فى كل ساعات اليوم تقريباً، بما فيها العطلات الأسبوعية والإجازات.

يمتلك ميلتشان ٧ منازل فى ٧ بلاد، ولم يكن لديه سكن دائم فى أى مكان، إلى أن استغل العرض المقدم من الحكومة الإسرائيلية بالإقامة بشكل رسمى فى إسرائيل بدون دفع ضرائب على الدخل الذى يحققه خارج البلاد للعشر سنوات التالية.

ومع الأخذ فى الاعتبار حياة ميلتشان المرفهة، فلم يكن ظهوره فى نهائى دورة أستراليا المفتوحة للتنس أمراً مفاجئاً. وهناك التقى ميلتشان أسطون الإعلام والمقامر العالمى الشهير كيرى باكر، أغنى رجل فى أستراليا، بينما كان يستعد للمغادرة بطائرة مروحية بعد المباراة، اقترب باكر وهو رجل جرىء وشديد الطموح، من ميلتشان بدون سابق معرفة، وقال له أنا وأنت سنصير شريكين.

فضحك ميلتشان وقال "هل أنت متأكد؟ لأننى ليس لدى أية أسهم لأبيعها".

فقال باكر "سترى".

وفى الأيام المقبلة، أرسل باكر جيشاً من المحامين والمحاسبين إلى مكتب ميلتشان فى بيربانك وحرروا له شيكات فارغة لكن بلا جدوى. فى النهاية، وخلال

بضعة أسابيع، تمكن باكر من شراء ٢٥٪ من شركة نيو ريجينسى من شركاء ميلتشان الآخرين وعبر إصدار أسهم إضافية للشركة. إذ رأى باكر فى ميلتشان تذكرته إلى هوليوود، ووسيلته لمنافسة غريمه اللدود روبرت مردوخ، فى مجال صناعة الأفلام.

وفى الواقع استرعت شراكة باكر وميلتشان انتباه مردوخ وأدى هذا لمناورات شائقة فى مجال البيزنس.

ونظراً لإسهاماته ذائعة الصيت فى مجال صناعة الأفلام، فربما يتكون انطباع خاطئ لدى الناس أن شركة نيو ريجينسى كانت نشاط ميلتشان الوحيد.

فى عام ١٩٩٦، حاول ميلتشان شراء استوديوهات إم جى إم، أحد أكبر ٦ أستوديهات للأفلام فى هوليوود، لكن تفوق عليه فى المزايدة الملياردير كيرك كيركوريان، الذى نجح فى شرائها بعرض قيمته ٣ر١ مليار دولار. عبّر ميلتشان عن موقفه حيال ذلك بالقول أحياناً تكسب الأشياء بخسارتها. وفى ذات الوقت الذى فشل فيه فى شراء إم جى إم، أنهى ميلتشان فيلمه الأربعين مع شركة وورنر برادرس، مكملاً شروط العقد المبدئى بينهما. وكشرط لمد الاتفاق، طالب ميلتشان وورنر برادرس بزيادة استثمارها فى شركة نيو ريجينسى وتوقيع عقد مداه أطول. فرفض الاستوديو، وحذر تيرى سيميل صديقه ميلتشان من أنه إن لم يوقع العقد بشروط وورنر برادرس، فسيحرص شخصياً على ألا يعمل ميلتشان فى تلك المدينة مجدداً. ولم يتقبل ميلتشان إملاءات سيميل بصدر رحب، وفى عام ١٩٩٧ اتخذ الخطوة الكبيرة الثانية فى مسيرته عندما تسوق لشراء مقر جديد لشركة نيو ريجينسى. وأخبر سيميل قائلاً إنه سيغادر المدينة على أية حال.

اتصل ميلتشان أولاً بإدغار برونفمان الإبن فى شركة يونيفرسال، لكن، لم

يعاود برونفمان الاتصال به كما كان سيميل قد أخبره. وكانت المحطة التالية هى شركة باراماونت، حيث قدم سامر رديستون -صديقه المقرب- عرضاً يمكنه رفضه إن أراد، حيث كان أقل بكثير من عرض شركة وورنر براذرس. وبدأ يتخوف، لكنه كان لديه ورقة لعب أخرى ليستخدمها.

لن ينسى ميلتشان عشاءه الأول مع الشخص الذى أصبح من أقرب أصدقائه وشريكه أى روبرت مردوخ، مالك شركة نيوز كوربوريشن، الشركة الأم لشركة توينتييث سينشرى فوكس. وعُقِد اجتماعهما فى مطعم سباغو فى بيفرلى هيلز، وفى هذا يقول ميلتشان "كنت أحمل حقيبة بها حذاء ماركة پوما وسلع دعائية خاصة بفيلم فرى ويلى، وكنت متحمساً لدرجة أن كان أول ما فعلته هو أن سكبت زجاجة كوكا كولا عليه".

كان العشاء غير مريح، ولم يفهما بعضهما بشكل كامل بسبب سوء الترجمة والتفت مردوخ إلى مدير أعماله بيتر شيرنين، والذى كان حاضراً العشاء أيضاً وقال:

- لا أفهم نصف الأشياء التى يقولها، لكنه يروقنى.

وفوجئ ميلتشان بشخصية مردوخ الرقيقة، والتى كانت على النقيض تماماً من صورته كأحد أباطرة الإعلام الأقوياء. لكن ميلتشان فهم فى الحال أنه بقدر ما هو حلو الحديث، فقد كان شخصاً لا يُستهان به.

وسرعان ما تشكلت الصفقة مع مردوخ، لكن كان ثمة عقبة أخرى قبيحة لم تكن قد ظهرت بعد. كان كيرى باكر هو شريك ميلتشان فى نيو ريجينسى، وكان باكر ومرودخ غريمين لدودين فى عالم الأعمال الأسترالى. وكانت كراهيتهما لأحدهما الآخر أسطورية، وتعود لأيامهما الأولى كمنافسين فى سوق الإعلام

الأسترالى. بالإضافة إلى ذلك، كان دافع باكر الأساسى فى الشراكة مع ميلتشان ذا علاقة كبيرة بطموحه لمنافسة عمليات مردوخ القائمة فى هوليوود.

وعندما تقابل ميلتشان ومردوخ لإتمام الصفقة، أمطره مردوخ بالأسئلة السريعة:

– هل خاطرت بأموالك قط؟

– ماذا تعنى؟ شركة نيو ريجينسى تدين لى بخمسين مليون دولار.

– إن ساهمتُ ببضع مئات الملايين من الدولارات فى شركتك، أتنوى أن تدفع لنفسك من أموالى؟

أجاب ميلتشان بصدق "أجل".

ثم اقترح مردوخ على ميلتشان أن يعيد استثمار أمواله بذات الشروط التى عرضها عليه،

فوافق ميلتشان فى الحال.

عندئذ، أصبح مرودخ أكثر استرخاءً وسأله.

– هل صحتك جيدة؟

فأجاب ميلتشان أجل.

– هل ستدير الشركة؟

– ولِمَ لا؟

– أتدخر بعض المال جانباً؟

- لِم؟. سأله ميلتشان.

- لا أحب العمل مع الأشخاص الطائشين.

- أجل، أدخر بعض المال.

- حسناً، الآن لنتحدث بشأن شيء صغير يقلقني. كيف ستتعامل مع كيرى؟

- دعنى أحاول إقناعه.

- أين يمكنك أن تجده بظنك؟

- ربما فى أحد الكازينوهات فى مكان ما.

ثم بدأ ميلتشان يجرى اتصالات من مكتب مردوخ إلى أماكن مألوفة ظن أنه يمكنه العثور على باكر فيها. فى النهاية، تمكن من الوصول إليه فى أسبينالز كازينو فى لندن وطلب استدعاءه إلى الهاتف.

- كيرى، أنا جالس هنا مع روبرت مردوخ ونحن على وشك عقد اتفاق يمكنه أن يغير حياتى العملية، وأحتاج للموافقة عليه.

- مستحيل!

- كيرى! هذه حياتى.

- وهذه حياتى أيضاً.

- بربك يا كيرى! تلك ليست حياتك.

كان مردوخ يجلس فى الطرف الآخر من المائدة، مستمتعاً بالحوار المتبادل بينهما وبمشاهدة مراوغة ميلتشان. ولم يكن يستطيع سماع باكر على الناحية

الأخرى من الهاتف.

صاح ميلتشان بسخرية فى الهاتف، قائلاً "رائع! أنا سعيد لأنك تحبه، وهو أيضاً يحبك.

مضى مردوخ يُقلِّب ناظريه. وقال كيرى:

– لم لا تحيى روبرت نيابة عنى؟

عندئذ مد ميلتشان يده عبر المائدة ووضع السماعة فى يد مردوخ المذهول، فارتبك مردوخ ولم يكن لديه بديل آخر سوى الحديث مع غريمه القديم.

وأنصت ميلتشان متوتراً بينما كان مردوخ يغمغم على الهاتف.

– مرحباً... أجل، هذا الرجل الإسرائيلى، أجل... يستحسن أن نتحد ضده!

وارتسمت الابتسامة ببطء على وجه مردوخ.

وفجأة خطر لميلتشان أن شركة نيو ريجينسى كانت الوسيلة التى أحلت السلام بين اثنين من أشرس الغرماء فى التاريخ.

وخلال لحظات، وضع مردوخ سماعة الهاتف والتفت لميلتشان وقال "أنت صانع معجزات".

ثم طلب ميلتشان صنيعاً من مردوخ. لم يُرِد أن يُتم الصفقة بدون مباركة صديقه جرالد ليفين، رئيس مجلس إدارة شركة تايم وورنر. وافق مردوخ على الاتصال به وغادر ميلتشان الغرفة ليتيح له الخصوصية. وعندما عاد أخبره مردوخ بوجود احتمالين:

– إما أنه لا يطيق صبراً حتى يتخلص منك، أو أنك تروقه حقاً.

- لِم؟

- لأنه قال إنك تحتاج جناحين لتحلق بهما، ومعى ستُحلق أعلى. وبعد توقف وجيز، أشار إلى أن الاتفاق سيمضى قدماً بإيماءة من رأسه.

- روبرت! لقد أعطيتنى للتو بضعة ملايين من الدولارات، لِم؟

- أنا لا أحلل الماضى، بل أحلل المستقبل.

- كيف تتخذ مثل تلك القرارات؟

- الأمر فى غاية البساطة، أنظر خلفك ولا أرى أى جثث! إننى أعرِفُ شريكك وهو يبدو سعيداً بالشراكة. وبالمناسبة، لم أعطك بنساً واحداً.

- ماذا تعنى؟

- لقد وضعت المال فى شركتنا.

- ساعدنى! لست واثقاً أننى أفهمك.

- حسناً، دعنا نفترض أنك تلعب باكاراه، وأنت مقامر رائع لكنك ليس لديك فيشات كافية. لذا آتى أنا وأقول يبدو أن هذا الرجل يعرف ما يفعله وأعطيك حفنة من الفيشات. وما أن أغادر الكازينو، تهرع إلى أمين الخزينة وتطلب صرف تلك الفيشات. لكن أمين الخزينة سيسألك هل أنت السيد ميلتشان؟ لدى هنا رسالة من السيد مردوخ، مكتوب فيها أنك لا يمكنك صرف الفيشات لمدة خمسة عشر عاماً أخرى. لذا تبحث عن مائدة وتضع عليها الفيشات وتنتظر. ثم يأتى رجل يرتدى حلة وربطة عنق ويسأل هل أنت السيد ميلتشان؟ لدينا رسالة من السيد مردوخ مكتوب فيها أنك لا يمكنك الانتظار هكذا، والمفروض أن تلعب الباكاراه كل خمس دقائق.

هكذا الأمر. وأيما يتبقى بعد لعب خمسة عشر عاماً يصبح ملكاً لك.

ظلت ٥٥٪ من شركة نيو ريجينسي في أيدى ميلتشان. واحتفظ كيرى باكر بحصة الـ٢٥٪ الخاصة به،واشترى مردوخ ٢٠٪ مقابل ٢٠٠ مليون دولار. وحصل ميلتشان على قروض ائتمانية بقيمة ٦٠٠ مليون دولار من مجموعة بنوك منها تشيس مانهاتن وبانك أوف أمريكا وبانك ناشونال دو بارى، وبنوك أخرى.

كان جزء من الاتفاق بين فوكس ونيو ريجينسي ينص على تأسيس قسم تليفزيونى جديد. أتى ميلتشان بصديق مقرب إليه، الشخصية الإسرائيلية التليفزيونية الطموحة يائير لابيد، ليترأس القسم الجديد. وكان أول مشروع ينتج عنه هو مسلسل "مالكوم إن ذا ميدل" أو مالكوم فى المنتصف، وهو مسلسل أطفال كوميدى لقى نجاحاً واسعاً.

من آخر الأفلام وأهمها التى أنتجها ميلتشان مع شركة وورنر براذرس قبل تأسيس الشراكة الجديدة مع مردوخ وشركة توينتييث سينشرى فوكس، كان فيلم "إل إيه كونفدنشيال" أو سرى من لوس أنجلوس. تتضمن قصة الفيلم ٣ محققين شرطة فى لوس أنجلوس ذوى شخصيات ودوافع متباينة، ويكونون تحالف اتحاد مصالح لتطهير القسم من الفساد المنظم. طلب المخرج كيرتس هانسون، إرسال الفيلم إلى ميلتشان مباشرة، قبل أن يقرأه. انبهر ميلتشان بجرأته ووافق. وعندما تقابلا، أصر هانسون على أن يشاهد ميلتشان لقطات قديمة من الخمسينيات وذلك كى يضعه فى الحالة المزاجية المناسبة. فجاراه ميلتشان. وعرض هانسون بعد ذلك الفيلم بطريقة درامية ذكرت ميلتشان باجتماعه الأول بتيرى غيليام فى باريس عندما وصف له غيليام فيلم برازيل. حيث علق ميلتشان قائلاً "أقنعتنى لغة الجسدية أنه يتكلم لغة سينمائية مختلفة".

١٩

بعدما وافق ميلتشان على السيناريو، كان لدى هانسون طلب آخر غير تقليدى. أراد ضماناً بأن يتم اختيار ممثلين أستراليين مغمورين للعب دورين كان يفكر فيهما. كان الممثلان هما راسل كرو وغاى بيرس. فى البداية اعترض ميلتشان لكنه لان لاحقاً. بعدما قابل راسل كرو تبددت كل شكوكه. الشيء الآخر الذى كان يقلقه هو ما إن كانت كيم باسينغر ستوافق على أداء دور العاهرة. ولم يكن لديه ما يقلق بشأنه، لأنه ما أن قرأت باسينغر السيناريو، حتى عاودت الاتصال بميلتشان فى الحال وقالت بحماس "هذا الدور كتب لأجلى"، وفازت باسينغر بجائزة الأوسكار لأفضل ممثلة مساعدة، وهى واحدة من ٧١ جائزة فاز بها الفيلم.

أنتجت تلك الشراكة بين ميلتشان ومردوخ فيضاً من أكثر من ٥٥ فيلماً طويلاً، منها نادى القتال، والشيطان الجرىء ومستر أند مسيز سميث، نايت أند داى. كانت تلك أفضل صفقة أبرمها مردوخ منذ أن وصل إلى هوليوود، محققاً أكثر من ٥,٣ مليار دولار من مبيعات شباك التذاكر بحلول نهاية ٢٠١٠ .

٢٠

مدينة الملائكة

عندما سمعت أن براد ترك المنزل ويبحث عن فندق، عرضت عليه الإقامة فى منزلى فى ماليبو.

أرنون ميلتشان

تبنى ميلتشان نموذجاً فى العمل يروج للأفلام والرياضة معاً. وبدلاً من أن يشترى فريقاً رياضياً، كما فعل صديقه روبرت مردوخ مع فريق لوس أنجلوس دودجرز، أو يقضى ٢٠ عاماً فى بناء شركته الرياضية الخاصة، وجد ميلتشان طريقاً مختصراً، وهو شراء شركة للملابس الرياضية.

وكان أول هدف له هو شركة أديداس، والتى حاول شراءها بالشراكة مع صديقه الممثل ريتشارد دريفوس، لكنه لم يفلح فى ذلك. وكانت خطته البديلة هى السيطرة على شركة الملابس الرياضية الألمانية الراكدة "بوما"، وهى صفقة استثمر فيها مبدئياً ٢٥٠ مليون دولار، وفى ذات الوقت استهدف شراء حقوق البث لاتحاد التنس النسائى المتعثر "دبليو تى إيه".

وكانت الفكرة هى استغلال نجوم هوليوود للترويج لاتحاد التنس النسائى، ولاستغلال الاتحاد وأفلامه للترويج لشركة بوما. وخلال فترة وجيزة، بدأ شعار بوما يظهر بشكل أكبر على ملابس كيانات رياضية رائدة حول العالم، بدءاً من فريق إف سى برشلونة إلى المنتخب الإسرائيلى لكرة القدم. وفى عام ٢٠٠٠، كان كلا الفريقين المنافسين فى نهائى دورى كرة القدم الأمريكية، فريق سانت لويس رامز وفريق تينيسى تايتانز، يرتديان شعار بوما المملوكة لميلتشان.

وفى ٢٠٠١، وصل ميلتشان لحضور بطولة فرنسا المفتوحة فى طائرة خاصة يصحبه أرنولد شوارزنيغر والعارضة الشهيرة ناعومى كامبل. ووصل لدورة ويمبلدون مع شون كونرى وكيفين سبيسى. كان قد استأجر فى وقت سابق من ذاك العام، فى مهرجان كان السينمائى، يختاً طوله ٣٠٠ قدم وأقام حفلاً مختلطاً بين نجمات اتحاد التنس النسائى ونخبة هوليوود وفى ذلك قال:

"إذا كنت أدفع لأحد النجوم ١٨ مليون دولار ليظهر فى أحد أفلامى، لا أظننى أُثقِل عليه إذا طلبت منه حضور بضع مباريات لاتحاد التنس النسائى".

ومن خلال علاقاته مع مردوخ، استطاع ميلتشان تأمين عقود بث حول العالم لاتحاد التنس النسائى. وأحدثت إدارته لاتحاد التنس النسائى تغييراً

جذرياً فى التنس النسائى وارتقت به بشكل مذهل. دُعيت نجمات شابات مثل مارتينا هينغز وأنا كورنيكوفا والشقيقتين ويليامز للظهور على أغلفة مجلات حول العالم، كرموز الجنس الجديدة لتلك الحقبة. وكانت نتيجة ذلك أن نجمات اتحاد التنس النسائى كن يتفوقن غالباً على أقرانهن الذكور فى سباق معدلات المشاهدة التليفزيونية العالمية.

كان ميلتشان يتواصل مع التنس النسائى بنفس الطريقة التى كان يتواصل بها مع إنتاج الأفلام، حيث كان تركيزه على السيناريو وطاقم الشخصيات. وكانت اللاعبات المتألقات ترتدين أرقى تصميمات الأزياء، يشع منها مستوى معين من الجاذبية الجنسية،وكانت الكاميرات التى تغطى المباريات عادة ما تركز على المشاهير من المتفرجين، مثل ليوناردو دى كابريو وبراد بيت، وهم يشجعون لاعباتهم المفضلات. وكان الهدف من المشهد برمته هو إظهار تألق التنس النسائى وإثارته. ونجح هذا، حيث يعد التنس النسائى قصة نجاح عالمية ويعود الفضل فى ذلك بشكل كبير لميلتشان.

لكن علاقته بقائمة طويلة من مشاهير هوليوود تتجاوز بكثير دعواتهم لحضور دورات التنس الخاصة به، وفى أحيان كثيرة أصبحت تلك علاقات شخصية لحد كبير. وفى عام ١٩٨٤، استضاف باربرا سترايساند فى إسرائيل لافتتاح فيلمها "ينتل". ومع أن ميلتشان ينكر ذلك، لكن الخبر ظل محل تداول لأعوام فى دائرة صغيرة من خاصة هوليوود، وكما أكدت لنا إيتى كانر مساعدة ميلتشان منذ ٣٠ عاماً، أنه وسترايساند كانا أكثر من مجرد صديقين، وقدمها لشمعون بيريز، والذى استخلص منها تبرعاً قيمته ٢٥ ألف دولار لحزب العمال، وقدمها لرئيس الوزراء آنذاك إسحاق شامير، والذى لم يكن يعرف من هى. وعندما أخبره ميلتشان أنها تعمل فى مجال الغناء

والتمثيل، كان رده "وهل تستطيع أن تتكسب رزقها من هذا؟"، وبعد ١٣ عاماً، تعاون ميلتشان وسترايساند فى إنتاج فيلم "المرآة لها وجهان".

وبالإضافة لعلاقاته الواسعة، عُرف عن ميلتشان أيضاً أنه يقوم بدور الخاطبة فى مواقع تصوير أفلامه، إذ قدم ووبى غولدبيرغ إلى تيد دانسون فى موقع تصوير فيلم "صُنِعَ فى أمريكا" . وأصبحا أشهر زوجين مختلطى الأعراق فى هوليوود آنذاك. كما قدّم "بين أفليك" و "جنيفر غارنر" لبعضهما أثناء تصوير فيلم "ديرديفيل" .

قابل أنجلينا جولى أثناء تصوير فيلم " إنجاز المهام" فى ١٩٩٩، وعرفها على زوجها المستقبلى بيلى بوب ثورنغتون. وبعد ٦ أعوام اختار جولى لفيلم مستر أند مسيز سميث مع براد بيت، وهى قصة عن زوجين يفاجآن باكتشاف أن كليهما قاتل محترف تم استئجارهما من قبل وكالتين متنافستين لقتل أحدهما الآخر.

فى البداية، تم اختيار نيكول كيدمان أمام بيت، لكن لم يحدث أى انسجام بينهما وترك بيت الفيلم. فاختار ميلتشان بعد ذلك جونى ديب، ولاحقاً ويل سميث، مع كاترين زيتا جونز، لكن مجدداً، لم يحدث بينهما انسجام. وعندما سمع بيت أن ميلتشان يفكر فى اختيار أنجلينا جولى، هرع للعودة للفيلم.

عرّف ميلتشان بيت على جولى واستشعر فى الحال شرارة الغرام تقدح بينهما، وليس فى مجال التمثيل فحسب. وأعقبت ذلك علاقة غرامية ملتهبة، لكن كانت هناك مشكلة صغيرة. بالرغم من أن جولى كانت فى سبيلها للتعافى من انفصالها مؤخراً عن زوجها بيلى بوب ثورنغتون والذى كان قد استمر لثلاثة أعوام، كان بيت متزوجاً من محبوبة أمريكا الممثلة جنيفر أنيستون. فى البداية

أنكر بيت وجولى العلاقة الغرامية، لكن عندما طردته أنيستون من المنزل، انتشرت الأخبار بشكل محموم وأخذ المصورون يحومون حوله كالضباع حول فريستها، وأخبرنا ميلتشان:

"عندما سمعت أن براد ترك المنزل ويبحث عن فندق، عرضت عليه الإقامة فى منزلى فى ماليبو، إذ ظننت أن هذا سيمنحه المزيد من الأمان والخصوصية. وكان يذهب إلى موقع التصوير، وكل مكان آخر، على دراجة بخارية، وارتدى خوذة رأس ذات غطاء داكن حتى لا يتعرف عليه أحد. كان يتوقف فى مرأبى فى شارع متفرع من طريق باسيفيك كوست السريع، ويستخدم جهاز فتح باب المرأب، ويغلقه وراءه قبل أن يخلع الخوذة. هكذا غافلنا المصورين المرتزقة، وتمكن براد من الحفاظ على هدوئه. كنا نمارس لعبة تنس الطاولة. وهو لاعب رائع. ومن الناحية المهنية، أرى أن براد بيت وويل سميث هما أكثر ممثلَيْن يمكن التوافق معهما بسهولة، كما أن العمل معهما ممتع".

ولا يجد ميلتشان مشكلة فى نشوء العلاقات العاطفية فى موقع التصوير ويرى تلك الظاهرة كفرصة للعلاقات العامة ويقول "دعنا نصف الأمر بهذه الطريقة، إن كانت العلاقة مشبوبة، غالباً ما يكون الرجل مثيراً ومتزوجاً، والفتاة مثيرة ومتزوجة أيضاً! يصوران معاً الكثير من المشاهد الساخنة، وينكران العلاقة، فيثير ذلك فضول المصورين، إذن فهى دعاية مجانية".

وكان منزل ميلتشان فى ماليبو هو المنزل الذى قضى فيه السيناتور روبرت كنيدى ليلته قبل أن يتم اغتياله فى فندق أمباسادور. وكان كنيدى قد قضى يومه فى السباحة، والجلوس تحت أشعة الشمس، والتحدث مع أصدقائه،

والنوم، وأصبح مسترخياً للغاية لحد أنه فكر فى عدم حضور حفل ليلة الانتخابات،واقترح أن يشاهد هو وعائلته وأصدقاؤه النتائج الأولية على التليفزيون. وأراد دعوة الإعلام لينضم إليهم، لكن لأن الشبكات التليفزيونية رفضت نقل معداتها إلى ماليبو،وافق كنيدى بعد تردد على الذهاب إلى فندق أمباسادور بدلاً من ذلك، حيث أطلق عليه الرصاص المهاجر الفلسطينى سرحان بشارة سرحان.

بمرور الوقت بدأ ميلتشان يدير نيو ريجينسى أثمن مشاريعه، بأسلوب عائلى.

ذات يوم فى ١٩٩٥، اتصل ميلتشان بديفيد ماتالون صديق طفولته ومؤسس شركة ترايستار بيكتشرز، ليعرض عليه إحدى الأفكار. وكان ميلتشان قد حدد اجتماعاً بعد ذلك بفترة وجيزة مع ستيف روثر رئيس مجلس إدارة شركة نيو ريجينسى، وكان كلما تقابلا يطلب روثر علاوة، تتبعها إنذارات. وكان ميلتشان قد سئم هذا وكان عازماً على فصل روثر إذا فعل ذلك مجدداً. سأل ماتالون ما إن كان مستعداً ليحل محل روثر إذا قام بفصله، مؤكداً له أن هذا سيكون لبضعة أشهر حتى يجد له بديلاً دائماً.

وكان ماتالون يفكر فى اعتزال العمل السينمائى كلياً ليذهب فى إجازة مفتوحة لكنه قال إنه سيفكر فى الأمر،وفقاً لما سيحدث مع روثر.

وبعد بضعة أيام قابل ميلتشان روثر، وكما كان متوقعاً، انهال بالطلبات بشكل مستفز على رئيسه. ففصله ميلتشان فى الحال، ودخل ماتالون ليحل محله. لكن ميلتشان لم يكن فى عجلة من أمره،ومرت ١٢ عاماً قبل أن يتمكن ماتالون من العودة لإجازته أخيراً.

وتدريجياً، بعد عام ٢٠٠٠، بدأ أرنون يعين أبناءه في مواقع هامة في نيو ريجينسي. كان ياريف وأختاه ألكساندرا وإليانور، قد تربوا في مدارس داخلية وتشبعوا بجرعة هائلة من الثقافة الفرنسية، لكن عندما نضجوا تعرفوا على عالم واسع للغاية بفضل الأسفار المنتظمة بصحبة والدهم إلى مختلف أنحاء العالم. كانوا يقضون شهراً على الأقل في إسرائيل كل عام وتربوا على حقيقة أنهم أعضاء في القبيلة! بكل ما يُضمِر ذلك من دلالات تاريخية ومسئوليات.

تقول ألكساندرا في حديث لها، "كنت في طور نشأتي، أقرأ أن والدى تاجر أسلحة، وأنه يعمل في الموساد، وأنه منتج أفلام، كنا نريد أن نقضى مزيداً من الوقت معه. لكننا، عندما كبرنا، توصلنا لحقيقة بالنسبة لأبى، هى أن الجودة هى ما يهم، وليس الكمية. وفهمنا أن حياتنا المرفهة خارج باريس كانت أفضل هدية كان بإمكانه أن يقدمها لنا. ما أحبه فيه هو أن قدميه راسختان بقوة وأنه حقيقى للغاية" أدلت ابنته بهذا في مقابلة مع مجلة لوس أنجلوس ماغازين في أبريل ٢٠٠٠ أجرتها معها آن لويس بارداتش.

بدأ ياريف ابن أرنون مسيرته المهنية موزِّعاً حصرياً لسلع وورنر براذرس في إسرائيل، وكان يدير عمله من مكاتب ميلتشان بروس. ثم عمل كمصور للأزياء وللمشاهير. ومن بين مشاريع أخرى، قدم مجموعة من الصور الفريدة الكاشفة المثيرة لأنجلينا جولى استرعت انتباه الكثيرين وتعجبّهم. ومذاك انضم لشركة نيو ريجينسى كمدير تنفيذى فيما لا يزال يمارس هواية التصوير.

ألكساندرا هى ابنة أبيها وتملك -من بين أبناء ميلتشان- الشخصية التى

يعتبرها الكثيرون مشابهة لشخصيته. بدأت علاقتها بشركة نيو ريجينسى بفيلم هيت فى ١٩٩٥ كمنسقة مساعدة فى القسم الفنى. وبمرور السنين أصبحت معنية أكثر بالإدارة اليومية للشركة. وفى ١٩٩٨ أنتجت فيلمها الأول "وداعاً أيها الحبيب"، والذى فشل مادياً لكنه أضاف إلى خبرتها. تقول ألكساندرا "أكثر ما أفخر به هو أن والدى لم يتصل ليتوسط لى أبداً. أذكر ذات يوم أن مايكل دوغلاس قال لى إن الأمر سيكون أكثر صعوبة بالنسبة لى بما يفوق أى شخص، وهو محق. إنها ليست صناعة يُرحّب فيها بالأبناء. وبصفة مايكل ابن كيرك دوغلاس فهو أدرى بذلك".

تزوجت ألكساندرا من سكوت لامبرت وهو وكيل أعمال ويليام موريس السابق.

أما إليانور فشخصية مستقلة. بعد فترة عمل وجيزة فى نيو ريجينسى أصبحت مصورة فنية وتقيم فى سوهو، نيويورك. تقول "والدى هو صديقى المفضل. ورثت عنه حماسه، وتركيزه على أهدافه، وميله لاتباع حدسه. وأخبرنى أننى لا يمكن أن أخطئ بمثل تلك الرؤية. وكان محقاً".

فى التسعينيات، أنتجت إليانور فيلماً وثائقياً متميزاً اسمه "تودو كامبيا" يصف سلسلة من ثلاثة أجيال لعائلة من الفنانين فى كوبا فى عهد كاسترو. ولا تزال صورها تزين حوائط المكاتب التنفيذية بدءاً من شركة تونتييث سينشرى فوكس وحتى الشاشات العملاقة فى ميدان تايم سكوير.

وفى نوفمبر ٢٠٠٨، تزوجت بأوديد باراك، وهو شريك فى شركة غولدمان ساكس وابن عالم فيزياء نووية إسرائيلى، فى حفل زفاف متواضع فى تل أبيب.

وفى ٢٠٠٢، أخذت علاقة أرنون بمساعدته السابقة شونا بيل بعداً جديداً عندما أنجبت طفله الرابع وابنته الثالثة مايان. ويقول أرنون وهو مفعم بالمشاعر "مايان تشعرك أنك أصغر سناً، قضينا الكثير من الأوقات السعيدة معاً". تعيش بيل ومايان بأسلوب مرفه فى منزل مستقل فى ماليبو، ويحتفظ أرنون بعلاقة وطيدة مع ابنته الصغرى، وبعلاقة صداقة قوية مع والدتها.

منذ حداثة عهده ظل لدى ميلتشان شغف بالشئون السياسية الإسرائيلية، وبالرغم من مشاغله العالمية، فقد سعى دوماً للتأثير على مسار الأحداث التاريخية فى الشرق الأوسط من وراء الكواليس.

وفى ٢٠٠٥، ترك آرييل شارون رئيس الوزراء حزبه الليكود، والذى ساعد على إنشائه فى منتصف السبعينيات، وأسس حزباً جديداً أكثر وسطية يدعى كاديما، والذى انتوى قيادته فى الانتخابات التالية بصفته مرشحه لمنصب رئيس الوزراء.

من ناحية أخرى، كان شمعون بيريز، رجل الدولة الأعلى منزلة فى حزب العمال، والذى كان يمثل المعارضة آنذاك. كان شارون اليمينى وبيريز اليسارى غريمين أيديولوجيين لعقود وقامت علاقتهما الشخصية على العداوة، لكن ميلتشان ارتأى أنه إن استطاع المصالحة بين صديقه المقرب بيريز وبين شارون، فإن مجريات السياسة الإسرائيلية ستشهد تغيراً جذرياً.

وخلال ساعات من إعلان شارون، كان ميلتشان على الهاتف يضغط على كل من بيريز وشارون، أكثر شخصيتين سياسيتين مهيمنتين، ليتحالفا. لكن بيريز أصر قائلاً "ليس لدىَّ نية للاتصال به". فأجابه ميلتشان "أنا قادم".

وعقب ذلك بفترة وجيزة، كان ميلتشان يجلس مع بيريز فى منزله محاولاً

إقناعه بأن الحزب الوسطى سيعكس بشكل أعمق الوحدة الوطنية. لم يستطع بيريز الذى عاش حياته بأكملها فى المعسكر الليبرالى فى السياسة الإسرائيلية.، تخيل نفسه متحالفاً مع شارون، المعروف باسم البلدوزر ومؤسس المعسكر القومى الحديث.

وإذ تذكر لحظة الحسم عندما واجه موقفاً مشابهاً بين روبرت مردوخ وكيرى باكر، رفع ميلتشان سماعة الهاتف فى مزرعته فى جنوب إسرائيل بينما كان بيريز ينظر إليه، وهو غير متأكد مما سيفعله ميلتشان.

عندما أجاب شارون الهاتف، قال ميلتشان "سيدى رئيس الوزراء، يوجد شخص هنا يحتاج للحديث معك". ثم أعطى الهاتف لصديقه المذهول.

عندما أدرك شارون أن بيريز كان على الهاتف فى الطرف الآخر، رقق صوته فى الحال وبدأ، على غير عادته، بالاعتذار عن تصريحاته المسيئة له أثناء المناظرات العامة الأخيرة. لم يشعر بيريز المخضرم، والسياسى المحنك، بالإساءة، ومضى الاثنان يتحدثان بتهذيب، بينما كان ميلتشان يجلس جانباً يستمع لهما فى رضا.

ومع نهاية المكالمة، قدم شارون دعوة عامة لبيريز لينضم لحزب كاديما ليحرك إسرائيل فى اتجاه آخر. وفى الأيام التالية استقبل ميلتشان روفين أدلر كبير المستشارين السياسيين لكل من بيريز وشارون فى سقيفته فى هرتسليا بيتوح المطلة على البحر الأبيض المتوسط. وأثناء الاجتماع فاجأ بيريز أدلر عندما أبلغه أنه غير مهتم بالحفاظ على مقعده فى الكنيسيت، وأنه يريد إنشاء وكالة حكومية جديدة للترويج لعملية السلام وتطوير صحراء النقب ومنطقة الجليل. وأضاف "لا نريد أن نهدر مقعداً خاصاً أحتله فى الكنيسيت".

وقبل أن يبدى شارون موافقته، أمر ميلتشان محاميه بصياغة الاتفاق بين الطرفين.

وقضى ميلتشان وبيريز الأسبوع بأكلمه معاً. وسافرا إلى برشلونة فى طائرة ميلتشان الخاصة لحضور مباراة ودية دعائية لكرة القدم بين فريقى إف سى برشلونة وفريق إسرائيلى / فلسطينى مشترك للترويج للسلام فى أكبر مدرج فى أوروبا. نظم ميلتشان الحدث بأكمله، فى الأغلب على شرف بيريز، وتم تنفيذه مثل حدث هوليودى ضخم. وحضر المباراة شخصيات مشهورة مثل نجم كرة القدم رونالدينهو والممثل شون كونرى، وشخصيات سياسية مثل بيل كلينتون وملك إسبانيا خوان كارلوس الأول.

انبهر بيريز، واستخدم ميلتشان تأثيره على العديد من القادة ليقترحوا على بيريز أن مشاركته أمراً لا غنى عنه، وأنه يجب أن يظل شخصية فاعلة على مسرح عمليات الشرق الأوسط. ونجح فى ذلك، وفى برشلونة اتخذ بيريز قراره النهائى، وهو التحالف مع آرييل شارون.

فاز حزب كاديما بالانتخابات، وتم تعيين بيريز نائباً لرئيس الوزراء، وتم تحقيق كل مطالبه. لكن كما فى مغامرته فى حزب رافى قبل أعوام، لم يتحقق حلمه فعلاً. حيث تعرض شارون لعدد من الجلطات الدماغية وفقد قدراته وأصيب بالشلل التام. وأصبح صديق آخر لميلتشان، أو الرجل الذى اختار اسم فيلمه "امرأة جميلة"، أى إيهود أولمرت رئيساً للوزراء بدلاً منه.

ثم تبع ذلك تغيير درامى فى الأحداث. تورط رئيس إسرائيل الشرفى موشيه كاتساف، فى فضيحة جنسية غير مسبوقة تتضمن تقديم العديد من الموظفات بلاغات ضده بأنه فرض نفسه عليهن بالقوة. وسرعان ما أصبح

الموقف لا يحتمل. وإذ أدرك أن استقالة الرئيس باتت وشيكة، حاول ميلتشان استغلال الموقف بأقصى سرعة ممكنة، وغدا يحوم في الكواليس لاستبدال الرئيس بصديقه القديم ومعلمه شمعون بيريز. وعندما استقال كاتساف أخيراً، كان ميلتشان قد دبر الدعم الكافي لبيريز ليحل محله كرئيس للبلاد.

وُضِع اسم بيريز ضمن المرشحين. لم يُكوِّن جماعات ضاغطة ولا حملات، ولم يشتر الإعلام. بل فعل شيئاً واحداً فحسب، وهو أن اعتمد على صديقه ميلتشان لتحقيق بغيته، وبعد ذلك بفترة وجيزة، تم عد الأصوات في الكنيسيت وأصبح شمعون بيريز الرئيس التاسع لإسرائيل.

كان أول خطاب رسمي كتبه الرئيس الجديد هو خطاب شكر لصديقه القديم ميلتشان، والذي لازمه في السراء والضراء، ليصل به إلى ذلك اليوم.

فيما يقضي ميلتشان كثيراً من وقته في أحد منازله في إسرائيل، ويعمل وراء الكواليس للدفع بالنظام السياسي المعقد لبلده، نجده أيضاً بمثابة القنصل العام الإسرائيلي الفعلي في الساحل الغربي للولايات المتحدة. عندما تصل شخصية هامة إسرائيلية إلى هوليوود، يستقبلها ميلتشان في الأغلب في منزله، ووفقاً لمكانة الضيف، يمكن أن ينظم حفل استقبال فاخراً ويدعو فيه صفوة من يعملون في مجال صناعة الترفيه.

ويعتبر أرنون أيضاً المضيف الأول لنخبة هوليوود عندما يزورون إسرائيل، عادة بمبادرة منه. حيث تُعتبر توجيه دعوة من ميلتشان لزيارة إسرائيل دليلاً على النجاح في هوليوود. ولا تلقى هذه الرحلات دعاية إعلانية صاخبة لكنها تكون فاخرة ومسرفة إلى أقصى حد، وهي فاعلة للغاية أيضاً فيما يتعلق بجهود العلاقات العامة الإسرائيلية.

وفى عملية روتينية خاصة بميلتشان، وصل ريتشارد جير وتيرى سيميل وباربرا والترز إلى إسرائيل فى زيارة خاطفة لثلاثة أيام فى عام ٢٠٠٥، بدعوة منه. واستقلوا المروحيات والطائرات الخاصة،وجابت الشخصيات الثلاثة الهامة البلد بأكمله أثناء النهار،وزاروا مواقع تاريخية واستراتيجية هامة فى الأرض المقدسة، من إيلات إلى خليج العقبة جنوب هضبة الجولان فى الشمال،وكل ما يقع بينهما.

وأثناء الإفطار والغداء والعشاء، شربوا وأكلوا، وأطلعهم الخبراء العسكريون والجنرالاتوقادة الصناعة، وكبار قيادات الدولة، بمن فيهم وزير المالية أنذاك بنيامين نتنياهو ورئيس الوزراء آنذاك شارون، على المستجدات. ولم تكن رحلتهم غير معتادة.

ومثل كل من سبقوهم أو تلوهم، رحلوا ولديهم تفهم واضح لموقف إسرائيل الاستراتيجى.

أما من حيث النساء، يظل أرنون ولداً شقياً تم تهذيبه. فى سن التاسعة والعشرين، كان مطلقاً ولديه ثلاثة أطفال. وبعد العارضة الفرنسية بريجيت غونمير،والممثلة الأمريكية إليزابيث مكغافيرن، والنساء السويديات الغامضات أولا وأوليريكا وأسى ثاستروم،وشونا بيل، قابل أرنون حبه الأخير والوحيد، نجمة التنس جنوب الإفريقية أماندا كويتزر. وبصفته مالكاً لحقوق البث لاتحاد التنس النسائى ومن كبار معجبيها، لم يكن مفاجئاً أن اكتشف أرنون زوجته الثانية التى تصغره بـ٢٧ عاماً فى عالم التنس.

اعتبرت كويتزر المولودة عام ١٩٧١، اللاعبة الأصغر حجماً فى تنس المحترفين بسبب قياساتها الصغيرة،فهى بالكاد تتجاوز الخمسة أقدام طولاً،

ويبلغ وزنها حوالى ٥٤ كيلو جراماً. ومن بين الألقاب التى اكتسبتها على مر السنين كانت القاتلة الصغيرة والمصارعة الصغيرة لقدرتها الهائلة على هزيمة منافسات لها فى الملعب يفقنها بمراحل حجماً وقوة، مثل شتيفى غراف وليندزى دافنبورت. وما بين عامى ١٩٩٢ و٢٠١١، تم تصنيفها سنوياً ضمن أفضل ٢٠ لاعبة فى العالم، وحلت كالمصنفة الثالثة عام ١٩٩٧ فى أفضل تصنيف لها. وكانت موضع شائعات صحف الفضائح بسبب علاقاتها الغرامية الطويلة بنجم البيسبول الأمريكى بريدى أندرسون، والذى كان يلعب لفرق بوسطن ريد سوكس، وبالتيمور أوريوليز، وكليفلاند إنديانز.

بدأت كويتزر تلعب التنس وهى فى السادسة من عمرها وتركت المدرسة وهى فى الرابعة عشرة لتبدأ مسيرة ناجحة كلاعبة تنس محترفة، جنت منها ما يتجاوز ٥,٥ مليون دولار، وملايين الدولارات من صفقات الدعاية لمنتجات نايكى وفيرارى وبى إم دبليو، وشركات أخرى. ولأنها ثرية بشكل مستقل، فمن الواضح أنها لم تتزوج حباً فى المال، يقول ميلتشان:

"تطورت صداقتنا ببطء. وكنا نتحدث عن جنوب إفريقيا والفصل العنصرى. وأصبحنا أكثر قرباً عندما دعوتها على العشاء أثناء بطولة أستراليا المفتوحة وتحدثنا عن فيلم جيه إف كيه، والتى لم تكن قد شاهدته، لكنها أبدت اهتماماً كبيراً به.

"فى اليوم التالى، أرسلت لها دى ڤى دى الفيلم، وتحدثنا عنه على الهاتف، وهى محادثات استمرت لأربعة أشهر وتناولت مواضيع عدة. وكان لقاؤنا التالى فى بطولة إنديان ويلز فى بالم سبرينغز. كانت تلك عملية تدريجية. فى النهاية وجدت نفسى مجدداً فى بطولة أستراليا المفتوحة أشجعها بصوت عال،

ربما أعلى مما يجب. وضايقها سلوكي الصاخب، ووقعتُ أنا في الحب".

تزوجا في هدوء عام ٢٠٠٤ . وكان ميلتشان يستعد لإعادة اكتشاف نفسه مجدداً. في صحبتها وهو في الـ٦٠ من عمره، وعدها بأن يكون صالحاً، وليس عابثاً كما يصفه بيريز مازحاً.

وفي أغسطس ٢٠٠٧، استقبلت أماندا وأرنون ابنهما الجديد شمعون، والذي أسمياه على اسم معلمه القديم شمعون بيريز.

٢١

الوثّاب

أرنون أنكى من أن يبدد حياته فى التشاؤم.

الرئيس الإسرائيلى شمعون بيريز

يكاد يكون من المستحيل أن تتتبع كل صفقة جنونية كان ميلتشان طرفاً فيها، أو أنشطة كتلك التى يقوم بها دايفيد رايس فى فيلم "الوثّاب" تلك الأنشطة التى جاب من أجلها العالم بأكمله. نجد له يداً فى كل شىء. الشراء والبيع، المساومة وانتهاز الفرص دونما توقف تقريباً، إنه لا يتعب قط ولا يرضى أبداً، وكما يقول هو:

"حاولت أن أفهم لِم لم أبلغ الرضا يوماً أو أحقق السلام الداخلى. لم أبلغ المرحلة التى أقول فيها حسناً، الآن لدى ما يكفينى. ولِم لم يحطمنى أى فشل، ولِم أشعر بعد كل نجاح كبير بالاكتئاب وبالقلق، ولِم لا أستطيع النوم بدون الحبوب المنومة. ووصلت أخيراً إلى أننى أحاول إيقاف مرور الوقت، وأن هذا مستحيل.

"فهمت أننى حاولت دوماً أن أكون محل إعجاب، بل وحتى موضع حب الناس كلهم، وفهمت أن هذا أيضاً مستحيل. فهمت أننى أهدرت الكثير من طاقتى محاولاً تحقيق المستحيل، حتى وجدت نفسى أبدد فرص الاستمتاع بمباهج الحياة.

"ولأننى سعيت دائماً وراء الكمال، فقد ظللت دائماً عرضة للإحباط. كان كل فشل طويلاً ومريراً، وكل نجاح قصير العمر.

"وفى اللحظة التى تصالحت فيها مع حدودى، اقتنعت ببساطة أننى غير قادر

على التواجد فى كل مكان فى ذات الوقت. منحنى هذا السلام، وقدرة التركيز على عائلتى، والعمل على إسعاد القريبين منى".

مازال لديه فى مجال البيزنس غريزة غريبة لمعرفة متى ينضم إلى عمل ما أو متى ينسحب منه. كان قد اشترى شركة الملابس الرياضية المتعثرة "بوما" وهى فى أسوأ حالاتها، مقابل ٢٥٠ مليون دولار، وروج لها بشغف حتى صارت ناجحة فى النهاية، وتخلى عنها بلا أدنى عاطفة وهى فى قمة نجاحها مقابل ٦٥٠ مليون دولار.

منذ عام ٢٠٠٤ وهو يتقدم باستمرار فى قائمة فوربس لأثرى أثرياء العالم. لكن محررى مجلة فوربس يعرفون قطعاً أنه لا توجد أية إمكانية لتقدير ثروته الحقيقية بشكل دقيق. إذ إن ميلتشان لديه ممتلكات منتشرة فى كل أنحاء العالم، وأرصدة فى عشرات البنوك، يمكن أن تتجاوز بكثير أصوله الواضحة.

كيف يمكن لمجلة فوربس تقدير قيمة مشروع زراعى ضخم فى كازاخستان، وهو ضمن صفقات ميلتشان العديدة عبر العديد من شركاته الأجنبية الفرعية؟ الأرجح أنهم ليس لديهم أى دراية به.

ومنذ عام ٢٠٠٠ وجريدة لوس أنجلوس بيزنس جورنال تقيم ميلتشان سنوياً على أنه بين أغنى ٥٠ شخصاً يقطنون لوس أنجلوس. وهم يبنون تقديراتهم على صفقاته فى هوليوود وحدها، بالرغم من أنه ليس من سكان لوس أنجلوس المقيمين، حيث يقضى بضعة أشهر فحسب كل عام. ويقدر موقع الإنترنت بوكس أوفيس موجو أنه منذ فيلمه ذا كينغ أوف كوميدى أو ملك الكوميديا والذى عرض لأول مرة فى فبراير ١٩٨٣، وحتى فيلم هذا هو حظى، والذى عرض لأول مرة فى مايو ٢٠٠٦، أنتج ميلتشان ٨١ فيلماً بإجمالى أرباح من شباك التذاكر يقدر بـ٧٥ر٢ مليار دولار فى الولايات المتحدة و٥ر٥ مليار دولار عالمياً على الأقل.

ليس لدى ميلتشان نية للتقاعد، بالرغم من أنه بلغ سناً يبدأ معظم الناس فى التفكير فى التقاعد فيه. وبدلاً من ذلك، فهو يعيد اكتشاف نفسه مجدداً. وفى ٢٠٠٧ أسس مجموعة استثمارية جديدة أسماها ميوز جروب، والتى سيطرت على شركة مريديان، وهى شركة متطورة غير معروفة لتصنيع الصوتيات والمرئيات فى إنجلترا. وخلال أشهر تم بيع نظام مريديان إلى ستيف وين وتم تركيبه فى كل غرف منتجعه الضخم وملهاه المسمى وين فى طريق لاس فيغاس الشهير. وفجأة، أصبحت مريديان علامة تجارية عالمية فاخرة. وفى إسرائيل، استثمر ميلتشان فى أدرين، وهى شركة لإيجاد حلول للطاقة صديقة البيئة ذات مكانة مرموقة فى استغلال موجة تكنولوجيا الطاقة صديقة البيئة.

وفى ٢٥ أبريل ٢٠٠٧، جاب ميلتشان منشأة المنظمة الأوربية للأبحاث النووية،

حيث ينتظر من تجارب أطلس فتح آفاق جديدة لاكتشاف المادة والطاقة والفضاء والوقت. وتلك هى أكثر التجارب طموحاً علمياً فى التاريخ الإنسانى.

سيتصادم مليار بروتون عالى الطاقة كل ثانية داخل كاشف أطلس على الحدود الفرنسية السويسرية، والذى وُضِعَ على عمق ٣٠٠ قدم تحت الأرض فى كهف مكون من عشرة طوابق. سيقوم أكثر من ٢٥٠٠ عالم من ٣٥ بلداً، بما فيها معهد وايزمان فى إسرائيل بتحليل تلك البيانات بحثاً عن إشارات متناهية الصغر يمكن أن تجيب عن بعض أكثر الأسئلة الإنسانية تعقيداً. إن ميلتشان يعتزم أن يكون فى صدارة من يستغلونها فى اللحظة التى تنتج أطلس تكنولوچيات جديدة يتوفر لها فرص تجارية.

وبالإضافة لكل المشاريع الجانبية، اشترى ميلتشان أسهم كيرى باكر صديقه وشريكه فى نيو ريجينسى فى صيف ٢٠٠٨، ليصبح صاحب أغلبية الأسهم والمهيمن على مقاليد الأمور فى الشركة.

فى ذات العام، ولأول مرة فى حياته، وافق ميلتشان على تلقى جائزة، لتكريمه فى مناسبة العيد الـ٦٠ لقيام إسرائيل. ولم يُقَم الاحتفال فى إسرائيل، لكن فى استوديوهات باراماونت فى هوليوود. ومن ضمن ٧٤٠ مدعو من الحضور كان هناك مشاهير مثل أنيت بينينغ وسيرينا ويليامز وأنتونيو فيلاريغوسا عمدة لوس أنجلوس. وحضر أيضاً رؤساء بعض الاستوديوهات مثل أيمى باسكال من سونى، وبيتر تشيرنين من تونتييث سينشرى فوكس، وسامر ريدستون من باراماونت.

لم تخذله غريزته فى التوجه لمزيد من المشروعات وخاصة مع تدهور الاقتصاد العالمى. إذ باع ممتلكاته العقارية مثل مساكنه فى لندن وموناكو ونيويورك قبل فترة وجيزة من تدهور الاقتصاد. وحول المال إلى عملات أجنبية، مراهناً ضد قيمة

الدولار، وتحوط على ممتلكات أخرى فى آخر لحظة. لكنه لم يكن محصناً كلياً، إذ خسر أكثر من ١٨ مليون دولار فى مشروع بونزى الذى كان يديره برنارد مادوف.

لا يجرؤ، ميلتشان الآن وقد أصبح الأكبر سناً والأكثر حكمة، على الدخول فى مغامرة مثل فيلم وانس أبون أتايم إن أمريكا أو كان ياما كان فى أمريكا. وغيرها من الأعمال التى اقتضت الجنون، والالتزام التام، والشجاعة، واتباع مخرج عبقرى مصاب بجنون العظمة، و١١ شهراً من التصوير، وأكثر من ١٥٠ شخصية لها أدوار حوارية، واستئجار قطار أوريينت إكسبريس من أجل لقطة واحدة، والسفر سريعاً من باريس إلى فينيسيا من أجل مشهد واحد، والاختيار الدقيق لكل ملبس، وكل هذا العمل ليشهد فى النهاية خيبة الأمل العميقة فى ردة فعل الجمهور الأمريكى. ومع ذلك، وحتى يومنا هذا، لا يزال ميلتشان الخيار الأول لأى كاتب سيناريو أو مخرج غير تقليدى يبحث عن منتج مجنون بما يكفى ليدرس مشروعه الخارج عن المألوف.

تعد الدراما التاريخية الضخمة بعنوان "١٠٦٦" أكبر مخاطرة فى هوليوود حالياً، حيث من المقرر عرضها فى العام المقبل أو الذى يليه. إنه مشروع يمكنه أن يُسقِط أى استوديو، لكنه فيلم أيضاً يمكنه أن يحقق أرباحاً طائلة إن نجح. وبالتعاون مع إليزابيث مردوخ ابنة مردوخ، فمن المرجح أن ينتج ميلتشان تلك الدراما التاريخية التى تصف معركة هيستينغس، حيث تلاقى الجيش النورماندى بقائده ويليام الفاتح، والجيش الإنجليزى وقائده الملك هارولد غودوينسون فى ميدان المعركة، فى معركة أثرت نتيجتها على التاريخ الإنجليزى لألف عام تالية.

تم تطوير مكاتب الشركة المؤسِسة التى بدأ منها كل شىء أى ميلتشان بروس، فى ٢٠٠٥ . تم فتح الأروقة الرمادية المؤدية لأجنحة مكاتب كئيبة لتصبح منطقة

عمل عصرية شاسعة، ذات أثاثات على أحدث الصيحات من لو كوربوسيير ومناضد خشبية إيطالية راقية. وزينت الجدران بصور انسيابية منسقة للبحر المتوسط من تصوير إليانور ميلتشان. لكن المصممين قرروا أن يتركوا الجوائز والأوسمة التى تغطى الحوائط الضخمة لقاعة المؤتمرات المجددة فى أماكنها.

وبمرور الوقت، فقدَ ميلتشان اهتمامه بشركة ميلتشان بروس، والتى كان يديرها صديق طفولته يوسى جيفا، وهو رجل خدم فى الجيش مع أرنون منذ أعوام كثيرة ، ويُدرك أهمية السرية والتكتم. وتحت إشراف جيفا توسعت ميلتشان بروس متجاوزة مناطق نشاطها التقليدية إلى مشاريع مثل عمليات الطباعة بالشراكة مع عائلة عربية عريقة، وشراكة فى أكبر شركة لتصدير السيارات فى إسرائيل.

وفى ٢٠٠٨، باع ميلتشان شركة ميلتشان بروس إلى عميل سابق فى الموساد اسمه يوسى ميمان. وفيما كان يوقع عقد البيع، فكر طويلاً ومليأ فى جده حاييم إليعازر ووالده دوف، اللذين وضعا الأساس بمشروع أسمدة صغير لشركة ميلتشان بروس ولكل ما أصبحه ميلتشان فى الحياة تقريباً. وكان لميلتشان شرط وحيد فى عملية البيع: أن تظل صورة جده، ووالده، وصورته، معلقة فى بهو الشركة للأبد. فالمال، ليس كل ما فى الحياة!

بدأ جد ميلتشان حياته كشخص بالغ فى مدينة روحوفوت الصغيرة، وكانت محل الميلاد المستقبلى لصبى صغير اسمه أرنون. ونثر بذور كرمته بيديه، وتولاها بالعناية والعطف، وراقبها، هو وكل أبناء القرية الصغيرة من حوله، وهى تنمو وتثمر بالفاكهة. وكان الغرض من ثمرة جهده صناعة النبيذ الذى يجلب البهجة للآخرين.

ومع بزوغ الألفية الجديدة، اشترى ميلتشان كرمة متواضعة وبنى مصنع نبيذ صغيراً أسماه خوناتا، فى الناحية الأخرى من العالم، بالقرب من مدينة سانتا ينز

الصغيرة، بكاليفورنيا، على بعد حوالى نصف ساعة بالسيارة من مقطورة ريتشارد كيلى سميث فى لومويك.

ولم يتكبد ميلتشان الصعوبات البدنية اليومية لغرس كرمة العنب ورعايتها كما فعل جده قبل قرن تقريباً. لكنه تعلم الصبر المطلوب كى يستطيع المرء تذوق ثمار حصاده. ومرت ٦ أعوام قبل أن يرتشف أخيراً كأساً من نبيذه الخاص الفاخر.

ومن بين إنجازاته العديدة، فازت أفلام ميلتشان بالعديد من الجوائز والتكريمات، لكن ميلتشان نفسه لم يتلق الجائزة الكبرى، أى جائزة الأوسكار لأفضل فيلم. فى عام ١٩٩١ كان على وشك نيلها، وكاد يلمسها، إذ تم ترشيح فيلم جيه إف كيه فى ٨ مصنفات، منها أفضل فيلم، لكن جائزة أفضل فيلم كانت من نصيب فيلم صمت الحملان. وعندما توقع تلك النتيجة فى منتصف الحفل، هرع هارباً من قاعة دوروثى تشاندلر إلى أقرب حانة ليغرق نفسه فى أى نوع نبيذ متاح.

وبعد ٦ أعوام، فى عام ١٩٩٧، كان واثقاً من فرص فوز فيلمه الجديد إل إيه كوفندينشيال بعدما فاز الفيلم بجوائز نقاد أكثر من أى فيلم آخر فى ذلك الموسم. وفى طريقه من باريس إلى لوس أنجلوس لحضور حفل الأوسكار، بصحبة صديقه دونالد سازرلاند، وجد صعوبة فى كبت حماسه المتزايد وبدأ يجرب خطبة قبول الجائزة بصوت عال،

"قل ما تشعر به فعلاً يا أرنون" قال له سازرلاند.

بم شعر فعلاً؟ هل شعر بالحزن لأن جده ووالده لم يعيشا ليشهدا قمة إنجازاته؟ هل فكر فى ريتشارد كيلى سميث فى مخبئه أو فى منفاه؟ هل تعاطف مع الآلاف الذين ضحوا من أجل بلده؟

رفع ميلتشان زجاجة وتخيلها جائزة الأوسكار التى كان واثقاً من الفوز بها. وفجأة وقف، فى منتصف قمرة الدرجة الأولى فى الطائرة، وبدأ يتحدث وقد غلبه هدف أسمى وصاح:

"سيداتى وسادتى، أود أن أهدى هذه الجائزة إلى أنور السادات وإسحاق رابين: شالوم، سلام، بيس".

[illegible]

[illegible]

لاحقة

خسر فيلم إل إيه كونفدنشيال أو سرى فى لوس أنجلوس أمام فيلم تايتانيك كأفضل فيلم عن عام ١٩٩٧، ومذاك وجائزة الأوسكار تتجنب ميلتشان.

ولا تزال شركة نيو ريجينسى تغمر ثقافتنا بالأفلام الطويلة. ففى صيف ٢٠١٠، عرض فيلم نايت أند داى مع فيلم لاف أند أذر دراغز أو الحب وعقاقير أخرى من إخراج إد زويك، ويتم الإعداد لأفلام أخرى مثل مارمادوك من إخراج توم داى، وأكبر مقامرة بينها هى فيلم كوكنكويست أو الغزو والمعروف باسم ١٠٦٦، والذى ألفه وأخرجه المخرج الشهير ويليام نيكلسون مخرج فيلم غلادييتور. ويتم الإعداد لفيلم إلڤين والسناجب، ومن الآن فصاعداً ستظهر تلك القوارض المغطاة بالفراء فى أفلام ثلاثية الأبعاد.

وتُعد ألكساندرا ميلتشان حالياً لقصة جاسوسية مثيرة مستوحاة بشكل عام من المآثر المزعومة لعميل الموسّاد الإسرائيلى السابق يوفال أبيب، والذى كان مصدر إلهام لستيفن سبيلبيرغ فى فيلم ميونيخ. ويُعد والد ألكساندرا مصدر معلومات ذا مصداقية أكبر، لأنه وبخلاف أبيب، تتميز مغامراته بأنها حقيقية. تصف ألكساندرا المشروع بأنه

سيكون بمثابة فيلم ذا بورن أيدنتيتي أو هوية بورن بالنسبة للجيل القادم، وهي تفكر في تايلور لاوتنر بطل فيلم توايلايت أو الشفق لدور البطولة.

في ١٤ يناير ٢٠١١، وقّعت شركة نيو ريجينسي وشركة فوكس اتفاقية لمد علاقتهما التوزيعية حتى عام ٢٠٢٢، مع ضمان دور أكثر فعالية لشركة نيو ريجينسي في مجال إصدارات شركة فوكس.

عاد ميلتشان ليقيم بشكل رسمي في إسرائيل، حيث يشرف على إمبراطوريته العالمية المتنوعة من هناك. ولا يزال يسعى لتحقيق رؤيته السياسية وعلى رأسها فكرة السلام في الشرق الأوسط. ولا يزال متفائلاً وفي هذا يقول "أخبرني وارين بياتي ذات مرة أنني إن استمررت ألِح على النساء للخروج معي، فستستجيب إحداهن في النهاية. وتلك هي رؤيتي لعملية السلام. نحتاج للاستمرار في طلبها، وسيستجيب أحد خصومنا".

ذهبت النساء اللاتى عرفهن ميلتشان كل فى طريقها الخاص. تزوجت بريجيت غونمير مجدداً من جراح تجميل فى باريس، وأنجبت طفلاً آخر، وطُلقت مجدداً. وفى التسعينيات عملت فى متجر للملابس فى باريس.

انتقلت "أولا" بعدما أطلقت حصانها فى الشوارع السكنية لضواحى تل أبيب ورحلت عن إسرائيل وهى تستشيط غضباً، إلى اليونان، ولاحقاً إلى باربادوس، ثم إلى أستراليا، حيث استقرت فى النهاية. وجدت أوليريكا حباً جديداً وتركت الميدان لصديقتها أسى ثاستروم، والتى ظلت على علاقة وثيقة مع ميلتشان لأكثر من ١٢ عاماً. ولا تزال تقيم فى قصر مونتفورت لامورى على مشارف باريس، ولا يزال أرنون يعولها.

تزوجت إليزابيث مكغافيرن من المنتج الإنجليزى والمخرج سايمون كيرتس عام ١٩٩٢ . ويقيمان فى لندن ولديهما ابنتان. واستمرت كممثلة متواضعة تركز على عائلتها.

تقيم شونا بيل فى ماليبو، كاليفورنيا، فى ذات الشارع الذى يقع فيه منزل أرنون الشاطئى، ولا تزال على علاقة جيدة برئيسها السابق ووالد طفلتها مايان. ويزور أرنون مايان بشكل منتظم وتجمعهما علاقة أبوية حميمة.

يقول أرنون عن أماندا كويترز التى روضت الوحش: "أخيراً أشعر وأنا فى الـ٦٥ أننى استقررت". ويسافر الاثنان معاً ويربيان ابنهما شمعون كعائلة محبة.

تألم بنيامين بلومبيرغ بشدة جراء فصله التعسفى من منصبة كرئيس لوكالة لاكام. وعاش منطوياً فى شقته المتواضعة فى تل أبيب وغير اسم عائلته إلى فيريد. فى عام ١٩٨٦، أسس وآخرون شركة أسموها أويتوميك تكنولوجيز، لتصنيع الإلكترونيات والليزر لأغراض عسكرية. فى عام ١٩٩٨، ترك الشركة لأسباب صحية. وفى احتفال سرى فى التسعينيات تلقى جائزة إسرائيل للأمن القومى، وهى أكبر جائزة تمنحها إسرائيل للأبطال.

وحقق رافى إيتان مسيرة سياسية ناجحة كرئيس حزب غيل أو المتقاعدين الإسرائيلى. خدم فى الكنيسيت كوزير مفوض بدون وزارة، يقدم المشورة إلى رئيس الوزراء فى شئون الأمن القومى. ومنذ فضيحة بولارد عام ١٩٨٥، تم منع إيتان من السفر إلى الولايات المتحدة، حيث يحتمل أن يتم القبض عليه إذا سافر. يقضى وقت فراغه فى النحت، وأحد أعماله موجود فى غرفة المعيشة فى منزل ميلتشان فى ماليبو.

تم حل وكالة لاكام رسمياً نتيجة لفضيحة بولارد عام ١٩٨٥ . لكنها لا تزال تنشط فى أنحاء العالم، باستثناء الولايات المتحدة، تحت اسم جديد.

لا يزال ريتشارد واميلى سميث يعيشان مع قططهما فى متنزه المقطوزرات المجاور للسكة الحديد فى لومويك، كاليفورنيا. ويتكسبان رزقهما المتواضع بعقد ندوات عن تجارة السلع فى فندق قريب. عندما قابلناهما، وجدنا صعوبة فى إقناعه بأننا لسنا عملاء فى المباحث الفدرالية، نحيك شركاً جديداً له، وذلك ارتياب مفهوم، نظراً لخبراته الحياتية.

استمرت مساعدة ميلتشان القديمة وكاتمة أسراره ديبورا بن إسحاق، فى العمل فى ميلتشان بروس حتى تقاعدت عام ٢٠٠٠، بعد ٢٥ عاماً من خدمة ميلتشان ولاكام. وتقوم حالياً بعمل تطوعى فى منظمة خيرية اسمها بوش تقدم مساعدات التعليم الخاص للأطفال الفقراء.

ظل رومان بولانكسى قيد الإقامة الجبرية، بمنزله فى غشتاد، سويسرا، ينتظر الترحيل إلى لوس أنجلوس على ذمة قضية عام ١٩٧٧ لممارسته الجنس مع سامانثا غايمر التى كانت فى الثالثة عشرة من عمرها آنذاك. وبالرغم من أن غايمر تنازلت عن القضية، فلا يزال المحامى العام عن لوس أنجلوس يحقق فيها بعد ٣٣ عاماً من وقوعها. وفى ١٢ يوليو ٢٠١٠، أعلنت السلطات السويسرية أنها لن تقوم بتسليم بولانسكى إلى الولايات المتحدة، لوجود خطأ فى الطلب الأمريكى بتسليمه. والآن يعيش بولانسكى حراً

طليقاً حالياً، بالرغم من أن التهم ضده لا تزال قائمة فى كاليفورنيا.

لا يزال تيرى غيليام مخرجاً مثيراً للجدل، كانت جيه كيه رولينغ مؤلفة سلسلة روايات هارى بوتر، من المعجبين بأعمال غيليام. ونتيجة لذلك، كان من أول خيارات رولينغ لإخراج فيلم هارى بوتر وحجر الفليسوف عام ٢٠٠٠ .

بيد أنه، وإزاء تذكرها فيلمى برازيل وذا أدفنشرز أوف بارون مانشوسين، وإدراكها لطبْع غيليام الصعب بشكل عام، رفضت شركة وورنر برانرس اختياره كمخرج. وبدلاً منه اختاروا كريس كولومبس لتلك المهمة. وتخلى تيرى غيليام عام ٢٠٠٦ عن جنسيته الأمريكية ولا يستطيع الآن قضاء أكثر من ٣٠ يوماً فى الولايات المتحدة فى العام.

ولا يزال أوليفر ستون مثيراً للجدل أيضاً، إذ يقضى معظم وقته مع [طاغية أمريكا الجنوبية] هوغو شافيز ويُقبَض عليه كثيراً بتهمة حيازة المخدرات.

اكتسبت إسرائيل قدرات الردع النووى الحديثة بسبب الجهود السرية لأناس كثيرين، لكن ميلتشان كان من أهمهم. تم تطوير معظم برنامجها النووى قبل طرح المعاهدات الدولية لمنع الانتشار النووى مثل معاهدة إن بى تى. كان أباء القنبلة الذرية الإسرائيلية نتاج أكثر فترة مروعة فى التاريخ الإنسانى وشاهدين عليها وكانوا مُصرين على عدم تكرار حدوث ذلك مجدداً.

وبمرور الأعوام، تقبلت الولايات المتحدة بشكل ضمنى وضع إسرائيل كالقوة النووية الوحيدة فى الشرق الأوسط.

يتم الآن تقويض تلك الهيمنة من قِبَل نظام إسلامى أصولى فى إيران، نظام يُنكر المحارق النازية ويحفاظ على علاقات وثيقة بمنظمات [إرهابية] مثل حزب الله وحماس، واللذين يمثلان تهديداً قائماً ضد إسرائيل. وللرد على ذلك التهديد المتنامى، تعمل لاكام

باسمها الجديد والموساد بأقصى طاقة لديهما، حيث تم زرع أجهزة رصد فى كل نظام حاسوبى معروف أُرسل إلى إيران على مدار العقد السابق. وفى كل نظام متاح عالى التقنية، مثل إلكترونيات الطائرات وقطع الغيار، حيث جرى التلاعب فيها.

ومن المعروف على نطاق واسع أن إسرائيل مسئولة بشكل مباشر عن اختراق فيروس ستاكسنت للحواسيب المتحكمة فى برنامج تخصيب اليورانيوم الإيرانى، ونابذاته الدوارة. ويعد فيروس ستاكسنت أعقد نظام هجوم سيبرى منذ فجر العصر الرقمى وتسبب فى تأخير برنامج إيران النووى عدة سنوات على الأقل. وفى ١٥ يناير، نشرت صحيفة نيويورك تايمز أن فيروس ستاكسنت تم تجربته فى مفاعل ديمونة النووى، حيث تستخدم إسرائيل نابذات مطابقة لنظيرتها الإيرانية. وكما ذُكِر لأول مرة فى هذا الكتاب، فإن السبب فى تطابق النابذات الإيرانية والإسرائيلية هو أن كلا البلدين اشتريا التصميم من نفس المصدر فى أوائل السبعينيات، أى شركة يورنيكو التى مقرها فى ألمانيا.

لم تنته الحرب التى تم تجنيد ميلتشان من أجلها فى شبابه يوماً، بل أخذت أبعاداً جديدة.

فوجئ ميلتشان عندما أخبرناه أننا كتبنا كتاباً عن حياته، وتركنا له حق الرد. وأملت عليه غريزته الأولى أن يستكشف عمق معرفتنا. وسرعان ما فهم أننا اجتهدنا فى البحث. وخلال بضعة أيام، وجدنا أنفسنا فى سيارة ميلتشان الكاديلاك المصفحة، ذات النوافذ الداكنة والتليفزيون المتصل بالأقمار الصناعية، وفى طريقنا لاجتماع معه فى أحد منازله. توقفت السيارة فى طريق سريع مزدحم أمام باب ضخم ليس لدينا فكرة عما يقبع وراءه. دخلنا من الباب إلى فناء فارهٍ استوائى الطراز يؤدى إلى باب آخر كان ينتظرنا عنده كبير خدمه جون إنجليزى الجنسية.

ثم دخلنا عالماً متألقاً بالأعمال الفنية الغالية التى تزين كل مساحة ممكنة، وفى

الخلفية أصوات أمواج المحيط الرقيقة وهى تتسارع إلى الشاطئ الرملى. وتم توجيهنا إلى مكتبة صغيرة مكتظة بالكتب الفنية عن كبار الفنانين طوال الـ ٥٠٠ عام الماضية على الأقل.

وصل ميلتشان يرتدى ملابس مريحة مبهجة، لكنه كان يتألم من إصابة حديثة بالكتف، وقال باسماً: "بالغت فى لعب التنس، والآن أدفع الثمن". اقترح أن نبدأ بشرب نخب لقائنا وطلب من چون تجهيز جرعات من شراب التيكيلا المفضل لديه، مع شرائح الليمون، وزجاجات الجعة.

ثم اصطحبنا فى جولة، وهو يُعدِّل نظام الإضاءة المتطور الذى يضئ الأعمال الفنية التى تتجاوز قيمتها مليون دولار فى أنحاء المنزل. ثم دخلنا دار عرضه الخاصة المتطورة، حيث يعرض أحدث إنتاجاته، ولاحقاً، إلى صالة الألعاب الشاسعة فى الدور السفلى حيث يحاول هزيمة تقدمه فى السن.

واضح أنه رجل ودود وساحر عندما يريد، وهو سلوك حرصنا على ألا نخطئه على أنه ضعف أو سذاجة. بدا منفتحاً، لكنه متحفظ للغاية فيما يتعلق بالمعلومات التى يكشف عنها. فقط عندما يواجه بدليل قوى لا يروقه، يميل إلى التخلى عن تحفظه. هذا هو ميلتشان.

عندما أخبرنا سامر ريدستون أحد أباطرة الإعلام أنه يعتبر ميلتشان "السيد إسرائيل"، لم يكن لديه فكرة كم كانت عاطفة صادقة. إن استطاع المرء تخيل شخص واحد بالغ الأهمية فى الوسط يعرف كل شىء عن التاريخ الأسود لحروب إسرائيل السرية، فلن يكون الشخص سوى هذا المنتج المخضرم، الذى يقضى حياته متنقلاً باستمرار بين عوالم الشهرة والسرية، والخيال والواقع، والحرب والسلام.

صدر من هذه

السلسلة

١- محمد (ص)
٢- صدام الحضارات
٣- عصر الجينات
٤- القدس
٥- العولمة والعولمة المضادة
٦- التاريخ السرى للموساد
٧- من يخاف استنساخ الإنسان؟
٨- حريم محمد على
٩- عولمة الفقر
١٠- صور حية من إيران
١١- البحث عن العدل
١٢- لورانس: ملك العرب غير المتوج
١٣- الصهيونية تلتهم العرب
١٤- معارك فى سبيل الإله
١٥- التطبيع ومقاومة الغزوة الصهيونية
١٦- التسوية: أى أرض.. أى سلام
١٧- المكنز الكبير
١٨- الحق يخاطب القوة
١٩ـ نساء فى مواجهة نساء
٢٠ـ مؤامرة الغرب الكبرى
٢١ـ روسيا.. إلى أين
٢٢- موسوعة الأم والطفل
٢٣- الخدعة الرهيبة
٢٤- نهاية الإنسان
٢٥- خدعة التكنولوچيا
٢٦- ٣٦٥ حتوتة وحتوتة
٢٧- بوش ضد العراق ... لماذا؟
٢٨- أين الخطأ ؟
٢٩- اللولب المزدوج
٣٠- رجال بيض أغبياء
٣١- سادة العالم الجدد
٣٢- الخطيئة الأولى لإسرائيل
٣٣- اللعب مع الصغار
٣٤- الإبادة السياسية
٣٥- حكومة العالم السرية
٣٦- ما بعد الإمبراطورية
٣٧- بوش فى بابل

٣٨- المقاومة العراقية.. ومستقبل النظام الدولى

٣٩- تزييف الوعى

٤٠- القانون فى خدمة من ؟

٤١- كفى

٤٢- معنى هذا كله

٤٣- حياة بلا روابط

٤٤- ٣٦٥ حدوتة وحدوتة

٤٥- أنا والعولمة .. عالم بديل ممكن..

٤٦- جسدى سلاحاً

٤٧- ثالوث الشر

٤٨- الحضارة الإسلامية المسيحية

٤٩- أمـريكا العظمى.. أحـزان الإمبراطورية

٥٠- الطَّريقُ إلى السُّوبَرْمَان

٥١- مدربون على القتـل

٥٢- معاداة السامية الجديدة

٥٣- إبادة العالم الثالث

٥٤- بيولوچيا الخوف

٥٥- لغز اسمه الألم

٥٦- تعليم بلا دموع

٥٧- أحمد مستجير

٥٨- العين بالعين

٥٩- شافيز

٦٠- قصص الأشباح

٦١- حزب الله

٦٢- الإنسان هو الحل

٦٣- السيارات المفخخة

٦٤- بلاكووتر

٦٥- حضارتهم وخلاصنا

٦٦- نحو الحرية.. نلسون منديلا

٦٧- العهد

٦٨- مزرعة الحيوانات

٦٩- أطفال الإنترنت

٧٠- لعبة الملايين

٧١- تجارة الجنس

٧٢- الأمريكى الساذج

٧٣- الأبرياء

٧٤- الشباب والجنس
٧٥- التربية من عام إلى عشرين عام
٧٦- فلورانس وإداورد
٧٧- الجهاد فى سبيل الحقيقة
٧٨- غاندى (٢)، رؤى، تأملات، اعترافات
٧٩- شرف البنت
٨٠- الزواج المحرم
٨١- أنبياء مزيفون
٨٢- إمبراطورية العار
٨٣- اختطاف أمريكا
٨٤- شريعة الجستابو
٨٥- رومانسية العلم
٨٦- اختفاء فلسطين
٨٧- من هم إسرائيل
٨٨- ثلاثون كتاباً فى كتاب
٨٩- اقتصاد الاحتيال البرىء
٩٠- الله.. لماذا؟
٩١- الأمراض المعدية
٩٢- الطريق إلى بئر سبع
٩٣- مجمع الشيطان
٩٤- فى ذكرى المقاومة
٩٥- خطايا تحرير المرأة
٩٦- دساتير من ورق؟
٩٧- صُنا ع الملوك
٩٨- صناعة الأكاذيب
٩٩- عندما تحكم الصين العالم
١٠٠- الحركة العامة للاقتصاد المصرى فى نصف قرن
١٠١- رحلة السندباد
١٠٢- وجه أوباما الأبيض
١٠٣- تشى چيڤارا سيرة للنشء
١٠٤- أنا أقترض.. أنا موجود
١٠٥- قصة فيس بوك
١٠٦- غواية الرجال
١٠٧- بيل جيتس
١٠٨- تأثير إيران ونفوذها فى المنطقة
١٠٩- المعرفة فى خدمة الهيمنة
١١٠- البيتلز «سيرة للنشء ٣»

١١١- أسامة بن لادن «سيرة للنشء ٤»

١١٢- «كاليجولا» مسرحية من ٤ فصول

١١٣- المسلمون الافتراضيون

١١٤- القاعدة نهاية تنظيم. أم انطلاق تنظيمات؟

١١٥- مافيا إخفاء الأموال المنهوبة

١١٦- الدولة الدينية في اليهودية والمسيحية والإسلامية

١١٧- مُرشد الوالدين

١١٨- أجيال في خطر

١١٩- العرب.. رواد الفكر الاقتصادي

١٢٠- تركيا الأمة الغاضبة

١٢١- انقراض العالم الثالث

١٢٢- الثورة العربية والثورة المضادة أمريكية الصنع

١٢٣- الأقصى ينهار

١٢٤- مرشد المحتجين والثوار

١٢٥- الطاقة - لعبة الكبار.

١٢٦- الإسلاموفوبيا

١٢٧- مصر كما تريدها أمريكا

١٢٨- حروب المياه

١٢٩- الدين ووظائفه السياسية

١٣٠- خطباء المساجد: من الدّعوة إلى التحريض.

١٣١- عالم بلا إسلام؟

١٣٢- دليل الاستبداد والمستبدين.

١٣٣- يهود «هوليوود».

١٣٤- «عزيزتي لورا» لغز وفاة المستر كورزييه.

١٣٥- الإخوان المسلمون بين المعارضة والسلطة.

١٣٦- رسائل من مصر.

١٣٧- السودان.. صراعات المصالح ورهانات المصير.

١٣٨- الفيروسات عواصف وقواصف.

١٣٩- الحجاب؟ الأصول - التنوعات - التداعيات.

المحتويات